فصل الدين عن الدولة

إسماعيل الكيلاني

المكتب الإسلامي



الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م بيروت

الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م بيروت

المكتب الاسلامي

بيروت : ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً : اسلاميا

الإهْــــدَاء

إلى التي أدبتني فأحسنت تأديبي
وزرعت في قلبي محبة الله عز وجل
وعودت جوارحي ـ منذ الصغر ـ طاعته
الرائدة الأمينة على درب اليتم الطويل

أمي

بعض غرسك، اعترافاً بجميلك وحسن صنيعك
وعهداً على طاعتك بالمعروف إن شاء الله
ما حييت

* * *

رسَالة

لنيل درجة الماجستير في السياسة الشرعية

بإشراف

فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الغني محمد عبد الخالق
رئيس قسم أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون ـ جَامعة الأزهر

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله؛ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

أما بعد : فإن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله عز وجل للبشرية جمعاء﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾وأنعم به على هذه الأمة فأخرجها من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والفرقة والتبعية والتخلف إلى نور العلم والمعرفة والوحدة والأخوة الصادقة والعدالة المطلقة﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم

فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾﴿ولا يجرمنَّكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾.

الإسلام الذي يعرف أعداء هذه الأمة دوره في حياتها، ويقدرون خطره على مصالحهم ووجودهم فيعمدون إلى حربه، ومحاولة تغييبه أو الانحراف به عن حقيقته، يقول البروفسور «موشيه شارون» مستشار «بيغن» للشؤون الإسلامية: (ما من قوة في العالم تضاهي قوة الإسلام من حيث قدرته على اجتذاب الجماهير، فهو يشكل القاعدة الوحيدة للحركة الوطنية الإسلامية) (حضارة الإسلام الدمشقية: رمضان ١٣٩٩) ويقول «بيريز» في اجتماع شبيبة حزب العمل في تل ابيب: (لا يمكن أن يتحقق السلام في المنطقة ما دام الإسلام شاهراً سيفه، ولن نطمئن على مستقبلنا حتى يغمد الإسلام سيفه إلى الأبد... إن قضية الشعب اليهودي تكمن في أن الإسلام لا يزال في مرحلته العدوانية والتعصبية، وفي مرحلة التوسعية والاحتلالية، وهو غير مستعد للتنازلات، وإن الأمر يحتاج إلى وقت طويل حتى يتنازل الإسلام عن سيوفه، ويعود إلى مستواه الإنساني كما عادت النصرانية...) (حضارة الإسلام الدمشقية: جمادى الأولى ١٣٩٧) ومن قبله قال «بن جوريون»: (نحن لا نخشى الاشتراكيات، ولا القوميات، و لا الديمقراطيات في المنطقة، نحن فقط نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلاً، وبدأ يتململ من جديد...) (الفكر الصهيوني وأهدافه في المجتمع الإسلامي ـ رسالة ماجستير ـ جامعة محمد بن سعود).

وجاء في تعليق لصحيفة «يديعوت أحرونوت» اليهودية بتاريخ ١٩٧٨/٣/٨م ما يلي: (يجب أن يبقى الإسلام بعيداً عن المعركة إلى

الأبـد. . . وإذا فشلنا في إقنـاع أصدقـائنـا بتـوجيـه ضربـة قـاضيـة إلى الجماعات الإسلامية في الـوقت المناسب، فـإن على إسرائيـل حينذاك أن تـواجه عـدوًّا حقيقيّاً لا وهميـاً، وهو عـدو حـرصنـا أن يبقى بعيـداً عن المعركة).

وفي مقال نشرته مؤخـراً مجلة «الشؤون الخارجيـة» الأمريكيـة دعا الرئيس الأمريكي الأسبق «نيكسون» كلًّا من الـولايات المتحـدة والاتحاد السوفيتي إلى نسيان ما بينهما من خلافات، أو تأجيلها، والاتحاد لمواجهـة ما أسماه «الخطر الإسلامي».

وعنـدما التقى «ريجـان» و«جـورباتشيف» مؤخـراً في قمـة جنيف بسـويسرا، سـأل صحفي بـريـطاني «جيمس كـالاهـان» رئيس وزراء بريطانيا الأسبق، قائلاً: ماذا تظنهما يبحثـان؟ فقال: إني أتـوقع، ويجـدر بهما، أن يبحثا مشكلة الإسلام المعاصر. . .

ولا أريد أن أذكِّر بمـا دونه الجنـرال «ديغول» في مـذكراتـه بعد أن سقـطت باريس بيـد الألمـان عـام ١٩٣٩ وكـان وكيـلاً لـوزارة الحـربيـة الفرنسية، وصمم على الانتحار، واستدعى قسيسه ليعـترف أمامـه، وأنه قال يومها: إنه يرى أن سقوط باريس هو سقوط الحضارة الغربية، وهذا إيذان بعودة الإسلام، وليس انتصار دولة أوروبية هي ألمانيا. . . ولا بمـا قـاله «هتلر» للحـاج محمد أمـين الحسيني رحمه الله مفتي فلسـطين الأكـبر أثناء الحرب العالمية الثانية عندما عـرض عليه تشكيـل جيش متطوع من مسلمي شمالي افريقيا ليحارب إلى جـانب الألمان ضـد الحلفاء، فـرفض قائلاً: لا، أنـا لا أخاف الحلفـاء، ولا أخاف الشيـوعية، ولكني أخـاف الإسلام لو انتصر وحكم!! وقد سجل هذا «إميل الغوري» وهو نصراني

كان يشغل منصب سكرتير الهيئة العربية العليا لفلسطين التي كان يرأسها الحاج أمين رحمه الله في مذكراته (فلسطين عبر ستين عاماً).

ولكني أقول: رغم هذا كله، ورغم أن الرئيس الأمريكي «ريجان» الذي سخر من المسلمين (الذين لا يزالون يفكرون في السياسة بمفاهيم الدين، ويحسبون أن الطريق إلى الجنة يمر بالجهاد) في أول حديث صحفي له بعد فوزه بكرسي الرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٠م هو الذي أعلن في واشنطن يوم ٣٠ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٨٤م أن (الإنجيل يضم كل الإجابات على قضايا العصر وكل الأسئلة الحائرة) وأن (الأموال التي ننفقها في محاربة الخمر والمخدرات والأمراض يمكن توفيرها لو حاولنا جميعاً أن نعيش وفق الوصايا العشر... لقد أخبروني أنه منذ بداية الحضارة سُنَّتْ ملايين القوانين، ولكنها جميعاً لم تصل إلى مستوى قانون الله في الوصايا العشر) وقال، وهو يحمل الكتاب المقدس بيده: (إن هذا الكتاب يحمل الحلّ لكل مشاكلنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية...) وأنه (لا يوجد شيء اسمه الفصل بين الدين والسياسة، وأن القائلين بهذا الفصل لا يفهمون القيم التي قام عليها المجتمع الأمريكي) [الأخبار القاهرية ٣/١٠/١٩٨٤].

رغم هذا فلا نزال نسمع بين الفينة والأخرى من يحاول إثارة قضية «فصل الدين عن الدولة» وأن (الإسلام دين لا شأن له بالدولة) وأن «لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة» ومن يكتب مؤيداً الفصل في محاولة لتغييب الإسلام عن ساحة العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي حتى والفكري؛ لتبقى رحلة التيه سائرة في طريقها المرسوم، حتى يتحقق لأعداء الأمة ما يريدون ويعملون له بدأب

وإصرار دون كلل أو ملل (أن يغمد الإسلام سيفه إلى الأبد، وأن يعود ليصبح كالنصرانية) ومن هذه الكتابات: كتاب اختار صاحبه له عنواناً نسبه فيه إلى القرآن الكريم في محاولة ماكرة لترويجه وخداع الجيل عن حقيقته (مفاهيم قرآنية) لمحمد أحمد خلف الله نشرته سلسلة «عالم المعرفة» الكويتية؟ وقد رأيت وأنا أدفع الكتاب في طبعته الثانية أن أضيف إليه ما يبين حقيقة هذه المفاهيم وصاحبها وتحذير الجيل منها ومن أمثالها، فلا ينخدع بالشكل عن المضمون، ولا بالظاهر عن الباطن ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمم نوره ولو كره الكافرون﴾.

وبعد: فإني أرى من الواجب عليَّ أن أسجل شكري للأخ الكريم الأستاذ محمد زهير الشاويش ـ أبو بكر ـ صاحب الأيادي البيضاء في نشر الثقافة الإسلامية، وصاحب الفضل في رؤية هذا الكتاب للنور، لأن من لا يشكر الناس لا يشكر الله، فجزاه الله خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إسماعيل الكيلاني



المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه ودعا بدعوته *أما بعد*:

فقد سيطر الغرب بعد حملة الإسكندر المقدوني ولأكثر من ألف عام على أغلب المناطق التي قام فيها الإسلام بعد، والذي استطاع أن يجمع كلمة الساكنين فيها ويوحدها ويطرد الغربيين منها، وبدأت بعد ذلك حلقات الصراع بين الإسلام والغرب، ولم تتوقف، وجاء الغزو الصليبي بعد خمسة قرون من ظهور الإسلام في محاولة لاستعادة هذه المناطق، وكانت بدايته عندما وقف البابا « أوربان الثاني» في مدينة «كليرمونت» في جنوبي فرنسا أمام المجمع المقدس داعياً إلى تحرير بيت المقدس من الكفرة ـ المسلمين ـ وكان المجمع قد عقد لهذه الغاية، وتجمع الغزاة من الصليبيين بقيادة بطرس الناسك ـ الراهب ـ على إثر ذلك، فكانت حملته بداية لحملات صليبية متعددة تتالت على العالم

الإسلامي حتى تمكنت من إقامة عدة إمارات صليبية فيه منها: إمارة أرمينيا ـ الرها ـ أنطاكية ـ طرابلس ـ بيت المقدس. . .

وعلى الرغم من هذه الانتصارات المحدودة والوقتية التي حققها الصليبيون خلال فترة غزوهم الذي استمر قرابة قرنين من الزمن، إلا أن أحداث ومجريات الغزو كشفت لهم أنه لم يعد من السهل إعادة هذه المناطق إلى الغرب والسيطرة الصليبية، وضمها من جديد إلى عالم الغرب وفكره، وما ذلك إلا لأن مفهوماً عقيدياً فكرياً شاملاً قد سيطر على هذه المنطقة وتعمق وأصبح يمثل قوة جديدة تستطيع دائماً وأبداً أن تواجه عالم الغرب، وجاءت الأحداث المتوالية مؤكدة لهم أيضاً أن أنظمة الحياة الغربية ـ المستمدة أصلاً من التصورات الوثنية الإغريقية والرومانية والتصورات الكنسية ـ لا تستطيع أن تسيطر على العالم الإسلامي أو تذيبه أو تقضي على مقوماته التي استمدها أصلاً من الإسلام. . .

من هنا بدأ الصليبيون بإعداد الخطط لمواجهة هذه الحقائق المكتشفة أمامهم والتي تأكدت لهم فقام «ريمون رول» في القرن الرابع عشر الميلادي ينادي بوجوب استبدال الحملات الصليبية ببعثات تبشيرية[1] تضع نصب أعينها العمل على تحويل المسلمين عن دينهم تحويلاً بطيئاً وغير مباشر للحيلولة بينهم وبين مصدر قوتهم، فإذا تحولوا عن دينهم خطوة أمكن أن يتحولوا عنه خطوة أخرى خصوصاً إذا كان التحول غير مباشر، وهكذا حتى يأتي اليوم الذي يتحول فيه المسلمون عن إسلامهم

(١) الحروب الصليبية، النص العربي ص ١٤٤، وانظر أيضاً «من روائع حضارتنا» ص ٣٩ وما بعدها، من منشورات المكتب الإسلامي ـ بيروت.

ويكـونون حـرباً عـلى دينهم، فتكـون النتيجـة بعـد ذلـك محققـة لآمـال الصليبية وغاياتها . . .

وانطلق الغزو الفكري التنصيري بعد ذلك باتجاه العـالم الإسلامي وتسلل تحت ستـار تحقيق الغايـات الإنسانيـة النبيلة (تطبيب ـ تمـريض ـ تعليم . . .) ومهمته تمهيد الطريق أمام جحافل الغزو العسكري، وتهيئـة المناخ المناسب لتحقيق مصالح الصليبيـين . . .

ولقد بلغت الهجمة الغربية الصليبية أوجها في القرن التاسـع عشر الميلادي[1] وتمكنت من السيطرة على أجزاء واسعـة من العالم الإسـلامي (احتلال فرنسا للجزائر وتونس، احتلال انجلترا لمصر والسودان وجـزيرة قبرص، فضلاً عمّا تم سابقاً من طرد للمسلمين من الأندلس، واحتـلال انجلترا للهند والقضاء على الدولة المغولية الإسلامية فيها . . .).

وعـلى الـرغم من فقـر المسلمـين آنـذاك في العـدة والعتـاد، ومن جهلهم بالتقنية الغربية الحديثة بقيت لديهم روح جهاديـة وقفت للهجمة الصليبية الغربية بالمرصاد، واستشهـد مئات الآلاف بـأسلحتهم الخفيفة والتقليدية أمام جحافلها المدرعة والمدججة بالأسلحـة الآلية، ولقـد خبر الغرب هذه الـروح في الثورات المتتـابعة التي حمـل لواءهـا الإسلاميـون المقاومون المتحمسون، فالوهابيـة والسنوسيـة والمهدية، وثورة البـاتان في الأفغـان، وثورة المسلمـين في الهند، وثـورة عبد القـادر الجزائـري وعبد الكريم الخطابي . . . كل هذه الثورات أعطت الغـربيين الـدروس والعبر

(١) حملة نابليون بونابرت على مصر والشام، وظهور محمد علي وتسلمه السلطة في مصر، وإرساله حملة بقيادة ابنه ابراهيم للسيطرة على بلاد الشام، واستفحال خطر التبشير هناك بفعل سياسته التي سمحت للإرساليات ومدارسها أن تقوم في تلك البلاد.

فقاموا من جديد بتطوير وسائلهم في التعامل مع الإسلام لجعلها أعمق جذوراً وأبعد تأثيراً، ففتحوا جبهات داخلية في قلب المجتمع الإسلامي تلغم صموده وتفتت تماسكه في محاولة لقتل روحه الجهادية[1]. . .

فكانت الدعوة الخبيثة البارعة للتغريب، وبدأ العمل في عرين الخلافة المتداعية، والتقت مطامع الصليبيين مع مطامع الحركة الصهيونية التي صدمت بعد أن قررت في مؤتمرها العام الأول الذي عقدته في مدينة بال السويسرية عام ١٨٩٧م العمل على تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود تمهيداً لإعادة دولة اسرائيل لسابق مجدها كما يزعمون ـ حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل ـ بوقوف الخليفة آنذاك السلطان عبد الحميد الثاني في وجههم ورفضه المغريات الكثيرة التي عرضت عليه من قبل زعماء حركتهم، وجاء رده واضحاً: «إن فلسطين ليست ملك يميني بل هي ملك شعبي الذي رواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من دولتي وهذا أمر لا يكون. . .»[2] وتشكل الحلف غير المقدس بين الصليبية والصهيونية والتي ما تزال آثاره بادية للعيان حتى اليوم[3]. . .

---

(١) قال الكاردينال برتولي للبابا: إن النصرانية في الشرق هي التي زرعت الحركات الثورية ودعوات التغيير، وإن أسماء: أنطون سعادة، ميشيل عفلق، جورج حبش قد تفسر لك ما ما أعنيه. . . ويجب أن يذكر في هذه المناسبة: قسطنطين زريق، فرج الله الحلو، جورج حاوي. . . مجلة الأمان البيروتية ١٩٧٩/٢/٩.

(٢) جهاد ناطق ص ٨ وما بعدها، جواد رفعت أتل خان ص ١٢٤، خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية ص ٤٥ وما بعدها.

(٣) في دراسة قدمها مؤخراً الباحث يوسف الحسن إلى ندوة «الاعلام الصهيوني ومتطلبات المواجهة العربية» التي نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم؛ يذكر أن مائتين وخمسين منظمة نصرانية مؤيدة للصهيونية في الولايات المتحدة وحدها، بدأت حرباً مكشوفة ضد المسلمين. . . وقد شددت هذه المنظمات على ضرورة وضع حدّ لتزايد أعداد المسلمين=

فقامت الدعوة القومية العنصرية يدعمها الدونمة وواكبتها العلمانية وتبعتها المادية . . .

خرجت من الشرق بعثات ووفود، وجاءه خبراء وفنيون، وقامت مؤسسات وإرساليات تبشيرية وتضاعفت الأبحاث الاستشراقية وافتتحت مدارس خاصة وجامعات، وأغرقت المكتبات بالكتب الغربية الحديثة، وطورت مناهج التعليم لتناسب الفلسفة الغربية الوافدة، وأسست الكليات الحربية الحديثة لتدريب العسكريين وتغريبهم، ونجحت الخطوات الأولى، وتخرج الجيل الذي يحمل اسم الإسلام ليحمل عبء المعركة عن الغرب الصليبي، الجيل الذي ربي على عين الغرب، وأعد بدقة وإحكام لاستلام دفة الحكم، وفرض التغريب من فوق على الجماهير المخدوعة وفي ذلك يقول هاملتون جب[1]:

«وأهم ما يلفت النظر في عملية التطور هذه، الجهود الضخمة التي ظهرت في كل بلدان الشرق الأوسط، ولم يكن الأوروبيون وراء هذه الجهود، بل جاءت كلها نتيجة لعمل الشرقيين المهنيين من أبناء الطبقة الوسطى، وكان في طليعتهم: المحامون والصحفيون، فكل مراكز الدولة الحساسة هي الآن في أيدي المتغربين الذين أدخلوا الأساليب الغربية إلى سائر مناحي الحياة الوطنية، ولم يكن هذا ناشئاً عن دراستهم المسبقة لفوائد التغريب، بل لأنهم وجدوا أن من الطبيعي القيام بحركة تغريب . . .».

= ونفوذهم في المجتمع الأمريكي . . . وقد أقامت هذه المنظمات فروعاً لها في الأرض المحتلة بهدف الإسراع في تنفيذ مخطط هدم المسجد الأقصى المبارك لتشييد «الهيكل الثالث» على انقاضه . . .

(١) الإسلام والغرب والمستقبل، الصفحات: ٩، ٤٨، ٤٩، ٦٠، ٦١.

ويقول أيضاً: «والأسلوب الذي استطاعت به طبقة المتغربين تأمين قبضتها الثابتة على السلطة في الدولة كان القومية، فالقومية هي فكرة غربية أيضاً. . .».

ويقول: «وفي المناطق التي فشل فيها الحكام المدنيون المتغربون في تطبيق البرامج المرسومة، قام العسكريون المتغربون بالمهمة لأنهم أجرأ وأسرع في عملية التغريب، فهم مدعومون بالقوة العسكرية المسلحة. . . وليس من قبيل الصدفة أن تقوم النظّم العسكرية الديكتاتورية في عدة بلاد شرقية لأن العملية تحتاج إلى عنف. . .» [1].

أما برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في جامعة لندن فيؤيد جيب قائلاً[2]: «إلا أن أكثر التغيرات الجذرية العنيفة التي حدثت، قام بها متغربو الشرق الأوسط من حكامه الشرقيين بعزم وشجاعة ومغامرة. . . وقلد المتعلمون الشرقيون أصحاب الفكر الغربي بعدما أخذوا بروعة أفكارهم وطاقاتهم العلمية، وانعكس هذا التأثير الفكري رمزياً في تغيير اللباس وارتداء الزي الغربي. . .» إلى أن يقول: «والتغريب جاء بتغييرات يشك كثيراً في قيمتها، وأول هذه التغييرات هو الانحلال السياسي الذي أدى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها، والأهم من ذلك أنه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم، فالسلطان هو الحاكم بلا منازع لأنه عاهل لآخر خلافة إسلامية تضم جميع مسلمي العالم تقريباً، ثم

---

(١) «يمكن أن نلاحظ أن أي صدام وقع ويقع بين المتعصبين المسلمين وأبناء جلدتهم من المتغربين المسلمين، يلقى المتعصبون فيه عناء شديداً، ويعاملهم المتغربون معاملة قاسية لا يتجاسر الغربيون على القيام بها، فالغربيون يعذبون المتعصبين بالسوط، أما المتغربون المسلمون فيعذبون بالعقارب» ص ٥٦.

(٢) الغرب والشرق الأوسط برنارد لويس ص ٣٠ وما بعدها.

عزل السلطان وهدمت الخلافة، وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء والديكتاتوريين الذين دبروا لمدة معينة أمورهم وربحوا تصفيق وتأييد شعوبهم، ولكنهم لم يكونوا أبداً موضع الرضى التام والقبول الطبيعي والولاء الأكيد الذي كان ممنوحاً لحكومة السلطان الشرعية. وهذا الولاء والرضى جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهاب، أو للغوغائية السياسية في الحكم. . . وبضياع الشرعية والولاء خسر أهل الشرق الأوسط هويتهم الواحدة القديمة (الهوية الإسلامية) فبعد أن كان كل مواطن عضواً في إمبراطورية إسلامية كبيرة لها ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ، وجد الناس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة، والوحدات السياسية الجديدة المفتعلة. . .» ويعدد بعد ذلك النتائج الوخيمة للتغريب على المجتمع والثقافة والاقتصاد. . .

أما المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي فيقول في محاضرته عن الإسلام والغرب والمستقبل[1]: «هنالك طبعاً أفكار ومؤسسات غربية نشك في أنها نعمة، وأهم هذه الأفكار هي القومية. . . فلقد أصيب الأتراك وغيرهم من الشعوب الإسلامية بعدواها الشديدة كما أصيبوا بغيرها من المفاهيم الغربية سواء النافعة منها أو المضرة الوبيلة. . .».

ومع أنه يقول هذا القول نجده يخاطب الشرقيين ـ المسلمين ـ بقوله: «تغربوا في كل شيء وحاربوا المتعصبين (يعني بهم أولئك الذين قاوموا الاستعمار الغربي الصليبي ووقفوا في وجه حركة التغريب) فهم العائق الوحيد في طريق التقدم والسبب الأكيد في جهلكم وتأخركم. . .».

(١) ص ٢٦/٢٧.

ونجده يمتدح[1] مصطفى كمال وديكتاتوريته فيقول: «وكأنما كانت عملية أتاتورك هي: جمع النهضة الأوروبية والإصلاح الديني والثورة العلمانية العلمية الفكرية والثورة الفرنسية والثورة الصناعية كلها في بوتقة واحدة في عصر واحد، وفرضها على الناس بقوة القانون، فتحرير المرأة وإزالة الدين الإسلامي، وفرض الأبجدية اللاتينية، بدل العربية، كل ذلك شرع بقوانين ما بين ١٩٢٢ ـ ١٩٢٨م. ونفذت الثورة بيد ديكتاتور يعمل من خلال حزب واحد يستأثر وحده بالسلطة... وربما لم يكن ليتم التغيير لو كانت الطريقة أقل ديكتاتورية...».

ويضع له المسوغات لهذا فيقول: «ففي العشرينيات من القرن العشرين كان على تركيا إما أن تقلب حياتها رأساً على عقب أو أن تفنى، واختار الأتراك الحياة بأي ثمن».

ولقد بدأت عملية التغريب هذه في اسطمبول ـ إسلام بول ـ عاصمة الخلافة وانتقلت بعد ذلك إلى القاهرة ثم توسعت فشملت الشرق كله تقريباً...

وهكذا نجد أن الغرب الصليبي وحليفه الصهيوني في سعيهما للقضاء على الخلافة الإسلامية عملا معاً جنباً إلى جنب وبوسائل متعددة، كان في مقدمتها: العمل على إثارة النعرات الإقليمية الضيقة في

(١) وسبب ذلك أنه حقق لهم ما كانوا يحلمون به، ويسعون جاهدين لتحقيقه ألا وهو القضاء على قوة الإسلام السياسية وتضييع وحدة المسلمين، يضاف إلى هذا تقيده وأخذه بنصيحة توينبي في محاربته المتعصبين والقضاء عليهم. ومن آخر تقليعات المتغربين بخصوص أتاتورك أنه باعث النهضة العربية الإسلامية الحديثة!! حسب زعم أنيس منصور في مجلة أكتوبر المصرية العدد ١١٥، وكأن عقول القراء في إجازة.

دولة الخلافة عن طريق الدعوات القومية (الطورانية ـ العربية، بل لقد وصل بهم الأمر إلى إثارة النعرات الأضيق من آشورية وفرعونية وبابلية وفينيقية. . .).

وفطن لذلك السلطان عبد الحميد رحمه الله فوقف في وجه هذه النعرات «. . . وأيضاً لم يكن من سياسة عبد الحميد ترويج فكرة القومية الطورانية، بل عمل على خنق كل صوت يخوض في بحث الفكرة التركية والقومية التركية، لا في مجال السياسة فقط بل في مجال الأدب أيضاً، وقد منع الخوض في قضايا اللغة التركية ونشر البحوث المتعلقة بذلك. . .»[1].

ولتفويت الفرصة على أعداء الإسلام من أن يوجدوا شرخاً في الدولة ينفذون منه لتحطيم الأخوة الإسلامية قام بتقريب العرب والاعتماد عليهم ومنحهم مكاناً في الدولة حتى أصبح في أواخر أيامه محاطاً برجالات العرب من كل الأقطار[2].

فقررت الصليبية والصهيونية أن يزول عبد الحميد وأن يزول على نحو مذل ليكون عبرة لغيره من حكام الشرق الذين يعترضون مشيئة الأسياد من صليبيين ويهود. . . وما أكثر الذين وعوا الدرس من الحكام فأصبحوا مطية لأهواء الحلف الصليبي الصهيوني. . . وما أقل الذين وعوا الدرس من الشعوب. وعلى الأثر شكل اليهود في دولة الخلافة جمعية سرية أكثر أعضائها من اليهود المعروفين بالدونمة، والدونمة لقب

---

(١) العلاقة بين العرب والأتراك في العهد الدستوري، توفيق برو: ص ٣٢٤ وما بعدها.

(٢) انظر تفصيلاً أوفى في كتاب «فلسفة التاريخ العثماني» محمد جميل بيهم بيروت، وانظر كتاب «الذئب الأغبر» لأرمسترونج ص ٣٥ ـ ٣٦.

يطلقه الأتراك على جماعة اليهود الذين هاجروا من إسبانية واستوطنوا سالونيك وهم طائفة يتظاهر أفرادها بالإسلام مع احتفاظهم باطناً بالدين اليهودي . . . ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقي وتعاونوا مع كثيرين من الضباط الشبان كأنور ونيازي، وكانت لهم اليد الطولى في الانقلاب وخلع السلطان عبد الحميد، وتم اختيار عمانوئيل قره صو أفندي «زعيم» يهود سالونيك والذي طرده السلطان عبد الحميد[1] عندما جاء يعرض عليه إعطاء فلسطين لليهود ليقوم بتبليغه قرار الخلع . . . ومما يجب ذكره أن هؤلاء الدونمة أعلنوا يهوديتهم التي أخفوها أربعة قرون كاملة، بمجرد نجاح مؤامرتهم واستيلاء الاتحاديين على السلطة.

وقام الاتحاديون برفع لواء القومية الطورانية وبدأت حركة التتريك، وما ذلك إلا ليتم لمن أوصلهم إلى السلطة ما يريد من تحطيم دولة الخلافة وتفتيت المسلمين، وخصوا العرب بالذات بالجانب الأكبر من اضطهادهم واستفزازهم، ولقد كان من أهم أسباب نجاحهم: المناخ الفكري المناسب الذي عملت على تهيئته الغزوة الفكرية الصليبية طوال القرن التاسع عشر يدعمها في ذلك الحركة الصهيونية مما أدى إلى إضعاف ثقة المسلمين بأنفسهم وفي قدرتهم على المقاومة والبقاء، وانتابتهم عبودية فكرية وخلقية للغرب، كل حسب المصدر الذي تلقى عنه ثقافته وأفكاره، فبعضهم للألمان، والبعض الآخر للإنجليز، وآخرون للفرنسيين . . . وفي ذلك يقول برنارد لويس: «وعلى الرغم من أنهم ـ الغزو الصليبي لديار الإسلام في القرن التاسع عشر ـ لم يستطيعوا

(١) جهاد ناطق ص ٨، خطر اليهودية على الإسلام ص ٢٣١ وما بعدها.

تحطيم حضارته الإسلامية ذات الأصول القديمة، فإنهم لغموا ثقة الذين صانوا هذه الحضارة بأنفسهم. . . »[1].

ومن هنا كانت خطورة الغزو الصليبي الصهيوني الجديد، الذي استفاد وأخذ العبر الكثيرة والدروس من فشل الغزو الصليبي السابق، فعمل على تهيئة النفوس والأفكار والمناخ الملائم، وجاء بعد ذلك بجحافله أو قام بإيصال عملائه إلى سدة الحكم. . . لقد تم غزو الدولة العثمانية ـ وهي التي تمثل المسلمين آنذاك وتسيطر على الأماكن المقدسة ـ فكرياً قبل أن تتحرك الجيوش، وقبل أن يطلب من الجواسيس المحترفين العمل لخدمة تحركات هذه الجيوش، وفي ذلك يقول ساطع الحصري[2]:

«إن الجمعيات التي تأسست في الداخل ـ داخل الدولة العثمانية ـ لم تستطع أن توسع نطاق أعمالها كثيراً بسبب صرامة النظام الاستبدادي وإتقان شبكة جاسوسيته ـ يعرض بالسلطان عبد الحميد ـ ولكن بعد سنة ١٩٠٥م. وجدت جمعية الاتحاد والترقي مجالاً واسعاً لعملها في الولايات الثلاث بسبب المراقبة الدولية التي كانت تأسست فيها، والولايات الثلاث كان التعبير الرسمي لما يسميّه الأوروبيون ماكدونية، وكانت تتألف من ولايات مناستر وقوصوه وسالونيك، وقد تأسست في أوائل هذا القرن ـ العشرين ـ في الولايات المذكورة إدارة خاصة تحت مراقبة خمس من الدول الأوروبية المعظمة وهي: إنجلترا، فرنسا، روسيا، النمسا، إيطاليا».

---

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ٣٠ وما بعدها.

(٢) وهو من دعاة القومية العربية العلمانية، وفصل الدين عن الدولة. انظر كتابه «البلاد العربية والدولة العثمانية» ص ١٠٧ وما بعدها.

وقد نقل الدكتور توفيق برو عن مذكرات جمال باشا قوله: «بل كانت هذه الجمعية ـ الاتحاد والترقي ـ ترسل منشوراتها إلى الموانىء التركية على البحر الأسود بواسطة المسافرين وبحارة المراكب الروسية، ومن هناك يستلمها رسل سريون وتوزع في أنحاء البلاد». وكذلك استخدمت مكاتب البريد الأجنبية والتي لم تكن تخضع لرقابة الدولة العثمانية للقيام بالمهمة السابقة نفسها...

واستمرت الغزوة الجديدة في عملها السالف ـ تهيئة المناخ الفكري ـ لتضمن عدم عودة المسلمين إلى مصدر قوتهم الحقيقي، فكان لا بد من أجل تسويغ ما حدث ولضمان استمراره من هدم الخلافة نهائياً، وتم ذلك على يد مصطفى كمال والذي يصفه توينبي قائلاً[1]: «كان واحداً من الضباط الشباب الذين تشربوا الأفكار الغربية إبان دراستهم وتعلمهم الفنون الحربية الغربية في أواخر العهد الحميدي، وكان له دور فعال بعد ذلك في ثورة عام ١٩٠٨ ثم واتته الفرصة بعدما هوى نجم تركيا عندما شاطرت حليفتها ألمانيا الهزيمة في الحرب العالمية الأولى...».

وهنا ولمتابعة عملية التسويغ واستمرارية المناخ الفكري الملائم ومن أجل الإجهاز على الإسلام كنظام للحياة طرحت في العالم الإسلامي الفلسفة الرأسمالية بكل ما تفرع عنها من أنظمة لشتى نواحي الحياة لتقدم للمسلم البديل الذي يبعده عن دينه والذي يشمل في معناه على حد تعبير برنارد لويس ما تعنيه في الغرب كلمة الحضارة النصرانية

(١) الإسلام والغرب والمستقبل ص ٢٤.

والدين النصراني مجتمعين، فتعاليم الإسلام المنبعثة من منابعه الأصيلة تضم بالإضافة إلى المعتقدات والعبادات تشريعاً يمكن أن نسميه بلغة الغرب: الحقوق المدنية والجنائية وحتى الحقوق الدستورية.

فكل مسلم يعتقد أن هذه التشريعات جاءت من النبع نفسه ولها سلطة وقوة التشريعات الاعتقادية والعبادية نفسها...

فكانت الدعوة إلى العلمانية وما صاحبها من فكرة فصل الدين عن الدولة ومحاولة حصر الإسلام في المسجد وفي الزاوية الاعتقادية فقط: وظهر كتاب «الخلافة وسلطة الأمة» وهو مجهول المؤلف، وظهرت ترجمته العربية في القاهرة ١٩٢٣ ويقول عنه الدكتور محمد محمد حسين[1]: «ولكن من المعروف أن لجنة من الترك قد وضعته بإشارة الكماليين، وأن حكومتهم هي التي أشرفت على تأليفه وأعانت على نشره، وهو يهدف إلى تسويغ ما أقدم عليه مصطفى كمال من الفصل بين الخلافة وبين الحكومة بمحاولة إيجاد سند شرعي له...»[2] وتلاه في الظهور كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لمؤلفه علي عبد الرازق (القاهرة ١٩٢٥م).

ولم يكن الهدف من وراء ذلك كله إلا خداع المسلمين عن حقيقة دينهم حتى لا يعودوا إليه، لأن العودة إليه تعني انهيار جميع منجزات

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب الحديث ٢/٦٨ وما بعدها.

(٢) عندما انعقد مؤتمر الصلح في باريس بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، استدعي الدكتور «هواردبلس» رئيس الكلية الإنجيلية في بيروت - الجامعة الأمريكية - الآن - من قبل وزارة الخارجية الأمريكية إلى المؤتمر ليدلي بآرائه أمام المؤتمر فيما يراه لمستقبل المنطقة، فكان أهم ما جاء في بيانه أمام مجلس العشرة الكبار: ضرورة فصل الدين عن الدولة وقال: «إنه من الأفضل للحكم أن يلازم خطاً موازياً للدين، وأن يسير الاثنان متوازيين منفصلين» انظر كتاب «الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان» لمؤلفه زين نور الدين زين الأستاذ في الجامعة الأمريكية ص ١٠٤ وما بعدها.

ومخططات الحلف الصليبي الصهيوني، وها هو توينبي يكتب محذراً من الصحوة الإسلامية فيقول: [1] «ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا العالمية للعالم المتغرب ضد السيطرة الغربية، ونادت بزعامة معادية للغرب، فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لا حصر لها في إيقاظ الروح الجهادية للإسلام، حتى ولو أنها نامت نومة أهل الكهف، إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولي للإسلام، وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقي في انتصاره على الدخيل الغربي:

١- ففي عهد الراشدين حرر الإسلام سورية ومصر من السيطرة اليونانية البيزنطية التي أثقلت كاهلهما مدة ألف عام تقريباً.

٢ - وفي عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول.

فإذا سبب الوضع الدولي الآن حربا عنصرية يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى، وأرجو أن لا يتحقق ذلك. . .».

إنهم يعرفون جيداً أنه قد مرت فترات من الخطر الشديد كان الإسلام فيها مهدداً في الوقت نفسه من الشرق والغرب على حد سواء، ولكنهم يعرفون أيضاً أنه تغلب عليها واجتازها دون أن يتأثر، جاءه الصليبيون غزاة من الغرب فتمكن من الصمود في وجههم بل ودحرهم، وكذلك جاءه الأتراك غزاة من الشرق فحولهم مؤمنين

---

(١) الإسلام والغرب والمستقبل ص ٧٣ وما بعدها.

مسلمين، وهذا ما يخيفهم منه، لـذلك لا بـد من إيجاد الأرضيـة والمناخ والبيئـة الملائمـة لتفريخ الأفكار الغـريبة عن روح الإسـلام في المجتمـع الإسـلامي، وتتالت بعـد ذلك الأحـداث على العـالم الإسلامي، وكـان الخضوع الكامل تقريباً للاستعـمار الغربي، والـرزوح تحت وطأة الأفكـار الليبرالية الرأسمالية حتى جاءت نكبـة فلسطين وضيـاع جزء من أرضهـا ليقام عليه دولة لليهود وذلك في عام ١٩٤٨، وارتفعت الأصـوات معلنة إفلاس الفلسفة الليبرالية الغربية بكل ما طرحت من أفكار على الساحـة لأن الأمة لم تجن من وراء ذلك إلا التخلف والانحطاط والهزائم وضيـاع المقدسات والكـرامة، فـأسرع المتحالفـون من صليبيين وصهـاينة بـطرح الشق الثـاني من الفلسفة الـوضعية الغـربيـة كمنقـذ ومخلص لـلأمـة من معـاناتهـا وعلى المستـويات كـافـة، وفي شتى نـواحي الحيـاة الاجتـماعيـة والاقتصادية والفكرية والسياسية، ورفع شعار الاشـتراكية، والاشـتراكية العلمية، والاشتراكية العربيـة إلى غير ذلـك من شعارات، ومـا ذلك إلا ليبقى المسلمـون في متـاهـة وحـيرة وتخبط وبعـد عن التصـور الصحيـح السليم الـذي يقدم وحـده الحـل الأمثـل لجميـع مشـاكلهم، وقـد رافق ذلك، كما حدث تماماً عندمـا طرحت الأفكـار الليبراليـة، محاولات كبت وسحق كـل اتجـاه أو دعـوة تـرمي إلى إعـادة الأمـة إلى هــذا التصـور الصحيح، بل لقد وصل الأمـر بالمتسلطين عـلى الأمة في هـذه الفترة إلى حـد القيام بـالتصفية الجسـدية في حق الـدعاة إلى الله عـز وجـل ودينـه القويم. . .

وجاءت النكبة الثانية عام ١٩٦٧ أشد من الأولى حيث تم ضيـاع البقية الباقيـة من فلسطين مـع منطقـة الجولان وسينـاء بأكملهـا، جاءت لتفتـح الأعين عـلى المأسـاة الحقيقية التي كـانت تعيشها الأمـة، أو تساق

للعيش بها بوعي ودون وعي، وظهر للجميع إفلاس جميع التصورات الفلسفية الغربية سواء في ذلك التصور الفلسفي الليبرالي أو الماركسي الاشتراكي، وارتفعت الأصوات مطالبة بالعودة إلى التصور الحقيقي الصحيح، ألا وهو التصور الإسلامي، بعد أن تحولت البلاد والعباد قبل ذلك إلى حقل للتجارب ردحاً من الزمن، ولم تحصد الأمة من ذلك إلا العلقم، بل لقد وصل الأمر بالكثير من المتسلطين آنذاك على كراسي الحكم والسلطة، وهم نتاج الغزو الفكري الصليبي الصهيوني، بعد أن لمسوا عواطف الأمة المتقدة والمنادية بضرورة العودة إلى الإسلام لأنه وحده الكفيل بحل جميع المشاكل التي تعاني منها الأمة، وهو وحده الذي يعيد لها الكرامة والعزة وما ضاع من مقدسات وأوطان، وصل الأمر بهؤلاء المتسلطين إلى رفع عقيرتهم معترفين أن النصر لن يتحقق إلا بالعودة إلى الله وأن المشاكل لن تحل إلا بتحكيم شرع الله، وما ذلك إلا لأنهم أحسّوا بنقمة الأمة وغضبها عليهم باعتبارهم من أعمدة النكبة التي حاقت بالأمة، وتتالت تصريحاتهم وأقوالهم في الاتجاه المحبب للأمة، فها هو واحد[1] منهم ـ ولقد كان من قبل أشدهم حرباً على الإسلام ـ يقول في رسالة وجهها آنذاك إلى شريك له: «إننا نؤمن بالله ولا يمكن أن يتخلى الله عنا، ولعل الأيام القادمة تأتينا بنصر من عنده، اللهم أعنا...».

ويقول ثان[2] وثالث منهم: «إننا تحولنا عن الله فتحول الله عنا فكانت النكسة...»

(١) انظر «المؤامرة ومعركة المصير» تأليف سعد جمعة رئيس وزراء الأردن وقتها.

(٢) أمير الكويت وملك المغرب.

ووقف رابع[1] منهم ليقول في افتتاح المؤتمر الثالث لرؤساء المجالس البلدية في دولته: «اطلبوا الموت توهب لكم الحياة، هذا ما عمل به المسلمون الأوائل الذين قادوا الجيوش الإسلامية... وكانوا يقولون لملوك وجبابرة ذلك العهد: لقد أتيناكم برجال يحبون الموت كما تحبون الحياة، أو كما تحبون الخمر... هذه فلسفة الإسلام والعروبة الأولى وقوتهما، والفارق شاسع - أيها الإخوة - بين إسلام الأمس وعروبته، وإسلام اليوم وعروبته، وهنا يكمن السر، فالسر ليس في المدافع والطائرات...» الإسلام هو الإسلام، لكن الذي تغير هو المسلم.

حتى إن رئيس الوفد اليوغوسلافي[2] إلى مؤتمر علماء المسلمين الذي عقد في أعقاب النكبة الثانية في القاهرة، وقف وهو القادم من الغرب والخاضع لدولة تتخذ الإلحاد فلسفة للحياة، وقف ليعلن: «إن المسألة في نظري ليست مسألة المدافع والدبابات، ولا مسألة الصواريخ والطائرات، وإنما هي مسألة العقيدة والإيمان والثقة... إن المسلمين تركوا الفكر الإسلامي وتمسكوا بالفكر الغربي (الرأسمالي والماركسي) وجرى معظمهم وراء الأفكار الدخيلة عليهم والمستوردة فقلّ إيمانهم بعقيدتهم... إن حل هذه القضية - قضية فلسطين - في العودة والرجوع إلى الدين الحنيف وإلى تعاليم الإسلام.. إن كل مشاكل المسلمين لا تحل إلا بالعودة إلى حظيرة الإسلام وإلى التمسك بتقاليد الدين والعقيدة، ودون ذلك لن نحصل على حلول ناجعة لمشكلاتنا وقضايانا...».

وارتفعت الأصوات المؤمنة لتعلن أن رفض القيم والأفكار

---

(١) هواري بومدين.

(٢) حسين الجوزو. انظر مجلة المصور ٤/١٠/١٩٦٨.

والمبادىء الإسلامية، واضطهاد دين الأكثرية الساحقة من سكان العالم الإسلامي ما هو إلا مجرد تظاهر بتحضر مزيف، تنادي به فئة منفصلة عن الشعب، غريبة الحياة والفكر، امتصتها أو شلّتها ايديولوجية العدو المستعمر على حد تعبير عمار أوزيغان صاحب كتاب «الجهاد الأفضل» وينطبق عليها تماماً قول واحد من أساطين الغزو الفكري[1]: «. . . وشرعت الصفوة الأوروبية تصنع صفوة من السكان الأصليين، أخذت تصطفي فتياناً مراهقين وترسم على جباههم بالحديد الأحمر مبادىء الثقافة الأوروبية، وتحشو أفواههم بأشياء رنانة، بكلمات كبيرة لزجة تلتصق بالأسنان، ثم تردهم إلى ديارهم بعد إقامة قصيرة في العاصمة وقد تزيفوا، إن هؤلاء الأفراد ما هم إلا أكاذيب حية تسعى. . .».

ولقد راع هذا الأمر أساطين الغزو الفكري لأنه يؤدي فيما لو استمر إلى نهايته إلى هدم مخططاتهم والقضاء المبرم على المناخ والبيئة الفكرية التي أوجدوها وتلامذتهم في العالم الإسلامي، فتحركوا وأوعزوا للمتغربين، للأكاذيب الحية الساعية كما سمّاها سارتر، أن يتدبروا الأمر على عجل لتزييف الحقيقة التي بدت عارية أمام الأمة وتغطيتها من جديد في محاولة لإلهائها لعلها تنصرف من جديد عن مصدر قوتها، وبدأ المنتفعون من أصحاب المصلحة يكتبون معللين مفسرين، ومبينين شارحين ما حل بالأمة، فها هو أحدهم[2] يكتب في مجلة الآداب البيروتية وفي عدد تموز ـ يوليه ـ ١٩٦٧، أي في أعقاب النكبة قائلاً:

(١) جان بول سارتر الفرنسي. انظر مقدمته التي كتبها لكتاب «معذبو الأرض» نشر وزارة التربية السورية ص ٥ وما بعدها.

(٢) ميخائيل نعيمة في مجلة الآداب البيروتية ١٩٦٧/٧/١.

«إن الدرس الأكبر الذي يجب أن يتعلمه العرب من هزيمتهم النكراء أن الدنيا لا تساس بالدين، فالدين موطنه السماء التي لا يعرفها أحد، والدنيا موطنها الأرض التي لا يجهلها أحد...» وأن على العرب إن أرادوا استعادة الحقوق وصيانة الأوطان «أن يتعبدوا للعلم والمال لعل العلم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم...».

ويسرع ثان ليصدر كتاباً في معنى النكبة[1] مجدداً يعلن فيه أن سبيل الحل «تبدل أساسي في الوضع العربي وانقلاب تام في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها... أن نصبح بالفعل والروح لا بالاسم والجسم فقط قسماً من العالم الذي نعيش فيه، نجاريه في نظم العيش والفكر، ونتكلم لغته ونتصل بأصوله، ولبلوغ ذلك يجب أن تقلب حياتنا من أوضاع العصور الوسطى والقديمة إلى وضع العصر الحديث... وهذا لن يتحقق إلا بفصل الدولة عن التنظيم الديني فصلاً مطلقاً، وفتح الصدر واسعاً لاكتساب خير ما حققته الحضارات الإنسانية من قيم عقلية وروحية أثبت صحتها الاختيار الإنساني الجاهد لبناء الحضارة».

وانبرى ثالث[2] ليقرر أن الهزيمة جاءت نتيجة «العقلية التقليدية التي تنتمي إلى أطوار البداوة والزراعة والتعلق بالغيبيات» وأن النجاح مرتبط بما «ينسجم مع حضارة القرن العشرين الآلية وثقافته العلمية العلمانية» حتى لقد وصل الأمر برابع[3] أن يعلن وبكل صراحة في كتاب

---

(١) قسطنطين زريق وهو من الدعاة الكبار للقومية العربية. انظر كتابه «معنى النكبة مجدداً» ص ٨ و٩ نشر دار العلم للملايين بيروت.

(٢) صادق جلال العظم في كتابه «النقد الذاتي بعد الهزيمة» ص ١١٢ ـ ١١٣ وانظر أيضاً كتابه «نقد الفكر الديني».

(٣) نديم البيطار في كتابه «من النكسة إلى الثورة» ص ١٨٦ وما بعدها.

له دعاة «من النكسة إلى الثورة» أن «ليس هناك ما يدعو إلى الإشفاق في موقفنا الثوري أكثر من تلك النداءات إلى الجهاد والاعتماد عليها وهي تخرج من العواصم الثورية، والنتيجة كانت ما تستحقه هذه النداءات أصداء بئر خاوية» ويأسف كثيراً لأننا «نأخذ من الحضارة الغربية أدواتها ووسائلها التطبيقية ولكن دون أن يرافق ذلك ما رافقها في أرضية الغرب من عقلية علمية علمانية جديدة حررت الإنسان من الأوهام والأساطير والمفاهيم الغيبية» وتراه يتابع تزييفه للحقيقة فيقول «جميع الانتصارات التي أحرزتها الأمة العربية ضد الاستعمار، جميع التحولات الحضارية التي حققتها كانت باسم القومية العربية وليس باسم الدين، جميع المعارك التي خاضتها باسم الدين كانت فاشلة» «لقد أدرك الثوريون في الغرب أن الثورة تعني تحرير المجتمع من الدين، ولكن الفكر العربي الثوري لا يزال يتجاهل هذا الواقع تجاهلاً تاماً»[1].

وعلى الرغم من أننا لسنا الآن بصدد الرد على ما افتروه من أكاذيب مفضوحة وسرد دلائل الكذب والزيف، لكنا نسألهم أن يدلونا على معركة واحدة خاضتها الأمة تحت راية القومية العربية وانتصرت؟ أهي ثورة الشريف حسين والتي يسمونها «الثورة العربية الكبرى» وما أدت إليه من تفتيت للوطن العربي، وإلقاء له في أحضان الغرب، بل وفي النهاية إلى قيام دولة إسرائيل في فلسطين، أم انتصارنا عام ١٩٤٨ أو في عام ١٩٥٦ أو ذلك الانتصار الساحق الذي حققته الأمة تحت راية القومية العربية والاشتراكية العلمية والعربية عام ١٩٦٧!!.

(١) لقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن الأنظمة التي هزمت عام ٦٧ هي التي أعلنت ضرورة وضع الله عز وجل والأديان ـ طبعاً الاسلام ـ في متحف التاريخ. انظر مجلة جيش الشعب نيسان ١٩٦٧ مقال المدعو ابراهيم خلاص.

ونقـول لهم: عودوا إلى صفحـات التاريـخ وانظروا فيهـا بـأمـانـة لتجدوا أن حضارة الأمة لم تبن إلا بعد اعتناقها الإسلام، وأنها لم تدخـل التاريخ إلا بمحمد ﴿ﷺ﴾ وأبي بكر وعمر وعثمان وعـلي وبقية الصحـابة رضوان الله تعالى عليهم، وأن معاركها الفـاصلة وانتصاراتهـا لم تأت إلا نتيجة خوضهـا تحت راية الإسـلام. . . ومما سينكشف لهم أيضـاً أنه كم من فئة قليلة مؤمنة بالغيب قد غلبت فئة كثيرة تفـوقها عـدة وعدداً، وأن سـلاح الإيمان بـالغيب لدى تلك الفئـة القليلة هـو الـذي انـتزع النصر الحاسم وحقق الفتح المبين. . . وأن المقاتل عندمـا يؤمن ببعث وتعويض وعـودة يحصل فيهـا على كـل لذائـذه ورغائبـه خالصـة من كل شـوائب التكدير والتنغيص، فإن استعداده للتضحية بحياته يكون أعمق وأصدق من أولئك الذين لا يؤمنون بغير الحياة الدنيا بأيـامها المحـدودة وسنواتهـا المألوفة، ولا يعرفـون من التضحية إلا مجـرد التنازل عن هـذه الحياة بـلا عـود ولا تعويض، وإذن ففـراغ النفس من الإيمان بـالغيبيات هـو أحـد أسباب الهزيمة لا العكس المفترى. . . ثم من الذي قال إن المعـارك التي هُـزم فيها العـرب حديثـاً كانـوا يخوضـونها بـروح إسـلاميـة وتحت رايـة إسـلاميـة؟! الكـل يعلم أنهم خـاضـوهـا تحت كـل الـرايـات إلا رايـة الإسلام. . .[1].

وتتـالت بعد ذلـك كتابـات هؤلاء النفر وكلهـا تنحو هـذا المنحى وتتجه الاتجاه نفسه. اتجاه تعميق فصل الدين عن الـدولة، حتى إن آبـا ايبـان وزير خـارجية العـدو السابق، وهـو مستشرق ويدرس العـربية في

(١) من مستلزمـات المؤامرة عـلى الإسلام أن يحمـل مسؤوليـة كـل مـا يحـدث من جهـل وتـأخـر وانحطاط وهزائم ولو كانت هذه كلها عـلى أيدي أعـدائه وبسببهم، وذلـك لتشويـه صورتـه وبالتالي لتحقيق مؤامرتهم في إبعاد الأمة عن مصدر قوتها. . .

الجامعة العبرية، لم ينس أن يدلي بدلوه فينصحنا كما تناقلت وكالات الأنباء إن أردنا العيش بسلام بفصل الدين عن الدولة وكذلك إن أردنا أن نلحق بركب الأمم المتقدمة. . .»[1].

وفي أول نوفمبر، تشرين الثاني، ١٩٧١ قامت مجلة الطليعة القاهرية والتي تعلن أنها مجلة الفكر الحر والبحث العلمي بنشر بحث مطول بعنوان «الشيخ علي عبد الرازق معركة فكرية» استغرق الصفحات من ٩٠ - ١١١ ثم أتبعته بنشر النص الكامل لكتابه «الإسلام وأصول الحكم» الذي كان قد وضعه عام ١٩٢٥ لتسويغ ما فعله الاتحاديون ومصطفى كمال، وغير ذلك من أمور سنتعرض لها بالتفصيل إن شاء الله عند كلامنا عن الشيخ وكتابه، ونشرته تحت عنوان: «وثائق: الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام» وقام كاتب البحث في المجلة المذكورة بعد ذلك بعام واحد بنشر كتاب بعنوان «الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، دراسة ووثائق» ثم طلع علينا أخيراً بمقال[2] نشرته له مجلة العربي الكويتية في عددها رقم ٢٢٠ الصادر في مارس (آذار) ١٩٧٧. وكلهما تسير في الاتجاه نفسه. اتجاه ترسيخ فكرة فصل الدين عن الدولة وحصر الإسلام في زاوية المسجد وعزله كلياً عن الحياة.

من أجل ذلك كله رأيت من واجبي وأنا في أول طريقي العلمي أن أقوم بدراسة هذه القضية دراسة علمية تعتمد النصوص الصادقة والوقائع التاريخية الصحيحة وتبتعد عن الزيف والعاطفة والافتراء، أو

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: دمشق العدد العاشر السنة السابعة عشرة.

(٢) كتبنا رداً مفصلاً عليه نشرته مجلة حضارة الإسلام الدمشقية في العدد الرابع من السنة الثامنة عشرة ص ٥٨ - ٧١.

التـأثر بمسلمات ونتـائج مسبقـة، لعلّ أسـاهم في جلاء الحقيقـة وبيانها، إبـراء للذمة أمـام الله عز وجـل وإعذاراً إليـه، وفضحـاً لمخـطط الغـزو الفكري الصليبي الصهيوني، وهتكاً لأستاره وتلامذته ومريديه. . . ولقد قسمت البحث إلى:

أ ـ **مقدمة**: ضمنتها أهمية الموضوع وأسباب اختياري له.

ب ـ **تمهيد**: ويشتمل على دراسة لأحوال الدولة العثمانية وما كانت تعانيه من تخلف في شتى نواحي الحياة السياسية والعلميـة والثقافيـة. . . عـلى اعتبـار أن هـذه الحـالـة هي الأرضيـة التي مهـدت لـظهـور القضية.

جـ ـ **الباب الأول**: القضية بين أوروبا والعـالم الإسلامي. . . ويشتمـل على فصلين:

الفصل الأول: ويبحث في مفهوم الدين والدولة في الإسلام. . ويشتمل على فرعين:

١ـ شمول الإسلام (النظرية).

٢ـ التطبيق العملي أو الواقع التاريخي.

الفصل الثاني: عند الأوروبيين ويشتمل على فرعين:

١ـ الكنيسة في العصور الوسطى.

٢ـ الكنيسة في عصر النهضة وإقرار الفصل.

د ـ **الباب الثاني**: القضية على الصعيـد الفكري. . ويشتمـل على ثـلاثة فصول:

الفصل الأول: الاستشراق والتبشير.

الفصل الثاني: النقل والمحاكاة (الاتجاه الممالىء).

الفصل الثالث: النقض والرد (الاتجاه المقاوم).

هـ ـ الباب الثالث: القضية على الصعيد السياسي والتطبيقي . . .

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أتاتورك وإلغاء الخلافة.

الفصل الثاني: مقاومة المسلمين العملية لهدم الخلافة.

الفصل الثالث: المناخ العلماني في العالم الإسلامي.

(نماذج من الدساتير والواقع التربوي والتعليمي والإعلامي وغيره).

و ـ =خاتمة في أهم نتائج البحث، وفي مستقبل العالم الإسلامي.

ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل لأستاذنا صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور عبد الغني عبد الخالق رحمه الله لتكرمه بقبول الإشراف على هذا البحث، وهو الذي ما فتىء عوناً لكل طالب علم، لا يضن بوقت، ولا يبخل بمشورة، وهو الأب الذي يرعى أبناءه، ويحدب عليهم ويوجههم لما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، فجزاه الله عنا كل خير وأجزل له المثوبة، وأمد في عمره، ونفع به.

والله أسأل أن يجنبني العثار ويلهمني الرشد والصواب، ويفتح لي خزائن رحمته، ويجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

الحالة العامة للدولة العثمانية

قبل أن نبدأ ببيان قضية فصل الدين عن الدولة في المجتمع الإسلامي، ولوضعها في المكان الذي تستحق لا بد من التعرض لبيان الحالة العامة للعالم الإسلامي بشكل عام، والدولة العثمانية على وجه الخصوص، وعلى التحديد منذ الحملة الفرنسية[1] على مصر والشام في القرن التاسع عشر الميلادي ولو بصورة موجزة، وما ذلك إلا للاعتقاد بأن هذه الحالة العامة هي الأرضية التي مهدت لظهور هذه القضية التي نقوم بدراستها. . . وبما أن الدولة العثمانية كانت أكبر تجمع إسلامي وأقواه آنذاك، فسنكتفي بإعطاء لمحة وجيزة عن حالتها العامة لأن ما ينطبق عليها ينطبق في جملته على غيرها من مختلف دول العالم الإسلامي.

وهنا لا بد من التذكير بضرورة أن يلتزم الدارس لأحوال هذه الدولة الحيطة والحذر، وأن يبذل الكثير من الجهد لتحري سلامة الروايات التي يعتمد عليها، وما ذلك إلا لأن تاريخها في معظمه كتب بأيدي أعدائها من صليبيين ودونمة وغيرهم من مبغضي الإسلام والمسلمين، الذين كانوا يرون فيها السد المنيع الذي حال دون تحقيق أطماعهم وغاياتهم في القضاء على الإسلام والمسلمين - كما حلّ بالأندلس وإعادة أرضهم للسيطرة الصليبية النصرانية - وأنها حمت منطقة المتوسط

(١) لأنها كشفت مقدار التخلف والجهل الذي كانت تعاني منه الأمة دون أن تحس بذلك أو تلقي له بالاً في شتى نواحي حياتها. . .

الإسلامية من حركة الالتفاف الصليبي عليها والتي تولى مدها بعد سقوط غرناطة إسبانية والبرتغال بمباركة البابا والفاتيكان. لذلك لم تنل من هؤلاء ومؤرخيهم أي إنصاف بل على العكس من ذلك تماماً واجهت منهم حقداً وخصومة حالت دون كلمة الحق، ويؤكد ما ذهبنا إليه غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» حيث يقول: إن حرية الرأي عندنا ـ أي الأوروبيين ـ واستقلاله أمران ظاهريان أكثر منهما حقيقيان واقعيان... إننا لسنا أحراراً في معالجتنا لبعض الموضوعات، فآراؤنا الموروثة المتحيزة التي نعتنقها ونتدارسها ضد الإسلام وأنصاره ودعاته قد تكاثفت وتراكمت عبر القرون حتى أصبحت جزءاً من وجودنا العنصري...»[1].

ولقد تمثل هذا الحقد وتلك الخصومة بعشرات المؤامرات والتكتلات بين القوى الغربية المختلفة لتمزيق الدولة العثمانية وتقاسم ممتلكاتها حتى إن الوزير الروماني «دجوفارا»[2] أصدر كتاباً سماه: «مائة مشروع لتقسيم تركيا» وقد ذكر جانباً من ذلك الأمير شكيب أرسلان رحمه الله في تعليقاته التي وضعها على كتاب «حاضر العالم الإسلامي».

الدولة العثمانية[3]:

سميّت الدولة بهذا الاسم نسبة إلى عثمان بن أرطغرل وهو زعيم القبائل التركية التي فرت من مناطق السهوب في آسيا ـ الأستبس ـ

---

(١) حضارة العرب ترجمة زعيتر ص ٦٨٩.

(٢) حاضر العالم الإسلامي شكيب أرسلان ١/١٢٠.

(٣) انظر الدولة العثمانية نشأتها وقيامها ص ٦ وما بعدها، «أوروبا في مطلع العصور الحديثة» ١/٤٨٠ وما بعدها.

متجهة غرباً نحو الأناضول أمام غزوة جنكيز خان لبلاد التركستان الغربية، والتي استقرت بين ظهراني الأتراك السلاجقة على هضاب آسيا الصغرى، وكان ذلك في عهد علاء الدين السلجوقي الأول في القرن الثالث عشر الميلادي (١٢١٩ ـ ١٢٣٥) سلطان دولة السلاجقة حيث قدموا له كما تذكر بعض الروايات التاريخية خدمة جليلة، فأقطعهم منطقة تابعة له في الأناضول مكافأة لهم على هذا الصنيع، ومنح زعيمهم أرطغرل لقب «أوج بكي» أي: محافظ الحدود. وبعد وفاته ورثه ابنه عثمان الذي سميت الدولة والأمة باسمه، وسرعان ما ازدادت أهمية الأتراك العثمانيين شيئاً فشيئاً حتى آلت اليهم السيادة آخر الأمر على الإمارات الصغيرة التي تمزقت إليها دولة السلاجقة، وما لبث أمراء العثمانيين أن وطدوا أركان دولة امتدت من طوروس شرقاً حتى حدود المجر ورومانيا غرباً، وأحاطوا من كل صوب بدولة البيزنطيين (القسطنطينية) المتقلصة، وغدت بعد ذلك من أكبر الدول الإسلامية التي شهدت التاريخ . . .

ونظم العثمانيون قوة عسكرية دائمة هي «الإنكشارية» تنظيماً جيداً، حيث شكلوا جماعة متماسكة غيورة مما سهل عملية الفتوحات التي قامت بها الدولة في أوروبا الشرقية والتي كان من أهمها فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م. إبان حكم السلطان محمد الثاني ـ الفاتح.

وفي الوقت الذي كان العثمانيون فيه يسجلون انتصارات حاسمة على النصرانية في شرقي أوروبا، كان الضغط النصراني يشتد على الوجود الإسلامي في غربي البحر الأبيض المتوسط، ولقد ازداد هذا الضغط عنفاً وشدة بعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في

الأندلس بيد الإسبان في عهد فرديناند وإيزابيلا عام ١٤٩٢م. ونترك لابن إياس[1] المؤرخ المسلم يصف لنا هذا السقوط فيقول: «وفيه جاءت الأخبار من جهة الغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك المسلمين، ووضعوا السيف في المسلمين وقالوا: من دخل ديننا تركناه، ومن لم يدخل ديننا قتلناه، فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ولله الأمر...».

وتؤيد ذلك الدكتورة سينجريد هونكه الألمانية في كتابها «شمس الله تسطع على الغرب» فتقول: «في ٢ يناير ١٤٩٢م. رفع الكاردينال بيدرو جوانزليه ده مندوزا الصليب على الحمراء ـ القلعة الملكية للأسرة الناصرية ـ وكان ذلك إعلاناً بانتهاء حكم العرب في إسبانيا... وتعرض المسلمون للاضطهادات الشنيعة، فقد حرم عليهم اتباع الإسلام وتعاليمه وأوامره، كما حرم عليهم استخدام اللغة العربية،... وفرضت النصرانية على من يخالف من المسلمين أشد العقوبات من سجن وطرد وحرق للمسلم على قيد الحياة...».

وعجز المماليك ـ وهم حكام الشام والحجاز ومصر ـ عن رد غارات الصليبيين الجدد من إسبان وبرتغاليين على الثغور المسلمة، حتى تمكنت طلائعهم من أن تصل إلى جدة على البحر الأحمر وتهدد الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، مما حدا بالسكان إلى الاستنجاد بالسلطان العثماني من أجل أن يتدخل لتحقيق المنعة والحماية لهم، خاصة وأن أخبار انتصاراته في شرقي أوروبا على النصارى، وقضائه على الدولة البيزنطية كانت تصلهم تباعاً وأولاً بأول بواسطة الرسل الذين كان

(١) في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» المجلد الرابع بتحقيق محمد مصطفى.

يرسلهم السلطان العثماني برسائله إلى سلطان المماليك الذي كان مجبراً بحق الأخوة الإسلامية على «دق الكوسات ونصب الرايات» على حد تعبير ابن إياس احتفالاً بانتصارات العثمانيين. . . وقد أورد ابن إياس[1] الكثير من هذه الرسائل منها ما جاء في رسالة السلطان محمد الفاتح إلى سلطان المماليك في مصر: «فهمنا هذا العام، عممه الله بالبركة والإنعام، معتصمين بحبل ذي الجلال والإكرام، متمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاة في الإسلام، مؤتمرين بأمره تعالى: ﴿**قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**﴾[2] إلى أن يقول: حاربناهم وحاربونا، وقاتلناهم وقاتلونا، وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوماً وليلة. . . وحتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقي بالضرب الحيدري[3] لآل عثمان، فمنَّ الله تعالى بالفتح قبل أن ظهرت الشمس من شروقها، فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس، طهرنا القوس من القسوس، وأخرجنا منه الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام. . .».

ومما أرسله إلى شريف مكة قوله: «فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشراً لما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهي تسخير البلدة المشهورة بقسطنطينية، فالمأمول من مقر

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: المجلد الخامس: فتح الشام ومصر.

(٢) ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ التوبة: ١٢٣. فرض الغزاة: فريضة الجهاد.

(٣) الصديقي: نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ والفاروقي: نسبة إلى الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ والحيدري نسبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عزتكم الشريفة أن يبشش بقدوم هذه المسرة العظمى مع سكان الحرمين الشريفين والعلماء والسادات المهتدين والزهاد والعباد الصالحين. . .».

ولقد بلغ من تعاظم مشاعر الحب والولاء من السكان تجاه السلطان العثماني أن سلطان المماليك الذي كان يرى في العثمانيين تهديداً لوجوده ودولته لم يسعه عندما جاءت الأنباء حاملة خبر وفاة السلطان العثماني بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح ووالد سليم الأول فاتح الشام ومصر إلا أن يظهر عليه الحزن والأسف لوفاته، وفي ذلك يقول ابن إياس[1]: «فلما تحقق السلطان وفاته، بكى عليه وأظهر الحزن والأسف، ثم صلى عليه صلاة الغيبة بعد صلاة الجمعة في الجامع الأزهر، وجامع الحاكم، وجامع ابن طولون، وفي جامع السلطان الذي بالشرابشيين وغير ذلك. . . وقد حزن عليه الناس فإنه كان قامعاً للفرنج لا يفتر عن الجهاد فيهم ليلاً ونهاراً، وكان به نفع للمسلمين. . .».

وكان الناس آنذاك بحاجة فعلاً إلى قامع للفرنجة الذين بدأوا يخيفون الناس حتى داخل مصر والشام وليس في الثغور الساحلية فحسب، وكان السلطان العثماني هو القامع، فدخلت الجزائر تحت حكمه دون حرب بل بمحض إرادة حاكمها خير الدين الذي أبلى بلاء حسناً في مواجهة الأساطيل الإسبانية والبرتغالية في البحر المتوسط، وقام هو وأخلافه بحركات بحرية وحربية أدخلت تونس وطرابلس أيضاً تحت السيادة العثمانية، وقبل هذا تمكن السلطان سليم الأول من إيقاع الهزيمة بالسلطان المملوكي الغوري في الشام ومصر (مرج دابق ـ الريدانية)

---

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: المجلد الخامس، فتح الشام ومصر.

اللتين دخلتا تحت السيادة العثمانية، كما أعلن أشراف الحجاز وزعماء القبائل والعصبيات ولاءهم للسلطان سليم، وزال الرعب من الفرنجة تماماً بظهور العثمانيين على مسرح الأحداث وتسلمهم مسؤولية الدفاع عن الثغور الإسلامية في المتوسط. . .[1].

وهكذا أصبح العثمانيون موضع ثقة المسلمين في استرداد مكانتهم وفي قيادة الأمة، خاصة وأنهم بلغوا آنذاك درجة الاجتهاد في صناعة الحرب وحسن القيادة العسكرية والتفوق على معاصريهم، وفي ذلك يقول الأمير شكيب أرسلان نقلاً عن البارون كارادفو: «إن هذا الفتح - فتح القسطنطينية - لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً، ولا تيسر لمجرد ضعف دولة بيزنطة، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل، ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالإيجاد، فأعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ، وانتدب مهندساً مجرياً ركب مدفعاً كان وزن الكرة التي يرمي بها ٣٠٠كغ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل، وقيل: إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت

---

(١) «والداعي إلى هذا كله - الفتوحات التي قام بها العثمانيون - هو نصرة الإسلام ونشر بنوده في الأرضين، والذب عن بيضته: لنصرة الإسلام نشأت إمارة عثمان، ولأجلها بنى أورخان أداة النصر - العسكر الجديد - وفي سبيلها استشهد مراد في ساحة قوصوه، وفتح محمد القسطنطينية وتطلع إلى فتح رومية، ولصون الإسلام سلك جيش سليم أوعر المسالك - الجبال إلى تبريز والصحراء إلى القاهرة - ولحفظ هذا التراث أنفق سليمان أحسن العمر في ميادين القتال، وحال دون امتداد النفوذ الأوروبي إلى سواحل البحر المتوسط وجزره، واعترض تقدم الأوروبيين في اتجاه البحار العربية، فلا عجب إذن أن أصبح العالم الإسلامي والدولة العثمانية في نظر الأوروبيين اسمين لشيء واحد» للاستزادة انظر مقدمة كتاب «الشرق الإسلامي في العصر الحديث» للمؤرخ الأستاذ محمد شفيق غربال .

قيادته ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ومعه مدفعية هائلة، وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر ١٢٠ سفينة حربية، وهو الذي من قريحته تصور سحب جانب من الأسطول من البر إلى الخليج، وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم سبعين سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا...»[1].

يعد السلطان محمد الفاتح من أعظم سلاطين آل عثمان، وطد السيادة الإسلامية في أوروبا وبدد الأحلاف الصليبية، أطلق عليه الأوروبيون لقب «السيد العظيم Grand Seigneur» كان كثير الثقة بنفسه، محافظاً على صلاة الجماعة، عاملاً لمصلحة الإسلام والمسلمين، اتخذ ندماءه من الأدباء والشعراء ورجال الفكر، وكان محباً للعلم والعلماء، بعيداً عن الاختلاط المبتذل الذي كان شائعاً في عصره خاصة في بلاط الحكام؛ قبل وفاته ترك وصية لابنه جاء فيها قوله:

كن عادلاً صالحاً رحيماً، ابسط على الرعية حمايتك دون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي، **فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض**... قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء، ولا تفتر في المواظبة عليه، **ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين، ولا** يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش؛ وجانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها... وسِّع رقعة البلاد بالجهاد في سبيل الله، واحرس أموال بيت المال أن تبدد، **وإياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قُوتَهم، وابذل إكرامك للمستحقين**...

(١) حاضر العالم الإسلامي ١/ ٢٢٠.

وبما أن العلماء هم القوة المبثوثة في جسم الدولة فعظِّم جانبهم وشجعهم؛ وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه. . .

حذار حذار، لا يغرنَّك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة، وإياك أن تميل إلى عمل يخالف أحكام الشريعة، فإن الدين غايتنا، والهداية منهجنا، وبذلك انتصرنا. . .

وهكذا إذن تمكن العثمانيون من الوقوف في وجه الغزوة الصليبية واستطاعوا منع الامتداد الأوروبي الذي كانت تقوده إسبانيا والبرتغال بمباركة البابا إلى الوطن الإسلامي، ومنعوه من التحول إلى أندلس جديدة ولم يسمحوا للأوروبيين أن يفعلوا فيه ما فعلوه في سكان العالم الجديد الأصليين (أمريكا مثلاً).

أسباب تخلف الدولة:

واستمرت الدولة العثمانية بعد ذلك كتيبة الصدام الأولى للمسلمين ضد الأطماع الصليبية الصهيونية، لذا نجد أنها لم تهدأ يوماً واحداً منذ فتح القسطنطينية، فهي تخوض غمار معارك عسكرية خارجية، وتصمد لمؤامرات داخلية، واستمر ذلك حتى نجح أعداؤها في تحقيق مأربهم عام ١٩٠٨ عندما خلع السلطان عبد الحميد ووصل الاتحاديون (يهود الدونمة) إلى السلطة في البلاد. . .[1]

---

(١) التحالف البلقاني الصليبي ١٣٦٢ - ١٣٧٠، تحالف أوروبي جديد ١٣٨٧ - ١٣٨٩ - ١٤٢٢، تحالف جديد ١٥٠١ - حصار فيينا ١٥٢٩ - ١٥٧١ بعد سقوط قبرص بيد العثمانيين - ١٥٩٦م - ١٦٠٥ - ١٦٥٥ - ١٦٦٧ حلف مقدس، ١٧٩٨ نابليون - ١٨٠٧ انكلترا =

وأمام هذه الأطماع الاستعمارية والمؤامرات الماكرة فرض السلاطين على البلاد عزلة عن أوروبا وغايتهم من ذلك تأمين الحماية لها ومنعها من أن تقع بين براثنهم، ولتحول دون تسرب الأفكار الغربية إليها، خاصة وأن المسلمين فقدوا الثقة بأوروبا بسبب جشعها الاستعماري مما جعلهم ينظرون إلى كل ما عند الأوروبيين نظرة حذر وتشكك، ويقفون من نهضتهم موقف عداء حتى ولو كان فيها خير كثير. . .

إلى جانب أن الباحث المنصف لا يستطيع أن يسلم بأن الأوروبيين في القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة كانوا على استعداد لأن يقدموا للمسلمين من رعايا السلطان تراث نهوضهم العلمي هدية خالصة، وهم الطامعون بالشرق الطامحون لاستعباده، فلا سبيل إلى القول بأن المسلم العثماني كان يستطيع الإفادة من النهضة الأوروبية دون أن ينزل عن رجولته وحريته كما حدث بعد ذلك على أيدي المتغربين.

يضاف إلى هذا كله المآسي التي كانت تحدث أثناء الصراع على السلطة بين الإخوة والطامعين مما أدى إلى تدهور الدولة رويداً رويداً حتى انتهت أخيراً على يد أتاتورك ١٩٢٤م[1].

هذه العوامل مجتمعة (الانهماك في الحروب ـ الصراع على السلطة

= ١٨٠٤ ـ ١٨١٥ (١٨٥٦ ـ ١٨٧٨ ثورات) (١٨٣٤ ـ ١٨٧٨) ١٨٠٩ ـ ١٨١٢ الحرب مع روسيا، ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ مع روسيا، ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦ مع روسيا حروب دائمة مع النمسا. . .

(١) الصراع بين بايزيد وأخيه جم، الصراع بين أبناء بايزيد، بين سليمان القانوني وابنه بايزيد، مراد الثالث واقدامه على قتل إخوته الخمسة، محمد الثالث وخنقه اخوته التسعة عشر. . .
انظر: التاريخ العربي الحديث ص ١٥ وما بعدها، الدولة العثمانية من كتاب أوروبا في مطلع العصور الحديثة ١/ ٤٨٠ وما بعدها.

ـ العزلة) أدت إلى سيطرة حالة من الركود والتدهور الثقافي والعلمي، نتج عنه تخلف وانحطاط في شتى نواحي الحياة، وجاءت حملة نابليون بونابرت على مصر والشام في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لتكشف بجلاء للأمة عن مقدار ما تعاني من تخلف لم تحس به بسبب طول الألفة، وكان دوي القنابل التي قذفتها مدافع الفرنسيين كافياً لإيقاظ الحس والنهوض من هذا السبات العميق ومحاولة تلمس الطريق الصحيح للخروج من الأزمة والنهوض من الكبوة. . .

المكر الصليبي:

وأمام هذه الصحوة ومن أجل الانحراف بها عن مسارها الصحيح، سارع أعداء الأمة ودينها وحضارتها إلى المكر بالمسلمين والتآمر عليهم ـ خاصة وأن ذكريات بلاط الشهداء، وحصار فيينا[١] تتراقص أمام أعينهم، وخشيتهم من أن يعود العملاق إلى سالف مجده ـ فاتخذوا من تدهور الأحوال في الدولة العثمانية ذريعة لتوجيه سهامهم إلى الإسلام ذاته ـ وهم يعلمون أنه مصدر قوة هذه الأمة ـ فبدأوا دسهم على هذا الدين وتعاليمه واعتبروه أنه وحده المسؤول عن التخلف والجهل والتأخر الذي تعاني منه الأمة وخاصة في الجانب المادي وفي مجال الكشوف والاختراعات. . . مع توجيه أنظار المسلمين إلى أوروبا وما بلغته من تقدم مادي وازدهار علمي وكثرة الكشوف والاختراعات عندما

---

(١) بلاط الشهداء: المعركة التي استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي رحمه الله في جنوبي فرنسة، وتعرف باسم معركة بواتييه أيضاً وقد نتج عنها وقف الفتح الإسلامي في جنوبي أوروبة.
حصار فيينا: قام به العثمانيون لفتح أوروبة التي وقفت عن بكرة أبيها في وجههم، وعند فشلهم في احتلال فيينا وتراجعهم عنها توقف الفتح الإسلامي في شرقي أوروبة.

تخلت عن دينها وحصرته داخل الكنيسة وعزلته عن الحياة، وكأنهم بذلك يوحون للمسلمين أنهم إن أرادوا التقدم والرقي فما عليهم إلا أن يفعلوا كما فعلت أوروبا بكنيستها، وأن يحصروا دينهم داخل المسجد ويعزلوه عن الحياة.

وهدفهم من ذلك تهوين شأن الإسلام في نفوس أبنائه ليستخفوا به ويضعوه جانباً ـ وهو السلاح الذي خبره الصليبيون جيداً منذ انطلاقة المسلمين الأولى وحتى صمود العثمانيين في وجههم ـ ونجحوا في ذلك وأصبحنا نرى من قومنا من يستخف بإسلامه وحضارته، وينتقص دور أمته في تاريخ الإنسانية، وبدأنا نسمع صيحات تتعالى داعية إلى التخلص من الدين ونبذه بعد تحميله أوزار ما حدث طيلة العهد العثماني متناسين أن التخلف والجهل الذي تعاني منه الدولة والأمة ليس مرده إلى الدين، وليس وليد الإسلام، ولا بسبب زهد المسلمين بالكشوف والاختراعات وتيسير سبل الحياة المادية والمعاشية للإنسان، ولا بسبب شيء يتصل بطبيعة الإسلام ذاته بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة..

السبب الحقيقي:

ولكن ذلك يكمن في أن العالم الإسلامي لم تتح له الظروف ـ الداخلية والخارجية ـ أن يطور علومه ومعارفه على النحو الذي أتيح لأبناء الحضارة الأوروبية، فقد نهض المسلمون منذ أيامهم الأولى باندفاعة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً بمهمة تحرير البشرية من الجاهلية التي كانت تتحكم في رقاب العباد، حتى إنه لم ينقض على وفاة الرسول ﴿ﷺ﴾ قرن واحد حتى كانت جحافل المسلمين تقف دون السهوب

الفرنسية (وفاة الرسول ﷺ ٦٣٢م ووقعة بلاط الشهداء ٧٣٢م).

ثم كان على العالم الإسلامي أن يخوض حروباً مدمرة لا يخلص من واحدة حتى يستعد للأخرى، حتى أصبح همه الأول المحافظة على كيانه ووجوده قبل تطوير معارفه وعلومه...

إن الحروب التي خاضها العالم الإسلامي لم تكن من ذلك النوع الذي عرفته أوروبا في عصر نهضتها العلمية لأنها لم تقاتل المغول أو التتار الذين كانوا يقيسون النصر بما يحدثونه من تخريب، وما يرتكبونه من فظائع، وما يحرقونه من كتب ويدمرون من معاهد العلم والعرفان...

انتهى القرن الرابع الهجري وقد بلغ التقدم العلمي أوجه في العالم الإسلامي على نحو ما فصل في ذلك القول «آدم ميتز» في مؤلفه «عصر النهضة في الإسلام»[1] ليواجه في القرن الذي يليه الحروب الصليبية المدمرة التي استمرت قرنين من الزمان ـ والتي أفادت منها أوروبا[2] ـ والتي خرج منها المسلمون ظافرين في نهاية المطاف... ولكن هذا الظفر أورثهم نوعاً من فرط الثقة بالنفس عاد عليهم بالضرر الشديد في الوقت الذي بدأت فيه حركة الحياة تدب في أوصال العالم الأوروبي...

ثم كان سقوط بغداد على يد هولاكو في منتصف القرن السابع الهجري... وبقية العجب في حروب التتار والمغول أن العالم الإسلامي تلقى ضربات هؤلاء وحمى أوروبا في الوقت ذاته من أن تصل إليها هذه

(١) ترجمه وحقق نصوصه الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة تحت عنوان: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.

(٢) انظر «من روائع حضارتنا» ص ٣٣ وما بعدها لأستاذنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله

الغزوات إلا أشلاء مبعثرة دفنت تحت أنقاض الحضارة الإسلامية التي اجتاحها هؤلاء بوحشية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً...

ثم كانت محاولات تحويل المغول إلى النصرانية حتى يتحد هؤلاء مع نصارى أوروبا للإطباق على الإسلام كما يقول أرنست باركر أستاذ علم السياسة في جامعة كمبردج(١) فلا يصبح إلا عقيدة كليلة الانتشار، لكن اعتناق خانات المغول في فارس الإسلام عام ١٣١٦م وانتشار الإسلام في وسط آسيا مهد الطريق للإسلام من جديد ليبلغ شأناً بعيداً حيث ترامت أطرافه بفضل الأتراك العثمانيين، ولكن بارقاً آخر لمع في خيال الغرب، وكان هذا الأمل الجديد قميناً بأن يشعل ثورة من أعنف ثورات التاريخ، ذلك أن الطريق الأرضي وقد أقفل في وجه النصرانية لغزو العالم الإسلامي، فلماذا لا تسلك سبيل البحر، لماذا لا تبحر إلى الشرق فتهاجم الإسلام وتستولي على القسطنطينية من الخلف؟ فكانت الكشوف الجغرافية وما تبعها من تغيير الموازين وانتقال الثروة من الشرق إلى الغرب، وما تبع ذلك من تطورات تمخضت عن ثورات سياسية واقتصادية وعلمية وفكرية قامت عليها الحضارة الأوروبية الحديثة، وتمكن الغرب أن يعيد رجحان الميزان لصالحه بسبيل لم تخطر له على بال في الوقت الذي أصبح همُّ العثمانيين أن يحموا عالمهم من الخطر الاستعماري الأوروبي الداهم، وهم في حالة لا يحسدون عليها حيث كان معين العلم قد نضب بسبب الكوارث التي ذكرناها والتي كان العالم

(١) في مؤلفه «الحروب الصليبية» النص العربي ص ١٤٤، و«من روائع حضارتنا» ص ٢٩ وما بعدها.

الإسلامي قد تعرض لها، وجاء تحول طرق التجارة العالمية عن العالم الإسلامي ليزيد من الضائقة المادية ويساهم في توسيع شقة التدهور والتخلف. . .

من هنا إذن يستطيع المنصف أن يقول وهو مطمئن إلى الصواب: إن حالة التخلف والجمود والتدهور المادي التي كان يعاني منها العالم الإسلامي لا صلة لها بطبيعة الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة ولكنه المكر بالأمة ودينها وحضارتها لطمس هذه الحقيقة وتزييفها للبعد بها عن مصدر قوتها ونهضتها **﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾**[1].



(١) الأنفال: ٣٠.

الباب الأول

القضيّة بين أوروبا والعالم الإسلاميّ

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: ويبحث في مفهوم الدين والدولة في الإسلام. ويشتمل على فرعين:

الفرع الأول: شمول الإسلام (النظرية).

الفرع الثاني: التطبيق العملي أو الواقع التاريخي.

الفصل الثاني: عند الأوروبيين ويشتمل على فرعين:

الفرع الأول: الكنيسة في العصور الوسطى.

الفرع الثاني: الكنيسة في عصر النهضة وإقرار الفصل.

الفصل الأول

مفهوم الدين والدولة في الاسلام

الفرع الأول: شمول الإسلام (النظرية)

تمهيد

الدين في أذهان الكثيرين من الناس اليوم هو عبارة عن كل ما يصدم العقل ويتنافى مع الحكمة، وهو فوق ذلك أمر شخصي غايته تنظيم علاقة الفرد بخالقه ـ إن كان يؤمن بهذا الخالق ـ.

ولقد جاءت هذه الصورة للدين ـ كما سيأتي معنا ـ من الاطلاع على تاريخ الكنيسة وسجلها الطافح بصفحات بغيضة من اضطهاد العلم والعلماء، وبطريق التداعي أسيء فهم الإسلام لكونه ديناً، ولم يقتصر سوء الفهم هذا على الأجانب بل شمل كثيراً من أبناء المسلمين الذين لم يدرسوه دراسة واعية، ولم يعرفوا حقيقته، الأمر الذي استلزم أن يقعوا في أخطاء ما كان لهم أن يقعوا فيها لولا سوء الفهم هذا.

وكان في مقدمة هذه الأخطاء وأخطرها: محاولة حصر الإسلام في المسجد بإبعاده عن الحياة وتنظيمها، وما ذلك إلا نتيجة سيادة وسيطرة الفكر الغربي المعتبر بالتجارب الأوروبية والذي كاد يطبق على العالم بفعل الغلبة الحضارية والسياسية للبلدان الأوروبية، لا سيما وأن العالم

الإسلامي ذاته قد غشى واقعه الجمود ونشأت فيه أحوال وأطوار تأثرت بتاريخ أوروبا فأفضت إلى فسوق الحياة العامة من الدين.

وبما أن الإسلام في حقيقته يختلف اختلافاً بيناً عن النصرانية في ثوبها الكنسي الكهنوتي كان من الواجب بيان حقيقته كما أنزله الله عز وجل على نبيه محمد ﴿ﷺ﴾، لا في الصورة المشوهة التي يحاول بعضهم إلصاقها به، خاصة وأنه الدين الذي ارتضاه الله عز وجل للبشرية جمعاء، ولا يقبل منها غيره **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**[1]. **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**[2].

مفهوم الدين في الإسلام:

هو النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة كلها ومناهج السلوك للإنسان التي أوحى بها الله عز وجل إلى نبيه محمد ﴿ﷺ﴾ وأمره بتبليغها إلى الناس كافة مع ما يترتب على التقيد بها أو عدمه من ثواب وعقاب.

وعلى هذا كان الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، فالعقيدة هي التصور الكامل الموحد لأمر الكون والحياة والذي يعرف به العبد رباً واحداً للعالمين فيتخذه إلهاً يجعل حياته وقفاً على طاعته وعبادته **﴿وما**

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) آل عمران: ٨٥.

خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[1] كما تتعبد له سائر العوالم، ويوقن العابد بحق المرجع إلى ربه فيهيء دنياه بحيث يلقاه في الآخرة مرضياً مسعوداً.

أما الشريعة ومنهج الحياة: فهي طريق العابد الذي يسلكه إلى ربه لا يرتد عنه ولا يخالف إلى طريق غيره، وما ذلك إلا لكون الشريعة هي المنهج العملي الذي يصدق العقيدة ويحقق معنى العبادة لأن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

لذا جاءت شريعة الإسلام شاملة لجميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان محققة ما ينفعهم في حياتهم ويحفظهم من الفساد والفوضى في دنياهم... من هنا كان لا يمكن لمسلم عرف دينه أن يقول: إن هذا المجال لي أن أنظم أموري فيه كما أشاء وعلى هواي بمعزل عن شريعة الله عز وجل، لأن أيما جانب يتولى به المرء عن شريعة الله عز وجل هو نقض لمقتضى التوحيد، ولأن الدين لا يتم إلا بالاعتصام الكامل بشريعة الله والاحتكام إليها في كل شيء **﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾**[2].

وكل تعطيل لأحكام الشريعة أو اخترام منها نكث لعهد الإيمان وفسق عن الدين ﴿... **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعلُ ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون**

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) النور: ٥١.

إلى أشـد العـذاب﴾[1]، ﴿وأنِ احكم بينهم بما أنـزل الله ولا تتبـع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك. . .﴾[2].

والتزيد عليها كاختراعها والانتقاص منها وتعطيلها، قال رسول الله (ﷺ): «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[3].

ومهما حاد المرء عن شريعة الله، أو عن جـانب منها فهـو إنما يتبـع الهوى ويقع من ثم في الضلال والظلم ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هـدى من الله إن الله لا يهـدي القوم الـظالمين﴾[4]. لـذا لا يمكن لمسلم ما دام الأمـر هكـذا أن ينظم أموره بمعـزل عن شريعة الله لأنـه يعلم أن الإسلام يحكمـه وينظم حياته منذ البداية حتى النهايـة ومن يافـوخه إلى أخمص قـدميه بـدليل أن المرء لو استقرأ آيات الكتاب الكريم وسنـة الرسـول (ﷺ) لوقف منهـا عـلى بيان شـاف واف لكل شـأن في الحياة سـواء ما كـان يخص الفرد في خاصة أمره وعلاقاته مع خالقـه، وما يعم الجـماعة مما يتصل بـالسياسـة والاقتصاد والاجتماع وتنظيم العلاقات مع سائر البشر.

فـالدين الـذي ارتضاه الله عـز وجل للبشريـة لم ينزلـه للعقيدة أو العبادة فقط (لاهوت)، ولا بياناً لـلآداب والفضائـل فحسب (أخلاق)، ولا بياناً للشرائع والأنظمة فقط (قانون)، ولكنه يشمل ذلك كله. انـظر إلى قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعـروف

---

(١) البقرة: ٨٥.

(٢) المائدة: ٤٩.

(٣) صحيح البخاري: كتـاب الصلح ٥، صحيح مسلم: كتـاب الأقضيـة ١٣، وانـظر «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ٥/٣٠١، «صحيح مسلم بشرح النووي» ٤/٣١٣.

(٤) القصص: ٥٠، وانظر «الجامع لأحكام القرآن» ١٣/٢٩٥ وما بعدها.

أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه، ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم، وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1].

في هذه الآيات الكريمة نلمح تشريعاً ينظم جانباً من جوانب الحياة الأسرية، مع تربية وتوجيهات خلقية، إلى جانب إرشادات دينية، وإشارات عقيدية، وتذكير بالله واليوم والآخر.

وفي قوله تعالى: **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون. وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾**[2].

---

(١) البقرة: ٢٣١ ـ ٢٣٢، وانظر الجامع لأحكام القرآن الكريم: ٣/١٥٥ وما بعدها.

(٢) الأنعام ١٥١ ـ ١٥٣، وانظر تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٥٣ وما بعدها، والجامع: ٧/١٣١ وما بعدها.

جمع الله عز وجل أموراً تتعلق بعقيدة الفرد، فحرم عليه الشرك بالله عز وجل، وأموراً تتعلق بسلوكه الأخلاقي: فأمره بالإحسان إلى الوالدين وتجنب قتل أولاده، وتجنب اقتراف الفواحش خفيها وظاهرها.

وأموراً تتعلق بمعاملاته مع الآخرين: فأمره بعدم مساس مال اليتيم إلا بما يعود عليه بالنفع حتى يبلغ أشده، وبالوفاء في الكيل والميزان، وبالقضاء بالعدل والتمسك به، وبالوفاء بالعهود والالتزام بها.

فهذه الآية الكريمة لم تقف بالدين عند حد العقيدة في الإله ولا عند حد الوصايا الأخلاقية الفردية، بل تجاوزت هذين الجانبين إلى جانب المعاملات: في دائرة الأموال والتبادل التجاري، وفي دائرة القضاء، وفي دائرة الوفاء بالعهود والالتزام بها...

«فالآية إذن فوق أنها تحدد العقيدة والوصايا الخلقية الفردية تقرر: مبدأ التعامل، ومبدأ القضاء، ومبدأ الدولة نفسها وصلتها بالأفراد، فالدولة عهد بين الأفراد بعضهم مع بعض، ووجوب الوفاء به من بعضهم نحو بعضهم الآخر...»[1].

وفي قوله تعالى: **﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون، والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾**[2].

الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ٢٢٩ - ٢٣٣.

(٢) الشورى: ٣٦ - ٣٩ وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٦/٣٥ وما بعدها.

أحصت هـذه الآيـات صفـات المؤمنـين وبنت الأوصـاف عـلى قاعدة من الإيمان المؤكد بصفـة الواقـع القطع ﴿للذين آمنوا﴾ ثم ترادفت الأوصاف تحكي حال التوكل الناتج عن إيمان المؤمنين بحق الـوجهة التي يتجهـون إليها وثقتهم في تـوفيق الله، ثم تبـين من خلق المؤمنـين ونـظام عـلاقـاتهم أنهم لا تستخفهم دواعي الشهـوة والهـوى والغضب، لأنهم بإيمانهم يتقون الله ويخافون من حسابه في يوم تشخص فيه الأبصار حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وتمضي الأوصـاف، بعد أن قـررت مقتضيـات العقيـدة المبـاشرة، لتشهـد للمؤمنين بـأنهم يستجيبون لأمـر الله ويطيعـون شريعتـه، ورأس الطاعات هي الصلاة، يتلوها الإنفـاق لئلا تتكـدس الثروة ويـذهب بها بعض المؤمنين دون إخوانهم، ثم الشورى لئلا تتركز السلطة ويستبـد بها الولاة دون الرعية، أو الأقوياء دون الضعفاء. وتعطف بعد ذلك الآيات وما يليها على موقف الجماعة المؤمنة من سائـر الجماعـات، فتجعله موقف سلم وقوة، لا يعتدي المؤمنـون لكنهم ينتصرون إذا بغى عليهم عاد، أو يؤثرون العفو الجميل[1].

فهذه آيات قلائل تضمنت ذكراً من عقيدة الإيمان وشعابها العملية ومن معاني الطاعة والعبادة لله ومن مبـادىء الحكم والاقتصاد والسيـاسة

(١) لا يكون العفو الجميل إلا بعد ظهـور المسلمين وسيـادة مبادىء دينهم، وذلـك من أجل فتـح قلوب الناس للإسلام ودخولهم فيه، كما فعل المصطفى ﴿ﷺ﴾ بعد انتصاره عـلى الذين آذوه وأخرجوه واضـطهدوا أصحـابه وتـآمروا لقتله ووأد دعـوته، في يـوم الفتح حيث أعلن العفـو عنهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

الخارجية. من هنا إذن كانت شريعة الإسلام شاملة ومنظمة لمختلف جوانب الحياة ـ حياة الأفراد والجماعات ـ سواء منها ما كان يتعلق بالعقائد أو العبادات، أو ما كان مرتبطاً بالأخلاق أو المعاملات.

ويمكن للمستقرىء، أن يلاحظ أن المعاملات في شريعة الإسلام تشمل ما يمكن أن يطلق عليه بالاصطلاحات الحديثة:

ـ قانون الأحوال الشخصية الذي يشمل الأحكام المتعلقة بالأسرة وتنظيمها كالنكاح والطلاق والإرث والنفقة والوصية...

ـ القانون المدني الذي يشمل الأحكام المتعلقة بالمعاملات المالية بين الأفراد كالبيع والإجارة والرهن والكفالة...

ـ قانون المرافعات الذي يشمل الأحكام المتعلقة بالقضاء والدعوى وأصول الحكم والشهادة واليمين والبينات...

ـ القانون الدولي الخاص الذي يشمل الأحكام المتعلقة بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم أرض الدولة الإسلامية والحقوق التي يتمتعون بها والواجبات التي يلتزمون بها...

ـ القانون الدولي العام الذي يشمل الأحكام المتعلقة بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى في السلم والحرب.

ـ القانون الدستوري الذي يشمل الأحكام المتعلقة بنظام الحكم وقواعده، وكيفية اختيار رئيس الدولة، وشكل الحكومة وعلاقة الأفراد بها، وحقوقهم إزاءها...

ـ قانون المرافعات الجزائية ويشمل الأحكام المتعلقة بتحديد علاقة الفرد بالدولة من جهة الأفعال المنهي عنها (الجرائم وعقوبة كل

جـريمـة) والإجـراءات التي تتبـع في تحقيق الجـرائم وإنـزال العقـوبـات بالمجرمين وكيفية التنفيذ.

ـ القانون المالي بمختلف فروعه، أو ما يمكن تسميته بالنـظام المالي ويشمـل الأحكام التي تتعلق بمـوارد الدولـة الماليـة ومصارفهـا، وتنـظيم العـلاقـات بـين الأفـراد والـدولـة في هـذا المجـال، وبـين الأغنيـاء والفقراء. . .[1].

وهكذا نستطيع القول بأن تشريع الإسلام تشريع شامل، فهـو لا يشرع للفـرد دون الأسرة، ولا لـلأسرة دون المجتمـع، ولا للمجتمـع منعزلاً عن غيره من المجتمعات.

ويبدو شمول التشريع الإسلامي أيضاً في بعد آخر وهو النفـاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة، ما يؤثر فيها وما يتأثر بها، والنـظر إليها نـظرة محيطة مستوعبـة، مبنية عـلى معرفـة النفس الإنسانيـة، وحقيقة دوافعهـا وتطلعاتها وإشراقها، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجـاتها وتقلبـاتها، وربط التشريـع بـالقيم الـدينيـة والأخـلاقيـة بحيث يكـون التشريـع في خدمتها وحمايتها ولا يكون معولاً لهدمها. . .

إن عيب البشر الذي هو من لوازم ذواتهم المحدودة أنهم ينـظرون

(١) ومن أمثلة ما صنفه الفقهاء المسلمون في هذا السبيل:
السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني: وشرحه للسرخسي.
كتاب الخراج للإمام إبي يوسف.
كتاب الخراج للإمام يحيى بن آدم القرشي.
كتاب الأموال للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام.
ولم يخل كتاب في الفقه صنفه الأئمـة من بحث جوانب الحيـاة كلها، وبيـان أحكام الشريعـة التي تنتظمها.

إلى الأمور والأشياء من جانب واحد، غافلين عن جانب أو أكثر من جوانبها الأخرى. والحقيقة أنهم لا ذنب لهم في هذا القصور ولا حيلة، لأن النظرة المحيطة الشاملة التي تستوعب الشيء من جميع جوانبه، وتعرف كل احتياجاته وتدرك كل احتمالاته وتوقعاته لا يقدر عليها إلا رب البشر وخالق الكون. ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[1].

لذا وجدنا أن الإسلام أقام شؤون الدنيا كلها على أساس من الدين، واتخذ من الدين سنداً للدولة ووسيلة لضبط شؤون الحكم وتوجيه الحكام والمحكومين، لذلك جاءت مخاطبته للإنسان كله بعقله وروحه، مخاطبته الذات الإنسانية بكل مقوماتها وخصائصها، يخاطب العقل كما يخاطب الضمير والوجدان، ولا يقصر خطابه على ناحية معينة:

﴿**قل إنما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا**﴾[2].

﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون**﴾[3].

وما دام الأمر هكذا كان لا بد أن نتعرض بشيء من التفصيل للجانب المتعلق ببحثنا ألا وهو جانب الدولة ـ السياسة ـ لنرى كيف أنها ركن أساسي في نظام الإسلام لا بد منه لإقامة شرع الله وتنفيذه والسهر على أحكامه.

---

(١) الملك: ١٤.

(٢) سبأ: ٤٦.

(٣) البقرة: ٢١٩.

الدولة في الفقه الإسلامي:
[كما قررها علماء السياسة الشرعية]:

إن عودة متأنية فاحصة لما تركه فقهاء المسلمين في هذا المجال تجعلنا نجد معهم أن إقامة الدولة الإسلامية (الخلافة) من فروض الكفايات، كالجهاد والقضاء، إذا قام بها من هو أهل لها سقطت الفريضة عن الكافة، وإن لم يقم بها أحد أثم كافة المسلمين حتى يقوم بأمر الخلافة من هو أهل لها، لأن المسلمين جميعاً مخاطبون بشرع الله وعليهم إقامته.

في حين يرى بعضهم ـ الماوردي والفراء ـ أن الإثم يلحق فئتين فقط من الأمة المسلمة. أولاها: أهل الرأي حتى يختاروا خليفة.
والثانية: من تتوفر فيهم شرائط الخلافة حتى يختار أحدهم خليفة[1].

دليل الوجوب:

ولقد اعتمدوا عند قولهم بفرضية إقامة الدولة المسلمة (الخلافة) على آيات وأحاديث منها مثلاً، قوله تعالى:
﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[2].

وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما:

---

(١) انظر كتاب «الأحكام السلطانية» للماوردي ص ٤، وللفراء الحنبلي ص ٣.
(٢) النساء: ٥٩.

«ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[1].

وفي الحديث المتفق عليه عن حذيفة رضي الله عنه:

«تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»[2].

وقوله عليه الصلاة والسلام:

«إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم»، وقوله: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم».

فإذا شرع هذا لثلاثة في فلاة أو مسافرين فشرعيته أولى لعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار ويحتاجون لدفع التظالم والفصل في الخصومات...[3].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فأولها نقضاً الحكم وآخرها الصلاة».

ولما سئل عليه الصلاة والسلام: ما للخليفة من بعدك؟ قال: «مثل الذي لي... ما عدل في الحكم وأقسط في القسم، ورحم ذا الرحم، فمن فعل غير ذلك فليس مني ولست منه».

واستدلوا كذلك بالسنة الفعلية التي استنها الرسول ﴿ﷺ﴾.

فلقد كون للمسلمين وحدة سياسية، وألف منهم دولة واحدة كان هو رئيسها وإمامها الأعظم، وكان له وظيفتان، الأولى: التبليغ عن الله

---

(١) مسلم بشرح النووي: ٤/٥١٨.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأحكام، صحيح مسلم: كتاب الإمارة، وانظر مسلم بشرح النووي ٤/٥١٤، وانظر المواقف لعضد الدين الأيجي ص ٦٠٤، الخلافة لمحمد رشيد رضا: ص ١٠ - ١١.

(٣) سنن أبي داود كتاب الجهاد ٢/٣٤، نيل الأوطار للشوكاني: ٨/٤٩٦.

عز وجل وقد انتهى هذا بوفاته عليه الصلاة والسلام وانقطاع الوحي.

والثانية: القيام على أمر الله وتنفيذ شرعه وتوجيه سياسة الدولة في حدود الإسلام وهذه مهمة الخلفاء من بعده، ولذا عرَّف هؤلاء الخلافة بقولهم:

«رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا خلافة عن النبي ﴿ﷺ﴾»[1].

و«الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[2].

و«هي خلافة عن الرسول ﴿ﷺ﴾ في إقامة الدين وحفظ حوزة الملة»[3].

و«فهي... في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[4].

و«الخليفة يمثل النبي ﴿ﷺ﴾ لا يتميز عن سائر المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين»[5].

فإذا لم يكن بالناس حاجة للتبليغ بعد وفاته عليه الصلاة والسلام لوجود القرآن والسنة، فإنهم في أشد الحاجة إلى من يقوم على القرآن والسنة ويسوسهم في حدود الإسلام بعد أن كوَّن الرسول ﷺ منهم

---

(١) السعد التفتازاني في متن ـ مقاصد الطالبين في علم أصول عقائد الدين ـ عن «الخلافة» ص ١٠ ـ ١١.

(٢) الماوردي في الأحكام السلطانية ص ٥.

(٣) عضد الدين الأيجي في المواقف ص ٦٠٣.

(٤) ابن خلدون في «المقدمة» ص ١٨٠.

(٥) ابن خلدون في «المقدمة» ٢/٦٨٨ طبع لجنة البيان العربي.

وحدة سياسية واستنَّ لهم رئاسة الدولة وإمامة المسلمين، بل إن التأسي بالرسول ﴿ﷺ﴾ واتباع سنته يقتضي من المسلمين جميعاً أن يقيموا دولة على رأسها من يخلف محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في إقامة الدين وتوجيه سياسة الدولة توجيهاً إسلامياً خالصاً.

واستدلوا كذلك بالإجماع، ـ ومنهم من يقصر الاستدلال على وجوبها ـ بالإجماع فقط، لأن الإجماع راجع في أصله إلى كتاب الله عز وجل، فالأخذ به أخذ بالقرآن الكريم[1].

ـ ويقصد به إجماع الصحابة رضوان الله عليهم وقد جاء في كتاب «الخلافة»: أجمع سلف الأمة وأهل السنة وجمهور الطوائف الأخرى على أن نصب الإمام، أي توليته، على الأمة واجب على المسلمين شرعاً لا عقلاً فقط كما قال بعض المعتزلة واستدلوا بأمور لخصها السعد في متن المقاصد بقوله: «لنا وجوه، الأول: الإجماع» وبيَّن في الشرح أن المراد إجماع الصحابة.

قال وهو العمدة: حتى قدموه على دفن النبي صلى الله عليه آله وسلم[2].

الثاني: إنه لا يتم إلا به ما وجب من إقامة الحدود وسد الثغور ونحو ذلك مما يتعلق بحفظ النظام.

---

(١) وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله على حجية الإجماع بقوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ النساء: ١١٥.

(٢) شرح العقائد النسفية ص ١٨١، ما أن تحقق أبو بكر من وفاة الرسول ﴿ﷺ﴾ حتى خرج على الناس يقول لهم: ألا إن محمداً قد مات ولا بد لهذا الدين من يقوم به. ولم يدفن عليه الصلاة والسلام حتى أقام المسلمون أبا بكر خليفة له.

الثالث: إن فيه جلب منافع ودفع مضار لا تحصى وذلك واجب إجماعاً.

الرابع: وجوب طاعته وهذا يقتضي وجوب حصوله وذلك بنصبه وأن ما أجمعوا عليه من وجوب طاعته في المعروف شرعاً يقتضي أن نصبه واجب شرعاً [1].

والإجماع مصدر من مصادر الشريعة يلزم المسلمين كما يلزم النص.

وإذا كان الصحابة قد اختلفوا فيما بعد على الخلافة فينبغي أن نعلم أن الخلاف كان على الشخص الذي يملأ الوظيفة لا على وجوب الخلافة وفرضيتها ووجوب إقامتها[2].

وفي ذلك يقول ابن حزم: «اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمام، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حاشا النجدات من الخوارج فإنهم قالوا: لا يلزم الناس فرض الإمامة، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم، وهذه فرقة ما نرى بقي منهم أحد، وهم المنسوبون إلى نجدة بن عمير الحنفي القائم باليمامة»[3].

وقد أورد رده عليهم فقال: «وقول هذه الفرقة ساقط يكفي من

---

(١) انظر أيضاً شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني ص ١٨١ وما بعدها. والخلافة لمحمد رشيد رضا: ص ١٠ ـ ١١.

(٢) المواقف ٦٠٣، مقدمة ابن خلدون ١٨١.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/٧٨.

الرد عليه وإبطاله إجماع كل من ذكرنا على بطلانه، والقرآن والسنة قد وردا بإيجاب الإمام من ذلك قوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[1] مع أحاديث كثيرة صحاح في طاعة الأئمة وإيجاب الإمامة[2]، وأيضاً فإن الله عز وجل يقول: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾[3] فوجب اليقين بأن الله تعالى لا يكلف الناس ما ليس في بنيتهم واحتمالهم، وقد علمنا بضرورة العقل وبديهيته أن قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام عليهم في الأموال والجنايات والدماء والنكاح والطلاق، وسائر الأحكام كلها، ومنع الظالم وإنصاف المظلوم، وأخذ القصاص، على تباعد أقطارهم وشواغلهم، واختلاف آرائهم وامتناع من تحرى في كل ذلك ممتنع غير ممكن إذ قد يريد واحد أو جماعة أن يحكم عليهم إنسان، ويريد آخر أو جماعة أخرى أن لا يحكم عليهم، إما لأنها ترى في اجتهادها خلاف ما رأى هؤلاء، وإما خلافاً مجرداً عليهم، وهذا الذي لا بد منه ضرورة، وهذا مشاهد في البلاد التي لا رئيس لها، فإنه لا يقام هناك حكم حق ولا حد حتى قد ذهب الدين في أكثرها، فلا تصح إقامة الدين إلا بالإسناد إلى واحد أو إلى أكثر من واحد، فإذن لا بد من أحد..»[4].

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيقول في ذلك:

«إن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين

(١) النساء: ٥٩.

(٢) انظر صحيح البخاري: كتاب الأحكام، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة ففيهما الكثير من هذه الأحاديث.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

(٤) الفصل في الملل ٤/٨٧ وما بعدها.

إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس. . . فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرئاسة أو المال بها»[1].

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: «ثم اعلم أن الشريعة أصل، والملك ـ الحكم ـ حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع».

ويقول ابن خلدون: «إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم. وكذا في كل عصر من بعد ذلك، ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام»[2].

ويتلخص دليلهم العقلي بما يلي:

ـ وجود الحكومة في الجماعة ضرورة اجتماعية لأن البشر يستحيل عليهم أن يعيشوا منفردين ولا بد أن يتجمعوا تدفعهم لذلك المصلحة والضرورة، فإذا اجتمعوا تزاحموا وتنافسوا وتغالبوا وفرقت بينهم المصالح والمنافع، وقامت بينهم الخصومات، فلا بد من حاكم يتزعمهم ويفصل

---

(١) السياسة الشرعية ١٦١.

(٢) المقدمة ٤٨١، ويقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ويم الله لو أعلم أنه يسوغ لي فيما بيني وبين الله أن أخليكم وأمركم هذا ـ الخلافة ـ وألحق بأهلي لفعلت، ولكني أخاف ألا يسوغ ذلك لي فيما بيني وبين الله. . .».

في خصوماتهم، ويحملهم على سلوك السبيل القويم. . . وإذا كان العقل يقضي بأن عدم قيام حكومة بين الناس يؤدي إلى الضرر، كانت الخلافة أو الإمامة واجبة عقلاً[1].

ـ وجود الحكومة لا بد منه لإقامة شرع الله وتنفيذ أحكامه: «إن الكثير من الواجبات الشرعية يتوقف على إقامة[2] خليفة أو إمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب شرعاً، كما أن في نصب الإمام دفع ضرر، وإزالة الضرر تجب شرعاً، وفيه أيضاً جلب منافع للأمة وهو واجب أيضاً، ذلك أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود وشعائر الشرع وغيرها إنما هو مصالح عائدة على الخلق، وهذه المصالح لا تتم إلا بإمام يرجعون إليه فيما يختلفون فيه، وهم مع اختلاف الأهواء وتشتت الآراء قلما ينقاد بعضهم لبعض فيفضي ذلك إلى التنازع والنوائب وربما أدى إلى هلاكهم جميعاً، والتجربة تشهد بأن عدم إقامة خليفة يؤدي إلى تعطيل الدين والخروج على الإسلام وتفرق المسلمين كما هو حادث اليوم. . .»[3].

ولم يكتف هؤلاء الأفذاذ ببيان فرضية إقامة الخلافة، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك محددين الشروط التي يجب أن تتحقق فيمن يختار لهذا المنصب[4]، من الإسلام والذكورة والتكليف والعلم والعدالة والكفاية،

---

(١) انظر المواقف ٦٠٣ ـ ٦٠٥. المقدمة ص ١٨١.

(٢) شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني ص ١٨١. المغني للقاضي عبد الجبار ٤٣/٢٠ وما بعدها.

(٣) المواقف ٦٠٣ ـ ٦٠٥، الخلافة ص ١٠.

(٤) المغني للقاضي عبد الجبار ١٩٨/٢٠ وما بعدها، المواقف ٦٠٥ وما بعدها، المحلى ٦٣٢/٩، أسنى المطالب ١٠٨، الملل والنحل ١٦٦/٤.

بل إن بعضهم اشترط السلامة (سلامة الأعضاء والحواس)...

وحددوا الطريق الشرعي لانعقادها وهو اختيار الأمة ممثلة بأهل الحل والعقد.

«فإذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً، وأكملهم شروطاً ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته»[1] و«قال الجمهور الأعظم من أصحابنا ـ أهل السنة ـ ومن المعتزلة والخوارج: إن طريق ثبوتها الاختيار من الأمة»[2]. وبين شيخ الإسلام ابن تيمية أن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه «ثبتت بالاختيار من أهل الحل والعقد»[3].

وقال ابن أبي ذئب رحمه الله للخليفة العباسي المنصور: «... وأن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى لمن وليها...» كما قال له أبو حنيفة رحمه الله: «... والخلافة تكون باجتماع المؤمنين ومشورتهم...»[4].

بل لقد ذهب هؤلاء الأفذاذ إلى أن للأمة الحق في عزله إذا جار وانحرف ولم يقم بواجباته التي ألزمه الشارع القيام بها:

«إذا قام الإمام بما ذكرنا من حقوق الأمة، فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وما عليهم ووجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة ما لم يتغير حاله، والذي يتغير به حاله فيخرج به عن الإمامة شيئان، أحدهما: جرح

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ٣ وما بعدها، للفراء ٤ وما بعدها، أصول الدين ص ٢٧٩، الخلافة ١٠٦، المقدمة ١٨٣.
(٢) أصول الدين للبغدادي ٢٧٩.
(٣) منهاج السنة ١/١٣٦.
(٤) مناقب الامام الأعظم للكردي ٢/١٥ ـ ١٦.

في عدالته. والثاني: نقص في بدنه»[1] «فهو الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن زاغ عن شيء منهما من ذلك وأقيم عليه الحد والحق، فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه، خلع وولي غيره، والواجب إن وقع منه شيء من الجور وإن قل أن يكلم في ذلك ويمنع منه، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن فلا سبيل إلى خلعه، فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات ولم يراجع، وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق»[2].

وأوضحوا رحمهم الله بطلان إمامة الفاسق؛ يقول الجصاص رحمه الله عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾:

«. . . فلا يجوز أن يكون الظالم نبياً ولا خليفة لنبي، ولا قاضياً ولا من يلزم الناس قبول قوله في أمور الدين من مفت أو شاهد أو مخبر عن النبي ﴿ﷺ﴾ خبراً، فقد أفادت الآية أن شرط جميع من كان في محل الإئتمام به في أمر الدين: العدالة والصلاح. فثبت بدلالة هذه الآية: بطلان إمامة الفاسق، وأنه لا يكون خليفة، وأن من نصب نفسه في هذا المنصب وهو فاسق لم يلزم الناس اتباعه ولا طاعته، وكذلك قال النبي ﴿ﷺ﴾: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

ودل أيضاً على أن الفاسق لا يكون حاكماً وأن أحكامه لا تنفذ إذا ولي الحكم، وكذلك لا تقبل شهادته، ولا خبره إذا أخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم. . .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ١٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٦٨٨/٢، النظريات السياسية ٢٩٣ وما بعدها، حضارة الإسلام العدد الرابع السنة ١٨ ص ٦٢ وما بعدها.

ومن الناس من يظن أن مذهب أبي حنيفة تجويز إمامة الفاسق وخلافته... فإنما جاء غلط من غلط في ذلك، إن لم يكن تعمد الكذب، من جهة قوله وقول سائر من يعرف قوله من العراقيين: أن القاضي إذا كان عدلاً في نفسه فولي القضاء من قبل إمام جائر أن أحكامه نافذة وقضاياه صحيحة، وأن الصلاة خلفهم جائزة مع كونهم فساقاً، وهذا مذهب صحيح ولا دلالة فيه على أن مذهبه تجويز إمامة الفاسق... وكان مذهبه مشهوراً في قتال الظلمة وأئمة الجور، ولذلك قال الأوزاعي رحمه الله: احتملنا أبا حنيفة على كل شيء حتى جاءنا بالسيف ـ يعني قتال الظلمة ـ فلم نحتمله. وكان من قوله: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض بالقول فمن لم يؤتمر له فبالسيف.

وأورد الإمام الذهبي رحمه الله قول أبي حنيفة صريحاً في هذا الموضوع: أيما إمام غل أو جار في حكمه بطلت إمامته ولم يجز حكمه[1].

وقاموا بعد ذلك ببيان أن الخليفة لا يتميز عن سائر المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين، وأن الخلافة مسؤولية وأمانة وعلى من يتحمل هذه المسؤولية والأمانة أن يقوم بالواجبات الملقاة على عاتقه.

وحرصاً منهم على التزام دلالات النصوص لم يعمدوا إلى بيان (سلطات الخليفة) صنيع فقهاء القانون الدستوري في النظم الوضعية

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٨٠ ـ ٨١، ومناقب أبي حنيفة للذهبي.

اليوم في بيانهم (سلطات رئيس الدولة) إنما نجدهم يقصرون الكلام على (واجبات الخليفة)وفي صنيعهم هذا تأصيل لذاتية الإسلام في نظام الحكم وبيان أن السلطة تكليف لا تشريف، وأن مسؤولية الخليفة مزدوجة، فهو مسؤول أمام الله عز وجل، ومسؤول أمام الأمة التي اختارته[1].

وهكذا نجد أن الإسلام يقيم شؤون الدنيا كلها على أساس من الدين، ويتخذ من الدين سنداً للدولة ووسيلة لضبط شؤون الحكم وتوجيه المحكومين، ولذلك جاءت مخاطبته للإنسان كله بعقله وروحه. ومن هنا ارتبط الدين بالدولة في الإسلام ارتباطاً كبيراً، ارتباط القاعدة بالبناء، فالدين أساس الدولة وموجهها، ولا يمكن تصور دولة إسلامية بلا دين، كما لا يمكن تصور الدين الإسلامي فارغاً من توجيه المجتمع وسياسة الدولة، لأنه حينئذ لا يكون إسلاماً. . .[2].

وعلى هذا لم يفرق علماؤنا وسلفنا الصالح بين الأحكام التي تنظم الأمور الدينية (العقيدة والعبادة) والأحكام التي تنظم الأمور الدنيوية، بل إنهم أطلقوا عليها جميعاً اسم «الأحكام الشرعية».

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/٦٨٨، النظريات السياسية ٢٩٣ وما بعدها. مجلة حضارة الإسلام العدد الرابع السنة ١٨ ص ٦٢ وما بعدها.

(٢) من توجيهات الإسلام للشيخ شلتوت ص ٥٥٢ وما بعدها.

الفـرع الثـاني

التطبيق العـملي

في سنّة المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم، وخلفائه

إن عودة متأنية فاحصة ودراسة واعية لسيرة محمـد صلى الله عليه وآله وسلم حتى قبل أن يهاجر إلى المدينة المنورة ستشهد أن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهـو المبلغ عن ربـه رسـالـة الإسـلام والأعـرف بهـا وبدقائقها، مهد خلال أكثر من عقد من السنين بمـا أوحى الله عز وجـل إليه وبسياسته الرشيدة لإقامة الدولة الإسلامية الأولى والتي ستكون مثالاً يحتذيه الخلفاء من بعده لينسجوا على منواله.

فهـا هو عليـه الصلاة والسـلام في السنة الثـالثـة للرسـالـة يقـول لأشراف قومه أمام عمه أبي طالب: «كلمة واحـدة تعطونيهـا تملكون بهـا العـرب وتدين لكم بهـا العجم»[1] وواضح في هـذا القـول أن التفكـير السياسي كان إلى جانب الدعوة إلى الدين الجديد.

وها هو وعندما يرى العذاب تنـزله قـريش بأتبـاعه وصحـابته ولا يقدر على أن يمنعهم فيأمرهم بالهجرة إلى الحبشة وهذا عمـل سياسي ـ لما

---

(١) ابن هشام ٤١٧/١، الطبري ٣٢٤/٢، ابن سعد ٧٤/١.

رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه. . .»(١) ولقد أراد عليه الصلاة والسلام أن يحفظ أصحابه من الاضطهاد والهوان أو الفناء بهذه الخطة السياسية حتى إذا وجد أن سبب الهجرة قد زال أرسل يستدعيهم.

وبيعة العقبة الثانية التي عقدها مع الأنصار من الأوس والخزرج قبل الهجرة إلى المدينة المنورة والتي سميت ببيعة الحرب على ما ذكر ابن هشام والطبري(٢) وما كانت الحرب إلا عملاً من أعمال السياسة.

وقوله عليه الصلاة والسلام للأنصار في هذه البيعة: «أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم» فسموا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس(٣) صريح في أنه كان يهيء أصحابه لحرب خصومه.

وخروجه قبل ذلك يلتمس النصرة من القبائل، من ذلك: رحلته إلى الطائف يلتمس (النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إليهم وحده)(٤) ثم دخوله مكة بجوار المطعم بن عدي(٥) وما كان يفعله في المواسم من

---

(١) ابن هشام ١/٣٢١.
(٢) ابن هشام ١/٤٣٨، الطبري ٢/٣٦٢، وانظر أيضاً سيرة ابن كثير ٢/٦٦.
(٣) ابن هشام ١/٤٤٣.
(٤) ابن هشام ١/٤١٩.
(٥) ابن هشام ١/٣٨١، الطبري ٢/٣٤٧.

عرض نفسه على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه[1].

وما فعله قبل الهجرة من مؤاخاة بين أصحابه في مكة، هذه المؤاخاة التي هدم بها النزعة القبلية وأزال الفوارق الطبقية بدليل مؤاخاته عمه الحمزة ومولاه زيد وابن عمه عبيدة بن الحارث وبلال، وابن أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة رضوان الله عليهم أجمعين. . .

هذه مواقف للرسول «ﷺ» التقى فيها الدين بالسياسة لأن الدعوة التي جاء بها لم تكن دعوة للتوحيد ليس غير، ولكنها كانت نظاماً سياسياً كاملاً.

ثم كانت الهجرة إلى المدينة المنورة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والعهد الذي وضعه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والذي عرف باسم «الصحيفة»[2] وتم فيه تنظيم العلاقات ومختلف شؤون السلم والحرب بين الطوائف المختلفة التي كانت تسكن المدينة المنورة، وحددت الحقوق والواجبات.

وتعتبر الصحيفة بحق دستوراً للدولة التي أرسى قواعدها الرسول «ﷺ» في المدينة المنورة حيث تحدد مفهوم الأمة والمواطنة في هذه الدولة (أنهم ـ أي المسلمين ـ أمة واحدة من دون الناس) و(أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين) وأرست قواعد المساواة (أن ذمة الله واحدة) وأن المسلمين (يجير عليهم أدناهم) وأن (بعضهم موالي بعض دون الناس)

---

(١)ابن هشام ١/٤٢٢.

(٢)مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ص ١٥.

وأن (المؤمنين يبيء[1] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله).

وجاء في الصحيفة أيضاً: تحريم المدينة المنورة (أن يثرب حرام جوفها لأهل الصحيفة) ومنع إجارة قريش (وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها) ومنعت البغي والظلم وجاءت بالقود من القاتل، ومنعت إيواء المجرمين، وأن العقوبة شخصية تلحق مرتكب الجريمة فقط، ومنعت الصلح المنفرد (سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم) وجاءت بفداء الأسرى ورعاية حقوق الجار، ووضعت تدابير أمنية لوقاية أمن المجتمع وتحقيق استقراره، وبينت ما على اليهود من نفقات للدفاع عن الدولة الناشئة (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) وحددت الصحيفة أنه إذا وقع خلاف على تنفيذ نصوص الصحيفة أو ـ تفسيرها فالمرجع في فضه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله)[2].

ثم ما كان بعد ذلك من توجيه الجيوش وقيادتها، واستعمال ولاة الأمور، وبعث السعاة على الأموال الزكوية لجمعها وتوزيعها على مستحقيها، وغير ذلك كثير حتى قال ابن تيمية رحمه الله[3]: «كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يتولى جميع ما يتعلق بولاة الأمور، يولي في الأماكن البعيدة عنه، وكان كذلك يؤمر على السرايا ويبعث على الأموال الزكوية السعاة، فيأخذونها ممن هي عليه، ويدفعونها إلى مستحقيها الذين سماهم الله في

---

(١)معنى قوله يبيء هو من البواء أي: المساواة. الروض الأنف للسهيلي ١٧/٢.

(٢)الوثائق السياسية ص ١٦ وما بعدها.

(٣)في كتابه الحسبة ص ٢٧ وما بعدها.

القرآن . . . وكان يستوفي الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف . . .

ومن الكتب التي ألفها المتقدمون لبيان حكومة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأعمالها كتاب الإمام علي بن محمد الخزاعي المتوفى عام ٧٨٩ هـ (تخريج الدلالات السمعية) وقد قام بشرحه عبد الحي الكتاني من العلماء المعاصرين في كتاب سماه (التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلية)[١]

ولدى العودة إلى الكتاب المذكور نجد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نظم حكومته التي حققت العدل والمساواة بين الجميع على أحسن ما يكون النظام. ففي الشؤون الداخلية:

كان الجهاز الحكومي يتكون من:

الوزارة: «وزيران من أهل الأرض أبو بكر وعمر».

صاحب السر: حذيفة بن اليمان.

الآذن أو الحاجب الذي ينظم الدخول على رسول الله ﴿ﷺ﴾.

وكان يقوم بهذه المهمة أنس بن مالك، ورباح بن أبي مسروح[٢].

التعليم: عبادة بن الصامت يعلم القرآن، عبد الله بن سعيد العاصي يعلم الكتابة وبعد غزوة بدر الكبرى فتح الرسول ﴿ﷺ﴾ أول

---

(١)طبع في الرباط ١٣٤٦ هـ . وصور في بيروت مؤخراً.
(٢)الطبري ١٧١/٣.

مدرسة للتعليم، (جعل فداء كل أسير أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة).

الكتاب: كتاب الوحي ـ كتاب الرسائل (أبي بن كعب ـ زيد بن ثابت) كتاب العهود والصلح (علي بن أبي طالب ـ عامر بن فهيرة ـ أبو بكر الصديق).

صاحب الخاتم: معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي.

المحاسب: وكان يتولى عليه الصلاة والسلام هذا الأمر بنفسه ليحاسب عماله الذين كان يرسلهم، محاسبته لابن اللتبية عندما أرسله على صدقات بني سليم.

السجون: المقيمون للحدود، العاملون على الزكاة ـ صاحب الجزية (أبو عبيدة ـ معاذ بن جبل) ـ الخارصون الذين يقدرون الثمر على الشجر.

الولاة في حال غيبة الرسول ﴿ﷺ﴾ عن المدينة، وفي الأمصار: عن أبي ذر رضي الله عنه، قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟.

قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها إمارة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلّا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[1] وما رواه الشيخان قوله عليه الصلاة والسلام: «يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها.»[2].

---

(١)صحيح مسلم: كتاب الإمارة، وانظر مسلم بشرح النووي ٤/ ٤٨٩.

(٢)البخاري في كتاب الأحكام، ومسلم في كتاب الإمارة: ١٤٥٦/٣.

وفي الشؤون الخارجية:

الرسل والسفراء: دحية الكلبي إلى قيصر، عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، حاطب ابن أبي بلتعة إلى المقوقس.

الرسائل: كان يمليها عليه الصلاة والسلام ويكتبها الكتاب، ويحملها الرسل، وقد شملت الدولة البيزنطية وفارس وقريشاً والقبائل العربية، ولقد جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي في كتاب سماه:

(مجموعة الوثائق السياسية على عهد النبوة).

المعاهدات: مع اليهود، صلح الحديبية مع قريش...

وكان عليه الصلاة والسلام يتخذ ترجماناً «زيد بن ثابت».

الشؤون العسكرية:

خاض عليه الصلاة والسلام غمار حروب كثيرة (تسع عشرة غزوة حضرها بنفسه) وبلغت سراياه وبعوثه على قول ثمانية وأربعين، أو ستة وخمسين على قول آخر. وقد استخدم فيها جميع أنواع الأسلحة المعروفة آنذاك، وجميع الأساليب المشروعة من استخدام الجواسيس والمخذلين والراية التي كان يعقدها لمن يوليه الإمارة (رايته تدعى العقاب) وقسم الجيش إلى مقدمة ومجنبتين وقلب وساقة (هذا سبب تسمية الجيش بالخميس).

وفي جميع هذه الشؤون، الداخلية والعسكرية والخارجية كان

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يديرها على ضوء المبادىء التي جاء بها والتي تهدف إلى تحقيق إنسانية الإنسان عن طريق إحقاق الحق وإبطال الباطل، دون نظر لصلة قربى أو هوى أو مصلحة، أو غير ذلك من مقاييس الناس التي تفرق بين بني البشر:

(ما هذا يا صاحب الطعام؟ من غش فليس منا[1]. . . لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها[2]، وكان عليه الصلاة والسلام يقيد من نفسه، ويكثر استشارة أصحابه ولا يرى غضاضة في النزول عند رأي بعضهم)[3] فهل يمكن بعد هذا لعاقل أن يقول: (من المؤكد أننا لا نجد فيما وصل إلينا من الآثار شيئاً واضحاً يمكننا ونحن مقتنعون مطمئنون أن نقول: إنه كان نظام الحكومة النبوية)[4].

أو أن يقال: (لا نستطيع أن نتحدث عن إدارة جديدة أنشأها النبي ﴿ﷺ﴾ في المدينة خلال السنوات الأولى من هجرته إليها) وأن (فريقاً من المؤلفين زعم أن التنظيمات الإدارية بدأت في المدينة من يوم سمى النبي ﴿ﷺ﴾ الولاة، ولكننا تتبعنا أحوال هؤلاء الولاة فوجدنا عملهم قاصراً على النيابة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مدة غيابه عن المدينة في الغزوات، وكانوا يقومون بالإمامة في الصلوات، ولا نعرف لهم من الأعمال والمآثر أكثر من ذلك) وأن (النبي أرسل أمراء أو عمالاً إلى البلاد وقد كان هؤلاء موظفين من نوع مخصوص ولا يشبهون

(١)صحيح مسلم كتاب الإيمان ١٦٤، سنن أبي داود: بيوع ٥٠.
(٢)صحيح مسلم كتاب الحدود ١١، كتاب الخراج ص ١١٦.
(٣)ما فعله عندما أشار إليه الحباب بن المنذر يوم بدر.
(٤)انظر الإسلام وأصول الحكم ٤٥ الطبعة الثالثة.

موظفي هذا الزمان، كانت تغلب فيهم الصفة الدينية[1] فكانوا أشبه بالوعاظ والأساتذة منهم بالموظفين)[2] ألا قاتل الله الهوى لأنه يعمي عن رؤية الحقيقة الجلية الواضحة والتي لا سبيل لإنكارها من أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان إماماً في المحراب، وقاضياً يحكم بين الناس بشرع الله، وقائداً عسكرياً يخوض المعارك ويوجه الجند، وسياسياً يدير شؤون الأمة الداخلية والخارجية، يبرم العهود والمواثيق، ويبين لهم أن الإسلام نظام شامل يعالج شؤون الحياة كلها.

حكومة الخلفاء:

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اختار المسلمون صاحبه أبا بكر الصديق أميراً عليهم وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فوقف منذ اللحظة الأولى ليعلن للناس جميعاً برنامجه السياسي العام مؤكداً فيه على تقيده بنهج محمد ﷺ «إنَّما أنا متبع ولست بمبتدع»[3] مبيناً أنه فرد من المسلمين لا ميزة له عليهم سوى قيامه بتنفيذ شرع الله عز وجل وهي المهمة الأساسية لأي حاكم في الإسلام (وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم... وأن للمسلمين الحق في مناقشته ورده وتقويمه إن اعوج، ولم يدَّع عصمة أو حقاً مقدساً بل إنه ـ رضي الله عنه ـ لم يرتض أن يقال

(١) انظر إلى النظرة الكهنوتية الكنسية الغربية التي تحاول عزل الدين عن الحياة وقصره على مكان العبادة التي تجعلها صلة بين العبد وربه فقط.

(٢) عبقرية الإسلام في أصول الحكم ٩٥-٩٧ منير العجلاني.

(٣) البداية والنهاية ٥/٢٤٥.

له: خليفة الله، ويقول للقائل: بل أنا خليفة رسـول الله صلى الله عليـه وآله وسلم.

ويسوس المسلمين كما كان يفعـل رسول الله ﷺ، كـان يضع نصب عينيـه مصلحتهم العامـة دنيـاً ودينـاً، يعـين الـولاة، ويجيش الجيـوش، ويرسل الرسل.. لذا حارب المرتدين واجتهد في حربهم، ووقف في وجه محاولات تحريف الدين وهو ما يزال طري العود، غض الإهاب، فرفض أن يقبـل من مانعي الـزكاة إسـلامهم (والله لأقاتلنهم ولـو منعوني عقـالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ حتى يؤدونه... والله لأقـاتلن من فرّق بـين الصلاة والزكاة)، لذا أصر على اعتبارهم مـرتدين كـأولئك الـذين ادعوا النبوة وألحدوا في الله عـز وجلّ وكفـروا بالإسـلام جملة وتفصيلاً... إن هذا الإصرار على قتالهم يؤكد أهمية الترابط الـوثيق بين مفـاهيم الإسلام وأوامره ونواهيه وتشريعاته، وإلا فما معنى إصراره رضـوان الله عليه؟ إن هذا التشريع الاقتصـادي إنما هـو ركن عبادي كـذلك من أركـان الدين الأساسية[1].

وعلى مثل هـذا سار خليفتـه من بعده عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه، فصنع نمـاذج من السلوك الرفيـع في الحكم تجعـل الجميـع اليـوم يقفون أقزاماً في رحابه رضي الله عنه..

ها هو ابن سعد يروي في طبقاته وابن الجوزي في تاريخه[2].

(بينما عمر يمشي في سكة من سكك المـدينة إذا هـو بصبية تـطيش

(١)انظر «المنهزمون» للأستاذ يوسف العظم ٩٣ وما بعدها.

(٢)انظر الطبقات الكبرى: ١٩٨/١، تاريخ عمر: ٩١.

هـزالا تقدم مـرة وتقع أخـرى، قال عمـر: يا حـوبتها، يـا بؤسها، من يعرف هذه منكم:

قال عبد الله بن عمر: أما تعرفها يا أمير المؤمنين؟ قال: لا.

قال: هذه إحدى بناتك. قال: وأي بناتي هذه؟ قال: هذه فـلانة بنت عبد الله بن عمر: قال: ويحك وما صيرها إلى ما أرى؟ قال: منعك ما عندك. قال: ومنعي ما عنـدي، منعك أن تـطلب لبناتـك ما يـطلب القوم لبناتهم، إنك والله ما لك عندي غير سهمك في المسلمين، وسعك أو أعجزك، هذا كتاب الله بيني وبينك).

إنـه يرفض أن يـوفر الـطعام لأهله والنـاس جياع ويؤكـد المساواة الكاملة بين الجميع، ويصر على أن مهمـة الحاكم تنفيـذ شرع الله فقط، وأن لا يتميز هو وأهله عن غيرهم من المسلمين بل هو واحـد منهم (هذا كتاب الله بيني وبينك).

(وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: اشتريت إبلاً وسقتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق فرأى إبلاً سـماناً فقال: لمن هذه؟ فقيل: لعبد الله بن عمـر. فجعل عمـر يقول: يـا عبد الله بـخ بخ ابن أمـير المؤمنـين فجئتـه أسعى، فقلت: مـا لـك يـا أمـير المؤمنين؟ فقال: مـا هذه الإبل؟ قلت: إبل أفضـاء ـ هزيلة ـ اشـتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون. فقال عمر: ارعوا إبـل ابن أمـير المؤمنين، اسقـوا إبل ابن أمير المؤمنين يـا عبـد الله هـذا رأس مالك واجعل الربح في بيت مال المسلمين)[1].

(١)الرياض النضرة في مناقب العشرة: ١/٤٧

وما فعل عمر رضي الله عنه هذا إلا من أجل أن يقضي على أية بادرة استغلال لنفوذ الإمارة حتى ولو جاء الأمر بصورة عفوية وغير مقصودة.

ويروي ابن الجوزي فيقول: (وقدم عليه مسك وعنبر من البحرين فقال: والله لوددت أني آخذ امرأة حسنة الوزن تزن لي هذا الطيب حتى أفرقه بين المسلمين، فقالت له امرأته عاتكة: أنا جيدة الوزن فهل أزن لك؟ قال: لا. قالت: ولم، قال: أخشى أن تأخذيه هكذا فتجعليه هكذا، وأدخل إصبعيه في صدغيه وتمسحين به عنقك، فأصيب فضلاً عن المسلمين)(١).

(كان معيقيب على بيت مال عمر، فكسح بيت المال يوماً فوجد فيه درهماً فدفعه إلى ابن لعمر. قال معيقيب: ثم انصرفت إلى بيتي، فإذا رسول عمر قد جاء يدعوني فجئت فإذا بالدرهم في يده فقال: ويحك يا معيقيب أوجدت علي في نفسك سبباً؟ أو قال: ما لي وما لك؟ فقلت: وما ذاك؟ قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد ﷺ في هذا الدرهم يوم القيامة)(٢).

إن الأمر دين، وإنه الإسلام العظيم، وإنها الشريعة الغراء التي يسهر على تنفيذها هي التي جعلته يتلاشى رعباً ويذوب خوفاً وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، إنه يخشى بعد كل الذي صنع ألا يغفر الله له (قال عثمان: أنا آخركم عهداً بعمر دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبد الله فقال له: ضع رأسي على الأرض قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟

---

(١)تاريخ عمر: ١٣٨.

(٢)تاريخ عمر: ٩٢.

قـال: قال: ضـع خدي بـالأرض لا أم لك، وفي الثـانية والثـالثـة، ثم شبك بين رجليه فسمعته يقول: ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي)[1].

لذلك كان حقاً أن عمر ترك لمن بعده مقاييس في الحكم الصـالح بلغت حـداً لا يقدر عـلى تحمله إلا من تعمق الإيمـان في قلوبهم وسمت نفوسهم الكبار لمثل حمله.

(قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: رأيت عمر على قتب يعدو فقلت: يـا أمير المؤمنـين أين تذهب؟ فقـال: بعـيراً ـ هرب ـ من إبـل الصـدقة أطلبـه. فقلت: لقد أتعبت من بعـدك. فقال: فـوالـذي بعث محمـداً صلى الله عليـه وآله وسلم بـالنبوة لـو أن عنـاقـاً ـ عنـزاً ـ ذهبت بشاطىء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة)[2].

ويقف رضي الله عنـه مبينـاً للمسلمـين مـا لهم عليـه ليحـاسبـوه فيقول:

«أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية ولكم عليَّ أيها النـاس خصال أذكـرها لكم فخـذوني بها: عـليَّ ألا أجتبي شيئاً من خراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه»[3].

وعندما كان يعين ولاته على الأمصار كان يبين لهم الواجبـات التي يجب عليهم أن يقوموا بها فيقول:

(١) انظر تفصيلاً أوفى في كتاب «أخبار عمر» للطنطاويين. طبع المكتب الاسلامي - بيروت.
(٢) تاريخ عمر: ١٤٠.
(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١١٧.

«إني لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم على أشعارهم، ولا على أبشارهم، وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة ـ شؤون الدين ـ وتقضوا بينهم بالحق، وتقسموا بالعدل ـ شؤون الدنيا ـ»[1].

وكثيراً ما كان رضي الله عنه ينمي في نفوس رعيته الجرأة والصراحة في الحق، وعدم الجبن والخوف، ليكونوا رقباء على الحكام في القيام بالأمانة التي ائتمنهم الله عليها، فكان يقول للرعية:

«إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ـ ولاة ـ ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليَّ، فو الذي نفسي بيده لأقصنه. . . . فقال له عمرو بن العاص ـ وكان والي مصر آنذاك ـ:

«أرأيتك إن كان رجلاً من أمراء المسلمين على رعية، فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه منه؟

قال: أي والذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقص من نفس»[2].

وقام عمر رضي الله عنه بتنفيذ ما ذكر، فقد حدث ذات مرة أن كتب إلى عماله وولاته كلهم أن يوافوه بموسم الحج، فوافوه، فقام في الناس خطيباً فقال: «يا أيها الناس إني بعثت عمالي هؤلاء ولاة بالحق عليكم ولم أستعملهم ليصيبوا أبشاركم، ولا من دمائكم، ولا من

(١) تاريخ الطبري: ٣/٢٧٣.
(٢) الخراج لأبي يوسف ص ١١٥، الطبري: ٣/٢٧٣.

أموالكم فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم» فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد فقال: يا أمير المؤمنين عاملك ضربني مائة سوط.

قال عمر: «أتضربه مائة سوط؟ قم فاستقد منه». فقام إليه عمرو ابن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك، كبر عليهم، وكانت سنة يأخذ بها من بعدك. فقال عمر: «ألا أقيده منك وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقيد من نفسه؟ قم فاستقد منه» فقال عمرو: دعنا إذن فلنرضه. قال عمر: دونكم. فأرضوه بأن اشتريت منه بمائتي دينار، كل سوط بدينارين»[1].

وكان رضي الله عنه في كل تصرف من تصرفاته منفذاً لشرع الله عز وجل، عاملاً على تأكيد مبادىء الإسلام وترسيخها في أذهان المسلمين. فها هو رضي الله عنه يعلم المسلمين ضرورة التمسك بالشورى، بل لقد ذهب رضي الله عنه إلى قتل المتسلط: «من دعا إلى إمارة نفسه بغير مشورة المسلمين فاقتلوه»[2].

وكان ينبه إلى عدم قبول أي منصب إلا إذا كان ذلك عن استشارة ورضى من المسلمين «من دعي إلى إمارة من غير مشورة، فلا يحل له أن يقبل» و«لا خلافة إلا عن مشورة»[3].

وكان يؤكد على حقيقة أن الخليفة رجل من المسلمين لا ميزة له عليهم بسبب المنصب الذي يتولاه، فكان يقول رضي الله عنه:

«لا يحل لي في مال المسلمين سوى كسوتين للصيف وكسوة

(١)الخراج لأبي يوسف ص ١١٦.

(٢)الطبقات الكبرى: ٣/٣٤٤، تاريخ الطبري: ٣/٢٩٢. فتح الباري: ٧/٤٩.

(٣)فتح الباري: ١٢/١٢٥. كنز العمال: جـ ٥ حديث ٢٣٥٤.

للشتاء، ومعاش رجل من أوسط قريش يأخذه لعياله، وأنا بعد ذلك رجل من عامة المسلمين»[1]

أما الخليفة الراشدي الثالث عثمان رضي الله عنه فإنه ما أن بايعه المسلمون بالخلافة حتى وقف فيهم قائلاً: «. . . أما بعد فإني قد حملت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلام ثلاثاً: اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم، أي من الحدود»[2].

وفي فترة خلافته وقبل استشهاده رضي الله عنه، تعرض لأشد أنواع النقد والتجريح، وهو الخليفة، فما حاول أن يسكت أحداً بقوته أو سطوته ونفوذه، بل على العكس تماماً، كان يرد دائماً على ما يوجه إليه على مرأى من الناس ومسمعهم، ولقد ذكر ابن تيمية رحمه الله في «منهاج السنة» الكثير من المناقشات التي كانت تدور بينه وبين منتقديه، وكيف أن الحق كان بجانبه دائماً، وكان كبار الصحابة يحضرون هذه المناقشات وعلى رأسهم علي رضي الله عنه، واستمر عثمان رضي الله عنه على سنته هذه حتى قضى شهيداً على أيدي مثيري الفتنة والشغب.

كان رضي الله عنه يرفض استعمال الشدة أو القوة، ويصر على اتباع سياسة التسامح واللين إلاّ في حدود الله عز وجل، فهذه لا هوادة فيها، لأن مهمة الإمام أن يحكم بشريعة الله تعالى وينفذ حدوده، روى

---

(١) البداية والنهاية: ١٣٤/٧.

(٢) الطبري: ٤٤٦/٣.

الطبري في تاريخه (٣/ ٣٨٠ وما بعدها) إنه استدعى ولاته على عجل إلى المدينة المنورة، وأدخل معهم في المشورة بعض الولاة السابقين، وقال: ويحكم ما هذه الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا إلاّ بي. . .

فأجابه الولاة: ألم تبعث؟ ألم يرجع إليك الخبر؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً. . . وما هي إلاّ إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها. . .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: أرىٰ أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر رضي الله عنه، فأرىٰ أن تلزم طريقة صاحبيك، فتشتد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين؛ إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شرّاً، واللين لمن يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعاً اللين. . .

فقال عثمان رضي الله عنه: . . . . وقد علم الله أني لم آل الناس خيراً ولا نفسي، ووالله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها، كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها. . .

وعندما جاء الكوفيون والبصريون الناقمون إلى المدينة المنوَّرة، قال المسلمون: إقتلهم، فإن رسول الله ﷺ قال: (من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله، فاقتلوه) وقال عمر رضي الله عنه (لا أحل لكم إلاّ ما قتلتموه وأنا شريككم).

فقال عثمان رضي الله عنه: بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا، ولا

نحاد أحداً حتى يركب حدًّا أو يبدي كفراً. . . إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم، ألا إنهم زعموا أنهم يذكِّرونيها ليوجبوا عليَّ عند من لا يعلم. . .

وبدأ يعدد مقولتهم ويفندها واحدة تلو الأخرىٰ، ويقول بعد كل واحدة مخاطباً الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ومنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أكذلك؟ ويقولون: اللهم نعم. . . حتى فند جميع مفترياتهم. . . .

وبعد هذه المحاسبة أبىٰ المسلمون إلاّ قتلهم، وأبى هو رضي الله عنه إلاّ تركهم. . . .

وعندما أراد الناس بيعة علي رضي الله عنه بالخلافة قال لهم: «ليس ذلك إليكم إنما هو لأهل الشورى، وأهل بدر، فمن رضي به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة، فنجتمع وننظر في هذا الأمر»[1] وفي رواية الطبري «إن بيعتي لا تكون خفياً ولا تكون إلاّ عن رضى المسلمين»[2].

وبعد أن بويع بالخلافة وقف محدداً واجبات الخليفة والرعية قائلاً: «حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدي الأمانة، فإن فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دعوا»[3].

وفي رواية الطبري: «ألا وأن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة

---

(١)الإمامة والسياسة: ٤١/١

(٢)تاريخ الطبري: ٤٥٠/٣.

(٣)كنز العمال الجزء الخامس الحديث رقم ٢٥٣١.

نبيــه «ﷺ»، والقيـام عليكم بحقــه والتنفيـذ لسنتــه والنصــح لكم بالغيب. . . .»[1].

وعندما حضرته الوفاة سأله الناس: أنبايع ابنك الحسن؟ فرد عليهم: «لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر»[2].

وكـأني به رضي الله عنـه يريـد أن يؤكد عـلى حق الأمـة بـاختيـار الخليفة كما أكد طيلة خلافته على أن مهمة الإمام تنفيذ شرع الله والسهر على مصالح المسلمين.

في العهد الأموي:

وقف أمـير المؤمنين معـاوية يـوماً عـلى منـبره بعـد أن قـطع بعض الأعطيات المالية عن أفراد المسلمين فقـال: إسمعوا وأطيعـوا. فقام إليـه أبو مسلم الخولاني فقال: لا سمع ولا طاعة يا معاويـة، قال: ولِمَ يـا أبا مسلم؟ فقال: يا معـاوية كيف تمنـع العطاء وإنـه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك.

فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال للحاضرين: مكانكم، وغاب ساعة عن أعينهم ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال: إن أبا مسلم كلمني بكـلام أغضبني، وإني سمعت رسـول الله صـلَّى الله عليـه وآلـه وسلَّم يقـول: (الغضب من الشيطان، والشيـطان خلق من النار، وإنمـا تـطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحد فليغتسل) وإني دخلت فـاغتسلت، وصدق

(١)الطبري: ٣/٥٥٠.

(٢)الطبري، ٤:١١٢، مروج الذهب ٢/٤٢.

أبو مسلم إنه ليس من كدي ولا من كد أبي فهلموا إلى عطائكم[1].

إنها مطالبة الحاكم أن يعود إلى أمر الله حين يحيد عنه، والجهر بكلمة الحق ومحاسبة المسؤول أياً كان.

لما مات يزيد بن معاوية، استخلف ولده معاوية الثاني وهو يومئذ ابن ثماني عشرة سنة، فلبث والياً شهرين وليالي محجوباً لا يرى، ثم خرج بعد ذلك فجمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني نظرت بعدكم فيما صار إلي من أمركم، وقلدته من ولايتكم، فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير مني، وأحقهم بذلك وأقوى على ما قلدته، فاختاروا مني إحدى خصلتين: إما إن أخرج منها وأستخلف عليكم من أراه رضى ومقنعاً، ولكم الله عليّ أن لا آلوكم نصحاً في الدين والدنيا، وإما تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها.

فأنف الناس من قوله وأبوا ذلك، وخافت بنو أمية أن تزول الخلافة منهم، فقالوا:

نحن ننظر في ذلك يا أمير المؤمنين ونستخير الله فأمهلنا.

قال معاوية: لكم ذلك وعجلوا عليّ.

فلم يلبثوا بعدها أياماً حتى طعن، فدخلوا عليه فقالوا: إستخلف على الناس من تراه لنا رضى.

فقال لهم: عند الموت تريدون ذلك؟ لا والله لا أتزودها، ما

---

(١)إحياء علوم الدين للغزالي ٢/٢٣٦، والحادثة والحديث رواهما أبو نعيم في الحلية.

سعدت بحلاوتها فكيف أشقى بمرارتها.

لو جاز لنا أن نستخدم تعابير ومصطلحات القرن العشرين لقلنا: لقد استقال من منصبه لأن في المسلمين من هو خير منه ولا يريد أن يلقى الله عز وجل وهو ظالم لنفسه أو لغيره، لأن الأمر دين وسيحاسب عليه: «. . . . وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلّا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[1].

أما عمر بن عبد العزيز رحمه الله فهو أشهر من أن يعرف في سلوكه وسياسته، حيث كان الدين هو أساسها وموجهها لأنه كان يعرف أن هذا الدين لا يمكن تصوره إذا كان فارغاً من توجيه المجتمع وسياسة الدولة.

فها هو ابن عبد الحكم يروي في السيرة التي كتبها لعمر بن عبد العزيز فيقول: (لما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز. . . . احتجب عن الناس ثلاثاً لا يدخل عليه أحد، ووجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجنود والعرب والقواد ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه، فجلس للناس بعد ثلاث وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها، فرد المظالم وأحيى الكتاب والسنة، وسار بالعدل، ورفض الدنيا وزهد فيها، وتجرد لإحياء أمر الله عز وجل، فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله عز وجل فرحمه الله).

«وها هو يجلس مهموماً مغموماً حزيناً مكتئباً بعد بيعة الناس له، ويدخل عليه مولاه فيسأله:

(١)صحيح مسلم: كتاب الإمارة، وانظر مسلم بشرح النووي: ٤/ ٤٨٩.

يا أمير المؤمنين كأنك مهتم؟ فيجيب عمر: لمثل الأمر الذي نزل بي اهتممت. . . لأنه ليس من أمة محمد أحد من مشرق أو مغرب إلا له قبلي حق يحق علي أداؤه غير كاتب إلي فيه ولا طالبه مني. . . »[1].

وتدنو منه زوجته فاطمة بنت عبد الملك وتسأله: يا أمير المؤمنين لشيء ما كان منك الليلة ما كان ـ وذلك عندما لاحظت كآبته وهمه وحزنه ـ فيجيبها: أجل فدعيني وشأني وعليك بشأنك. فتقول له: أرجو أن أتعظ.

فيجيبها: إذن أخبرك، إني نظرت إلى نفسي فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة: صغيرها وكبيرها وأسودها وأحمرها، ثم ذكرت الغريب الضائع، والفقير المحتاج، والأسير المفقود وأشباههم في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سائلي عنهم وأن محمداً صلَّى الله عليه وآله وسلَّم حجيجي فيهم، فخفت ألا يثبت لي عند الله عذر، ولا يقوم لي مع رسول الله «ﷺ» حجة، فخفت على نفسي خوفاً دمعت له عيني، ووجل له قلبي، وأنا كلما ازددت لذلك ذكراً، ازددت منه وجلاً، وقد أخبرتك فاتعظي الآن أو دعي».

ووقف ليعلن في أول خطبة له أمام الناس جميعاً: (. . . ألا إني لست بخيركم ولكني رجل منكم غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً. . .) فالخلافة تكليف ومسؤولية وأمانة وخلافة عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لتنفيذ شرع الله وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وليست

---

(١)أنظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، حلية الأولياء للأصفهاني، تهذيب الأسماء واللغات للنووي، العقد الفريد ١/٣٩، نهاية الأرب ٦/٣٧.

تشريفاً وتسلطاً على رقاب عباد الله عز وجل لاستذلالهم كما يحدث في النظم الوضعية كلها دون استثناء. . . .

وها هو رضي الله عنه يكتب إلى الحسن البصري إمام التابعين بعد أن أصبح خليفة للمسلمين يطلب منه أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل. ويجيبه الحسن رحمه الله قائلاً:

إعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف. . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق يرتاد لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته. . .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم ويمون كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، وهو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. . .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده

واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله. . .

واعلم أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟

واذكر يا أمير المؤمنين: الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك ويسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. . . .

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك. . .

لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله عز وجل في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيُّوم. . . .

وكتب إليه أيضاً:

يا أمير المؤمنين إن استقمت استقاموا، وإن ملت مالوا، يا أمير المؤمنين لو أن لك عمر نوح، وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان ما كان لك بد من أن تقتحم العقبة، ومن وراء العقبة؛ الجنة والنار، من أخطأته هذه دخل هذه. . . .

فلما أتى الكتاب عمر رضي الله عنه وضعه على عينيه وبكى وقال: من لي بعمر نوح وسلطان سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان؟ ولو نلت ذلك لم يكن بد من أن أشرب بكأس الأولين. . .

من هنا جاء عمر الخلافة ليعدل ويصلح ويغني الناس، جاء ليسهر على تنفيذ شرع الله عز وجل على نفسه وخاصته وآل بيته وذوي قرباه وعلى الناس جميعاً. . .

جاءه رجل من أهل المدينة المنوَّرة، فجعل عمر يسأله عن أهلها حتى قال له: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ فقال: قد قاموا منه يا أمير المؤمنين وأغناهم الله. وكان هؤلاء المساكين يبيعون ما سقط من ورق الشجر للمسافرين ليتمكنوا من سد جوعتهم، فلما أصبح عمر خليفة أغناهم. . . يظهر ذلك واضحاً من قولهم لمن التمس منهم أن يبيعوه: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر.

وكتب إلى عامله على الكوفة يقول: كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط كل من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوج فلم يقدر على نقد ـ المهر ـ .

وكان يكتب إلى ولاته قائلاً:

لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته. . .

وقال يحيى بن سعيد: بعثني عمر على صدقات أفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً، ولم نجد من

يأخذها. . . قد أغنى عمر الناس، فاشتريت رقاباً فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين. . .

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً فذلك ثلاثون شهراً فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون من الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجد، فيرجع بماله قد أغنى الله على يد عمر الناس.

ولقد حدد رضي الله عنه سياسته في كلمات محددة واضحة صاغها مخاطباً بها رعيته: أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة؛ ألا إني لست بقاض، وإنما أنا منفذ شرع الله، ولست بمبتدع ولكني متبع. . . إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً. فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص.

وكان أول عمل قام به بعد أن انتهى من دفن الخليفة قبله سليمان ابن عبد الملك أن أمر منادياً ينادي في الناس: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها. . .

وجاء الناس بمظالمهم، وجعل عمر رضي الله عنه لايدع شيئاً مما كان في يد سليمان أو في يد أهل بيته من المظالم إلا رده، مظلمة مظلمة. . .

وكتب إلى عماله: أن أجروا على طلبة العلم الرزق وفرغوهم للطلب لا يشغلهم شاغل عنه. وكتب إليهم أيضاً: أن فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع المال.

وعندما كتب إليه والي الموصل من قبله يعلمه حال الولاية وكثرة السرقة والنقب فيها ويسأله أن يأخذ الناس بالشبهة أو أن يضربهم على التهمة أو يأخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة؟

أجابه عمر رضي الله عنه قائلاً: خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله عز وجل.

ويقول الوالي: ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت أصلح البلاد وأقلها سرقاً ونقباً.

ولقد اتسع رفقه رحمه الله وشعوره بالمسؤولية حتى شمل الحيوان الأعجم، لقد كان له غلام يشتغل على بغل له، وكان الغلام يأتيه كل يوم بدرهم ونصف أجراً للبغل، وذات يوم جاءه بثلاثة دراهم فقال له عمر: ما بدا لك؟ فقال الغلام: لقد نفقت السوق. قال عمر: لا ولكنك أتعبت البغل فأرحه ثلاثة أيام...

ومنع الناس أن يشدوا اللجم على الخيل شداً مؤلماً؛ ولقد كتب إلى والي مصر: بلغني أن بمصر إبلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل.

لقد كان يشعر أن هذا الأمر دين وهو مسؤول عنه أمام الله عز وجل، وبهذا الشعور كان يتحرك لذلك قال فيه أبو نعيم الأصفهاني في

حلية الأولياء: وكان واحد أمته في الفضل، ونجيب عشيرته في العدل، جمع زهداً وعفافاً، وورعاً وكفافاً، شغله آجل العيش عن عاجله، وألهاه إقامة العدل عن عاذله، كان للرعية أمناً وأماناً وعلى من خالفه حجة وبرهاناً. . .

أما النووي فقال فيه: وأجمعوا على جلالته وفضله، ووفور علمه وصلاحه، وزهده وورعه، وعدله وشفقته على المسلمين وحسن سيرته فيهم وبذل وسعه في الاجتهاد في طاعة الله، وحرصه على اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاقتداء بسنته وسنة الخلفاء الراشدين. . . وهو أحدهم ومناقبه أكثر من أن تحصر. . .

وفي السيرة التي كتبها عنه ابن عبد الحكم الكثير من الأخبار التي تؤكد ارتباط سياسة الدولة بالدين، وأن مهمة الخليفة إحقاق الحق وإبطال الباطل بإقامة شرع الله عز وجل والسهر على تنفيذ أحكام دينه. . .

في العهد العباسي:

قال الإمام سفيان الثوري رحمه الله: لما حجّ أبو جعفر المنصور [1] قال: لا بد لي من سفيان؛ فوضعوا لي الرصد حول البيت فأخذوني بالليل، فلما مثلت بين يديه أدناني ثم قال: لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا، فما أمرتنا من شيء صرنا إليه، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه.

(١)أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الذي اتخذ علي عبد الرازق وأشباهه من كلمة رواها صاحب العقد الفريد على لسانه (إنما أنا سلطان الله في أرضه) ذريعة ليقول: إنهم ـ المسلمين ـ جعلوا الخليفة ظل الله تعالى. فأين ظل الله هنا بمفهومه الكهنوتي؟

فقلت لـه: كم أنفقت في سفـرك هـذا؟ قـال: لا أدري لي أمنـاء ووكلاء.

قلت: فما عذرك غـداً إذا وقفت بين يـدي الله تعالى فسـألك عن ذلـك؟ لكن عمر بن الخـطاب رضي الله عنه لما حج قـال لغلامـه: كم أنفقت في سفرنا هذا؟ فقال الغلام: يا أمير المؤمنين ثـمانية عشر دينـاراً. فقال عمر: ويحك أجحفنا بيت مال المسلمين؛ وقد علمت ما حـدثنا بـه منصور بن عمار وأنت حـاضر ذلك عن إبـراهيم عن الأسود عن علقمـة عن ابن مسعود أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قـال: «رب متخوض في مـال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غداً».

فيقـول أبو عبيـد الكاتب أحـد مـتزلفي الحـاشيـة: أمـير المؤمنـين يستقبل بمثل هذا؟ فيجيبه سفيـان رحمه الله: اسكت إنمـا أهلك فرعـون هامان وهامان فرعون.[1]

ويروي ربيع بن يونس حاجب الخليفة المنصور، أن المنصور دعـا الإمام مالكاً وابن أبي ذئب والإمام أبا حنيفة وقال لهم:

كيف تـرون هذا الأمـر الذي خـولني الله تعالى فيـه من أمر هـذه الأمة، هل أنا لذلك أهل؟

فقال ابن أبي ذئب:

... وأن الخـلافة تكـون بإجماع أهل التقـوى لمن وليهـا، وأنت وأعوانك خارجون عن التوفيق، عادلون عن الحق، فإن سألت الله تعالى السلامة وتقربت إليه بالأعمال الزاكية كان ذلك وإلا فأنت المطلوب.

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وانظر سراج الملوك: ٥١.

وقال أبو حنيفة:

إن أنت نصحت نفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا، فإنما أردت أن تعلم العامة أنا نقول فيك ما تهواه مخافة منك. . . ولقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك اثنان من أهل التقوى، والخلافة تكون باجتماع المؤمنين ومشورتهم. . . [1]

في العهد العثماني:

حضر السلطان بايزيد إلى المحكمة بين يدي شمس الدين محمد حمزة الفناري قاضي القسطنطينية ليشهد في قضية رفعت إليه، فما كان من قاضي القسطنطينية إلا أن رد شهادة السلطان ولم يقبلها.

ولما سأل السلطان عن وجه ردها؛ جاءه الجواب الحاسم من القاضي المؤمن: إنك تارك للصلاة مع الجماعة، أرأيتم ما طعن في صحة شهادة السلطان: إنك تارك للصلاة مع الجماعة. وكان جواب السلطان أن بنى جامعاً في الحال أمام قصره، وعينّ لنفسه موضعاً فيه ولم يترك صلاة الجماعة بعد ذلك.

ومثل هذه الحادثة، يؤكد لنا ويبين الترابط المتين والصلة الوثقى بين أنظمة الإسلام جميعاً باعتبارها كلاًّ لا يتجزأ، ولم يقل أحد في مثل هذا الموقف: هذا سلطان وتلك صلاة وذلك قضاء فما العلاقة بينها؟[2].

(١)مناقب الإمام الأعظم للكردري: ٢/١٥ وما بعدها.
(٢)انظر المنهزمون: ٩٥ وما بعدها.

من هنا إذن نستطيع القول: إن الدين عندنا وسيلة لضبط شؤون الحكم وتوجيه الحكام والمحكومين على حد سواء، وإنه السند للحكم الصالح خاصة بعد أن عرفنا بالدليل من كتاب الله وسنة نبيه ﴿ﷺ﴾ أنه يقيم شؤون الدنيا كلها على أساس من تعاليمه لأنه منهج حياة اختاره الله عز وجل للبشرية جمعاء ليحقق خيرها وسعادتها، ويرسي قواعد إنسانيتها فضلاً عن كونه عقيدة وعبادة تعبد الله عز وجل الناس بها **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**(١)



(١) آل عمران: ٨٥.

الفصل الثاني

عند الأوروبيين

الفرع الأول: الكنيسة في العصور الوسطى

تمهيد

لم تكن النصرانية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة قضايا الإنسان بحيث تقوم عليها حضارة، أو تسير في ضوئها دولة. . . فقد نشأت في ظل الامبراطورية الرومانية المشهورة بقوانينها، والتي لا تزال حتى الآن من أهم المصادر التشريعية الاوروبية الحديثة، وكان ذلك في وقت تحجرت فيه الديانة اليهودية واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها، ومظاهر خاوية لا روح فيها، وتعرضت النصرانية لعداء اليهود من أول لحظة جهر فيها المسيح عليه الصلاة والسلام بدعوته التي جاءت لتقضي على انحرافات بني إسرائيل وتردهم إلى الدين الحق (إنما أرسلت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة) وكما يحدد ذلك القرآن الكريم﴿. . . **ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعونِ**﴾[1]

وبدأت مقاومتهم للمسيح عليه الصلاة والسلام، ومقاومة دعوته إلى السماحة والسلام والتطهر الروحي والتخفف من المراسم الشكلية

---

(١)آل عمران: ٥٠.

التي لا رصيد لها من تقوى القلوب... وتمكنوا من إغراء الحاكم الروماني على بيت المقدس (بيلاطس) آنذاك بمحاولة قتل المسيح وصلبه لولا أن رفعه الله عز وجل إليه **﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا...﴾**(1)

وكان من نتيجة ذلك: حقد شديد وعداوة دائمة بين اليهود والنصارى أدت فيما بعد إلى انفصال كامل بين اليهودية كما صاغها أحبار بني إسرائيل وبين النصرانية كما صاغتها الكنيسة والمجامع المقدسة. وانفصل كتاب النصارى (العهد الجديد) عن كتاب اليهود (العهد القديم) وبهذا الانفصام لم يعد للنصرانية شريعة مفصلة تنظم الحياة وواقع الناس.

أسباب تحريف النصرانية:

ولقد كان بإمكان النصرانية لو بقي تصورها الاعتقادي سليماً كما جاء به المسيح عليه الصلاة والسلام (2) أن تقدم التفسير الصحيح للوجود الإنساني في هذا الكون والغاية من هذا الوجود، هذا التفسير الذي يمكن أن يكون كفيلاً برد النصارى إلى شريعة الله التي تضمنتها التوراة مع التعديلات التي جاء بها عيسى عليه الصلاة والسلام، غير أن

---

(1)آل عمران: ٥٥.

(2)يقول المؤرخ هـ. ج. ويلز: إن الأصول التي تتكون منها العقيدة النصرانية لا تجد لها سنداً حتى في الإنجيل نفسه. ونستطيع أن نضرب مثلاً لذلك ببنوة المسيح عليه الصلاة والسلام لله عز وجل حيث نجد دائرة المعارف البريطانية تقول: إن سيدنا عيسى عليه السلام لم تصدر عنه أي دعوى تفيد أنه من عنصر إلهي، أو من عنصر أعلى من العنصر الإنساني المشترك. انظر معالم تاريخ الإنسانية ٧٠٥/٣، دائرة المعارف البريطانية ٦٣٢/٥.

مجيء بولس أو شاؤول الطرسوسي [1] والذي يعده الكثير من الثقات العصريين على حد تعبير هـ. ج. ويلز، المؤسس الحقيقي للنصرانية الحالية، كان كافياً لطمس نورها وتطعيمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها والوثنية التي نشأ عليها «حتى أصبح من العسير على الباحث المنصف أن يجد، فيما عدا فقرات تدور حولها المنازعات، كلمات تنسب فعلاً، إلى يسوع فسر فيها الكفارة والفداء أو حض فيها أتباعه على تقديم القرابين، أو تناول سر مقدس، وهذه الأمور هي الأساسية الآن في النصرانية وهي وظيفة الكهنوت» هذا ومن المقطوع به أن المراسيم والطقوس الكنسية المعمول بها الآن لم يمارسها عيسى عليه السلام ولم يأمر بها [2].

فكيف إذا عرفنا أن النصرانية في عهدها الأول وقبل بولس تعرضت لعهد طويل من الاضطهاد الفظيع على يد اليهود المنكرين لنبوة

---

(١) شاؤول اسمه اليهودي، وبولس اسمه الروماني، كان متبحراً في لاهوتيات الإسكندرية الهللينية وكانت لغته الإغريقية، وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهللينستية وبأساليب الروائيين، كان صاحب نظرية دينية يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل وهو لم يره قط، ولا بد أنه استقى معرفته به وبتعاليمه سماعاً عن تلاميذه الأصليين وهو الذي أدخل فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قرباناً لله كفارة عن الخطيئة أخذاً من الديانات القديمة، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلباً لاسترضاء الآلهة، وقد أدخل هذه الفكرة في صرح نظام لاهوتي. انظر معالم تاريخ الإنسانية ٣/٧٠٥ وما بعدها.

وكتب بولس رسائله بعد ذلك ـ بعد القرن الأول الميلادي ـ وهي شاهدة على امتزاج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ـ لاسيما فلسفة الحلول ـ وكان يقول إن المسيح جالس على يمين الله، ويدعو لمن يطلب لهم الخير أن تسكن فيهم كلمته، ويسأل لهم الغفران منه، ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض، ويبدو من جملة كلامه أنه كان ينتظر معاده في زمن قريب، وكثيراً ما أشار إليه ـ إلى عيسى ـ باسم: ربنا يسوع المسيح، وسمى نفسه رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله مخلصاً وربنا يسوع المسيح» كتاب (الله) لعباس العقاد ١٦٩.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية ٣/٦٩٢، دائرة المعارف البريطانية ٥/٦٣٧ طبعة عام ١٩٥٣م.

عيسى عليه الصلاة والسلام ولديانته، والرومان الوثنيين حكام وطن المسيح عليه الصلاة والسلام، هذا الاضطهاد الذي اضطر أتباعه إلى التخفي والعمل والتنقل سراً، واضطرهم كذلك إلى تناقل نصوص الإنجيل الذي أنزله الله عز وجل على عيسى عليه الصلاة والسلام في ثنايا روايات عن حياته وأعماله، يختلف بعضها عن بعض فيما سمي بعد ذلك بالإنجيل، والتي لا يوجد سند تاريخي متصل يربطها والإنجيل الذي أنزله الله عز وجل على عيسى عليه الصلاة والسلام والتي كتب أقدمها بعد المسيح بجيل كامل، وهناك خلاف كبير بين مؤرخي النصرانية في تحديد تاريخ كتابة الأناجيل، وكذلك اللغة التي كتبت بها، وهذا أمر طبيعي لأن الفترة التي تم تناقل الروايات فيها لم تكن لتسمح بتمحيص هذه الروايات ولا بتواترها[1]. وفي ذلك يقول اللورد هدلي: «ليس الإنجيل إلا مجموعة كتب كتبت في أوقات متباعدة عن بعضها» وجاء في دائرة المعارف البريطانية ما نصه: «لم يبق من أعمال السيد المسيح شيء ولا كلمة واحدة مكتوبة»[2].

---

(١)انظر موريس بوكاي (دراسة الكتب المقدسة) ٧٥ وما بعدها.

(٢)ولعل من الخير أن نذكر هنا ملخصاً للآراء التي استشهد بها العلامة أحمد غلوش عند دراسته للإنجيل في كتابه (دين الإسلام) من صفحة ١٥٨ إلى صفحة ١٦٨، وهي لعلماء من النصارى الغيورين على نصرانيتهم:

- سبقت الأناجيل الأربعة الموجودة الآن محاولات عديدة، وكانت هنالك قبل هذه الأربعة عدة أناجيل.

- نسبة الأناجيل الأربعة الموجودة الآن إلى كاتبيها المعروفين نسبة مشكوك فيها الآن، ولم تثبت صحتها حتى الآن، وما زالت مصدر أخذ ورد.

- هذه الأناجيل الأربعة ألفت تأليفاً ولم تصدر عن وحي.

- يختلف إنجيل يوحنا عن الأناجيل الثلاثة الأخرى اختلافاً شديداً واضحاً.

- الأناجيل الثلاثة الأخرى تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً أيضاً وإن كان أقل بالقياس إلى إنجيل يوحنا.

=

وجاءت الكارثة العظمى على النصرانية بعد ذلك فيما تم على يد قسطنطين[1] الامبراطور الروماني، وبما يعرف عادة في كتب التاريخ بظاهرة انتصار النصرانية، حيث دخل هذا الأمبراطور في النصرانية واستطاع الحزب النصراني أن يصبح هو الحزب الحاكم في الأمبراطورية عام ٣٥٥م.

وما ذلك إلا لأن هذا الأمبراطور قضى بإظهاره النصرانية على البقية الباقية منها حتى أصبحت النصرانية بعد ذلك بفعل العوامل السالفة (الاضطهاد - بولس - قسطنطين) مزيجاً من الخرافات اليونانية، والوثنية الرومانية، والأفلاطونية المصرية، والرهبانية اضمحلت في جانبها تعاليم السيد المسيح عليه الصلاة والسلام البسيطة، بل أصبحت كما يقول الندوي بزيادات المحرفين وتأويل الجاهلين على تعاقب العصور: ديانة وثنية.

ويصف درابر الأمريكي هذه الفترة وآثارها فيما ينقله عنه الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم» فيقول: دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة

= انظر موريس بوكاي «دراسة الكتب المقدسة» ٨٩ وما بعدها، «الجبوة المفتعلة بين الدين والعلم» لمحمد علي يوسف ١٣ وما بعدها.

(١)ومن الضروري أن نستلفت نظر القارىء إلى الفروق العميقة بين مسيحية نيفية هذه التامة التطور (المسيحية الرسمية على عهد قسطنطين) وبين تعاليم يسوع الناصري... تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين، وهي لم تكن كهنوتية ولم يكن لها معبد مقدس حبساً عليها ولا هيكل، ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس وكان رأس مالها هو الموعظة...

أما المسيحية الرسمية فقد كانت في صلبها ديانة كهنوتية، المذبح مركز طقوسها المنمقة، والقربان يقربه قسيس متكرس للقداس العمل الجوهري في العبادة فيها، ولها هيئة كهنوتية تتطور بسرعة مكونة من الشامسة والقساوسة والأساقفة.. «معالم تاريخ الإنسانية ٣/٧٢٠».

الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الـدين، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام، وكذلك كـان قسطنـطين الذي قضى عمـره في الظلم والفجور. . . وإن هذا الامبراطور الذي كان عبداً للدنيا والـذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً رأى لمصلحته الشخصية أن يوحدهمـا ويؤلف بينهما (النصارى والوثنيين) حتى إن النصـارى الراسخـين أيضاً لم ينكـروا عليه هذه الخطة، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانـة الجديـدة ستزدهـر، إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمـة، ونشأ من ذلـك دين جديـد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء. . .[1].

غير أن الأمر لم يقف عند فساد التصور الاعتقادي بـل لقد أرادت الكنيسة أن تقف في وجه الترف الروماني والسعار الشهواني الذي كـانت الامبراطورية الرومـانية قـد انتهت إليه قبـل دخولهـا النصرانية، لكنهـا لم تسلك إلى ذلـك طريق الفـطرة السويـة المعتدلـة، بل وقفت عـلى الجهة المقابلة لهذا فابتدعت الرهبانية، ﴿**ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم**﴾[2] وأصبـح الحرمـان من طيبات الحيـاة وكبت الفطرة التي خلق الله النـاس عليها هو عنوان الكمال والتقوى والفضيلة. . .

وهكذا نشأ صراع بين الطرفين الجامحين، وكلاهما بعيد عن الجادة والفـطرة وفي ذلك يقـول ليكي فيما نقله عنـه الندوي: «كانت الدنيـا في ذلك الحين تتأرجح بين الرهبـانية القصـوى والفجور الأقصى، وأن المـدن التي ظهـر فيهـا أكـثر الـزهـاد كـانت أسبـق المـدن في الخـلاعـة والفجور. . .»[3]

(١)ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨١ وما بعدها.

(٢)سورة الحديد: ٢٧.

(٣)ماذا خسر العالم ص ١٨٢.

وكان من نتيجة هذا أن انتشر الفسق والفجور والخلاعة بين رجال الكهنوت أنفسهم الذين استحلوا ما حرموا على غيرهم «إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً... ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم»[1].

ومن الأمثلة التي يمكن أن نأتي بها للتدليل على فساد البابوات ورجال الكهنوت أنفسهم: البابا اسكندر السادس الذي اتخذ له عشيقة موفورة الجمال صغيرة السن جداً اغتصبها من خطيبها وهي: جيليافارنيس، واحتفظ بها بعد ارتقائه كرسي البابوية وضحى في سبيلها بكل مرتخص وغال... ويروى عنه أنه كان ذا ولع شديد بالفتيات الفاتنات، مما دعا راهباً نصرانياً وهو «سافونا رولا» إلى أن يكتب عنه قائلاً: (أقسم لكم أن هذا الرجل ليس بابا، وأؤكد أنه ليس نصرانياً ولا يعتقد بوجود الله ...) وكان إذا زار مدينة في رحلاته التي يقوم بها اتخذت الترتيبات لإحضار مجموعة من أجمل فتيات المدينة ليقمن بعرض راقص بملابس فاضحة، أمامه...

ولقد استخدمت ابنته لوكريس بورجيا جمالها في تسخير الرجال لتدبير المؤامرات والاغتيالات السياسية، وتزوجت ثلاث مرات...[2].

ويقول درابر في كتابه (الصراع بين الدين والعلم)[3]: وتسرب الضعف والانحراف بسبب الرهبانية والنظام الديني السلبي المصادم

(١)ماذا خسر العالم نقلاً عن الراهب جيروم ص ١٨٢ وما بعدها.
(٢)انظر كتاب أوروبا في مطلع العصور الحديثة للدكتور الشناوي ١٦٧/١.
(٣)ماذا خسر العالم ص ١٨١.

للفطرة إلى المراكز الدينية حتى صارت تزاحم المراكز الدنيوية وربما تسبقها في فساد الأخلاق والدعارة والفجور. . .

الصراع بين البابوية والأباطرة:

وكانت الكنيسة الغربية قد اختطت لنفسها بعد الانشقاق الذي حدث بين الشرق والغرب ـ الأرثوذكس والكاثوليك ـ خطة جمع شمل النصارى وتركيز إدارتها تحت زعامة البابوية لأن هذا يحقق لها رغبتها في السمو والتعالي والسيطرة، وخاصة أنها منذ البداية كانت قد اقتبست عن قسطنطين الكبير كما يقول ويلز: الميل للاستبداد وعدم الخضوع للمسؤولية، أو إنشاء هيئة تقوم على المركزية وتعيش على غرار الإمبراطورية وإلى جوارها. . .[1].

وكان البابا يعتبر نفسه خليفة القديس بطرس، ونائباً عن السيد المسيح عليه الصلاة والسلام ويستمد سلطته من تعيين المسيح له مباشرة.

ولقد نشأ عن هذه الرغبة في السمو والتسلط صراع بين البابوات والأباطرة استخدم فيه البابوات وخاصة جريجوري السابع أعظم بابوات العصور الوسطى (١٠٧٣-١٠٨٥) توقيع عقوبة الحرمان ضد الأفراد وضد الجماعات.

ولقد انتهى هذا الصراع على التسلط والاستبداد لصالح البابوية حيث تقدم هنري الرابع الإمبراطور في سنة ١٠٧٧ نحو البلاط البابوي

---

(١)معالم تاريخ الإنسانية ٧٢٢/٣ وما بعدها.

في قلعة كانوسا، ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد أن تشفع له الرجال، فسمح له بالمثول بين يديه فدخل حافياً لابساً الصوف معلناً توبته على يدي البابا، فغفر له زلته وكانت الحرب بين البابوية والأباطرة سجالاً بعد ذلك حتى ضعفت البابوية في النهاية[1]. . . وما دام الصراع على النفوذ، فقد رأى الطرفان أن من مصلحتيهما أن يتفقا معاً بدلاً من أن يتصارعا، وذلك لتسخير الجماهير، وتم ذلك فعلاً وأصبح الناس في أوروبا بعد ذلك ينظرون إلى الدين باعتباره مخدراً للشعوب وحليفاً للاستبداد والمستبدين.

وفي الفترات التي كانت البابوية تتسلط فيها كانت تقوم بأعمال يندى لها الجبين، ففي عهد البابا أنوسنت الثالث ١١٩٨-١٢١٦م: «كان يؤذن لكل زنيم نذل أو متشرد أثيم أن يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر، ويرتكب كل ما يمكن تصوره من أنواع انتهاك الحرمات. . والقصص التي تروى عن عهده تحكي لنا من أضرب القساوة والنكال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته أي اضطهاد للنصارى على أيدي الوثنيين. . .»[2].

ولقد استغلت البابوية سلطانها لتفرض الأتاوات المالية الباهظة التي تجبى إليها مباشرة مما جعل الناس يئنون تحت هذا الإرهاق، وقام الحكام الساخطون فاستغلوا هذا ليثيروا سخطاً عاماً على الكنيسة مستخدمين في سبيل ذلك كل وسيلة من فضح لرجال الدين وبيان خبايا

(١)أوربا في العصور الوسطى: سعيد عاشور ٢/٣١٨ وما بعدها.
(٢)معالم في تاريخ الإنسانية ٣/٨٠١ وما بعدها.

حياتهم الشخصية، إلى الكشف عن أقذارهم وأدناسهم التي يخفونها وراء وقار الزي الكهنوتي والمراسم الكنسية. . . .[1].

الصراع بين الكنيسة والعلم: [2]

ولكي تحتفظ الكنيسة بسيطرتها على الأتباع، احتجزت لنفسها حق فهم وتفسير الكتاب المقدس، وحظرت على أي عقل من خارج الكهنوت أن يحاول فهمه وتفسيره، ثم أتبعت هذا بإدخال معميات في الشعائر التعبدية، والمثال الصارخ لها هو مسألة العشاء الرباني، وهي مسألة مستحدثة ما جاء بها الكتاب المقدس، وما تعرض لها النصارى الأولون، ولا المجامع المقدسة الأولى وتقوم على ما يلي:

(النصارى يأكلون في الفصح خبزاً ويشربون خمراً، ويسمون ذلك: العشاء الرباني، وقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح عليه السلام وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلهما وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه).

ولقد فرضت الكنيسة على الناس قبول هذا الزعم، ومنعتهم من مناقشته وإلا عرضوا أنفسهم للطرد والحرمان[3].

---

(١) المستقبل لهذا الدين ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) كانت البلاد النصرانية في فترة القرون الوسطى في ركود وتزمت مطلق حيث توقف البحث العلمي على أيدي هؤلاء الذين كانوا يدعون أنهم خدام التوراة والإنجيل. . . وبعد عصر النهضة في أوربا كان رد الفعل الطبيعي أن يأخذ العلماء بثأرهم من منافس الأمس ـ الكنيسة ـ وهذا الثأر مستمر حتى اليوم لدرجة أن التحدث عن الله في الأوساط العلمية في الغرب يعتبر علامة على الغربة في التفرد. . . انظر موريس بوكاي: الكتب المقدسة في ضوء العلم ١٤٠ وما بعدها.

(٣) للاستزادة انظر «محاضرات في النصرانية» للشيخ «محمد أبو زهرة» رحمه الله.

ولم يقتصر الأمر على الشؤون الدينية وحدها، بل أتبعتها بأمثالها في الكون والحياة، فادعت آراء ونظريات جغرافية وتاريخية وفلكية وطبيعية مما كان سائداً في عصرها وجعلتها مقدسة لا تجوز مناقشتها ولا تصحيحها ولا تجربتها ولا القول بسواها وما ذلك إلا لأن الشيوخ الحصفاء المولعين بالأبهة[1] كانوا يضيقون ذرعاً بأية معرفة عدا معرفتهم، ولا يثقون بأي فكر لمن يصححوه ويراقبوه، فنصبوا أنفسهم للحد من العلم الذي كانت غيرتهم منه بادية للعيان، وكان أي نشاط عقلي عدا نشاطهم يعد في نظرهم نشاطاً وقحاً مرفوضاً، وفي ذلك تقول دائرة المعارف البريطانية (٥/٦٣٦): إن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية رفضت أي نتيجة خالف العلم فيها الإنجيل.

تم هذا في الوقت الذي انفجر فيه بركان العقلية في أوروبا، وبدأ علماء الطبيعة والعلوم الأخرى يحطمون سلاسل التقليد الكنسي، فخاضت الكنيسة معهم معركة حامية الوطيس، ملتهبة الأوار مدارها: مسألة موضع الأرض من الفضاء، وهل هي تدور حول الشمس ام لا تدور؟

وتمكن العلماء من تزييف نظريات الكنيسة في هذا المجال، وارتفعت أصواتهم بانتقادها وبيان زيفها في صراحة وصرامة مما أدى إلى قيام حركة تنكيل بشع واضطهاد شديد على يد محاكم التفتيش التي

(١) تعبير استخدمه ويلز ليصف به البابوات ورجال الكهنوت ٩٠٨/٣. ويقول الكونت دنيوي في كتابه «مصير البشرية»: ١٩٦ وما بعدها: إن ما أضافه الإنسان إلى الديانة المسيحية، والتفسيرات التي قدمها والتي ابتدأت منذ القرن الثالث بالإضافة إلى عدم الإكتراث بالحقائق العلمية، كل ذلك قدم للماديين الملحدين أقوى الدلائل المعاضدة في كفاحهم ضد الدين.

أنشأتها الكنيسة لمعاقبة الخارجين على سلطانها والمخالفين لما تقوله (لمعاقبة أولئك الملحدين والزنادقة على حد تعبير البابا). وفي هـذا يقول مـوريس بوكاي: «ففي الوسط النصراني وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسؤولة بمعارضة تطور العلوم، واتخذت هذه السلطات ضد العلماء الـذين كانـوا يحاولون تـطوير العلوم الإجـراءات التي نعرفهـا، تلك التي دفعت بعض العلماء إلى المنفى تـلافيـاً للمـوت حـرقـاً أو إلى طلب المغفـرة بتعـديـل مواقفهم وبالتماس العفو؛ وفي هذا المجال تذكر دائماً قضية جاليليو الذي حوكم لأنه استـأنف مكتشفات كـوبرنيكـوس الخاصـة بدوران الأرض، ولقد أدين جاليليو بسبب تفسير خـاطئ للتوراة لأنـه ليس هناك أي نص مقدس يمكن الاستشهاد به بشكل له قيمة ضد جاليليو.»(١)

ولم يسلم من هـذه الاضطهـادات حتى رجال الكهنـوت أنفسهم، وما ذلك إلاّ لمنع ظهور أية فكرة تـدعو لإصـلاح الكنيسة والعـودة بها إلى رشـدها، بـل إن بعض هؤلاء لم يسلم من اضطهـاد الكنيسـة حتى بعـد موته.

فبمقتضى قرار صادر من مجمـع كونستـانس عام ١٤١٥م. نبشت عـظام القديس «ويكليف» الـذي كان قـد توفي عـام ١٣٨٤م، على يـد الأسقف «فلمنج» عام ١٤٢٨، وبـأمر من البابا «مارتن الخـامس» وتم بعد ذلك حرقها، لأنه كان في حياته قـد وجه سلسلة من النقـد الصريح إلى مـا عليه رجـال الدين من مفـاسـد، ومـا عليـه الكنيسـة من حمـاقـة وتعصب...(٢).

* * *

(١)دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ١٣٩ وما بعدها.

(٢)معالم تاريخ الإنسانية ٣/٩٠٧ - ٩١٠.

الفرع الثاني

الكنيسة في عصر النهضة (١)

كان من نتائج تلك العوامل السالفة مجتمعة أن بدأت الكنيسة تفقد المكانة العالية التي كانت قد تبوأتها، واهتز الأساس الروحي والأخلاقي الذي أقامت عليه نفوذها بل جبروتها في العصور الوسطى، وبات النصارى في غرب أوروبا يتحدثون عن ضرورة إصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة التي ظهرت بين رجالها، وتطوير نظمها وتنظيم علاقاتها مع أرجاء العالم المسيحي.

ولقد جاءت هذه الدعوة في فترة شاعت فيها روح النقد، وظهرت شخصية الفرد بسبب النهضة التي ظهرت واضحة في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي فتحرر المفكرون من القيود الثقيلة التي كانت تفرضها الكنيسة على حرية التفكير وحرية البحث العلمي، وسلّطوا نور العقل والمنطق على جميع الأنظمة التي سيطرت على مجتمعهم الأوروبي طيلة العصور الوسطى وخضع لها هذا المجتمع، وفي مقدمتها الأنظمة الكنسية.

---

(١)عصر النهضة: كلمة إذا أطلقت أريد بها «القرن السادس عشر الميلادي» وفيه أصبحت النهضة الأوروبية بادية للعيان في شتى جوانب الحياة الغربية الفكرية والفنية والاجتماعية والسياسية...

وظهر بسبب ذلك اتجاهان لإصلاح الكنيسة، الأول: ينادي[٢] بضرورة أن يقوم رجال الدين أنفسهم بإصلاحها من المفاسد التي لوثتها (الإصلاح من الداخل) وعلى رأس هذا الاتجاه الراهب الهولندي أرزموس.

الثاني: ينادي بضرورة أن يفرض الإصلاح على الكنيسة فرضاً على أيدي رجال من خارجها (الإصلاح من الخارج) وكان على رأس الداعين إلى الأخذ بهذا الاتجاه: لوثر، زونجلي، كالفن.

وجاءت خاتمة حماقات الكنيسة في القرن السادس عشر ـ عصر النهضة ـ التي عرفت باسم صكوك الغفران، والتي يمكن بواسطتها افتداء الروح من عذاب المطهر بدفعة مالية، وذلك لجمع الأموال اللازمة بحجة إعادة بناء كنيسة القديس بطرس في روما ظاهراً، وللإنفاق على حياة البذخ والترف التي كان يعيشها البابا ورجال الكهنوت. . . . [٢] بل لقد وصل الحد بباباوات روما الذين وجدوا في هذه الصكوك مورداً مالياً غزيراً سهل المنال لا ينضب معينه، إلى التوسع فيه فزعموا أن أثرها يمتد إلى الموتى، وقرَّروا أن في استطاعة كل نصراني حي، له عزيز احتواه القبر، أن يشتري له نيابة عنه صكوك الغفران، وعندها يغفر الله عز وجل لهذا الميت كل ذنوبه، ويدخله جنات النعيم ولو كانت ذنوبه التي اقترفها في حياته كزبد البحر.

وأصبحت هذه الصكوك تباع بالجملة ومقدماً لغفران جميع الخطايا

---

(١)أنظر «تاريخ أوروبا في عصر النهضة» فصل الإصلاح الديني.

(٢)أنظر النص الكامل لصك الغفران في كتاب محاضرات في النصرانية لأبي زهرة رحمه الله. وانظر كتاب: المستقبل لهذا الدين «ص ٦٠ وما بعدها».

سواء ارتكبت في الماضي أو التي سوف ترتكب في المستقبل[1].

وكان من نتيجة هذا أن قامت حركة الاحتجاج ـ البروتستانت ـ يقودها مارتن لوثر ـ من رجال الكهنوت ـ الذي أذاع مبادئه التي يجب حسب رأيه أن تتبع لإصلاح الكنيسة ومن أهمها:

- إخضاع رجال الدين للسلطة المدنية.
- ليس للبابا الحق في احتكار تفسير الكتاب المقدس.
- إباحة الزواج للقسس (هو نفسه تزوج من إحدى الراهبات).
- إباحة الطلاق للنصارى.
- عدم إنشاء أديرة جديدة، وإلغاء العديد من الأديرة القائمة ثم إعلان إلغاء الديرية والرهبنة.
- ليس في استطاعة القسس تحويل العشاء الرباني.... [2]

وانقسم النصارى هناك فريقين: فريق معه يشد أزره دعوا بالمحتجين وأصبح مذهبهم يعرف بالمذهب البروتستانتي.

وفريق ضده، وهم الذين بقوا على ولائهم للكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها البابا.

وقامت بسبب هذا الانقسام الحروب الدينية[3] التي قضت على الكثير من الأوروبيين وارتكبت فيها المجازر الرهيبة من الطرفين على حد

---

(١)تاريخ أوروبا في عصر النهضة، فصل: الإصلاح الديني.

(٢)أنظر تاريخ أوروبا في مطلع العصور الحديثة ١/٣١٢ - ٣٣٥.

(٣) في عام ١٥٧٢م. تم بفضل الكنيسة الكاثوليكية ذبح مائة ألف مسيحي بروتستانتي في ليلة واحدة.

بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش التي أقامتها الكنيسة منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن عشر ما يزيد على ٩ ملايين نسمة.

سواء، والتي لعبت دوراً كبيراً في إقرار فصل الدين عن الدولة، أو ما سمي بـ «حرية الفرد في اختيار المذهب الذي يريد»[1].

ففي صلح أوغزبرغ مثلاً والذي وقع بين البروتستانت والكاثوليك نص على حق كل إقليم في اختيار عقيدته الدينية، والامتناع عن كل محاولة لفرض مذهب ديني واحد على جميع المقاطعات الألمانية، ولكل حاكم الحق في اختيار المذهب الذي يريده في إقليمه دون تدخل من جانب الامبراطور أو المجلس الامبراطوري، وفي صلح كابل الموقع مع أتباع زونجلي نجد النصوص نفسها تقريباً[2].

وجاءت الثورة الفرنسية ١٧٨٩م لتكون آخر مسمار في نعش السمو الكنسي الذي كان يتلخص بما أعلنه البابا غريغوري السابع ١٠٧٢ - ١٠٨٥م. من أن الكنيسة هي صاحبة السيادة في العالم كله وأنها تستمد نفوذها من الله مباشرة، وأنها معصومة لا تخطئ ولا تضل أبداً[3].

تلك الثورة التي كان واحداً من شعاراتها: أشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس. والتي أطاحت برجال الدين المستبدين، فقذفت بهم إلى زوايا المعابد المظلمة، وأبعدتهم عن ميدان الحياة كلها وخاصة في

---

(١) قارن هذا بما كان يسود أوروبا في العصور الوسطى من أن العالم المسيحي يشكل وحدة عامة سياسية ودينية ويخضع لقوتين هما: البابا: نائب السيد المسيح والرئيس الديني الأعلى.
أمبراطور: امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وهو الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية والمسؤول عن الأمن والمنفذ لأوامر الكنيسة (في مبادئ لوثر، الكنيسة تخضع للسلطة المدنية). ويجب على كل فرد طاعتهما طاعة عمياء.

(٢) أنظر تفصيلاً أوفى في كتاب تاريخ أوروبا في مطلع العصور الحديثة ١/٣٨١ - ٤٢٦.

(٣) أنظر تفصيلاً أوفى في كتاب «الدين والدولة» ص ٤٢ وما بعدها.

مجال الحكم والقضاء والتشريع وبذلك تم الفصل بين الدين والدنيا. وبين الدين والدولة في أوروبا.

ومن هنا نشأت الازدواجية في حياة الأوروبيين، وما تزال هذه الازدواجية تسيطر على المجتمع الأوروبي.

وبعد فهذه هي الظروف التي أدت إلى الفصام النكد بين الدين والدنيا وبين الدين والدولة تبعاً لذلك في أوروبا، وإن شئت قلت: بين الكنيسة وواقع الحياة، وهذا أدق. فكانت الجفوة بين الكنيسة والفكر وبالتالي بين العلم والدين وكان العداء الجاهر الصريح بين طبقات الشعب المستغلة المستضعفة وبين الكنيسة وبالتالي بينها وبين الدين، وتحول الدين إلى صلة بين العبد وربه فقط، أما مواجهة واقع الحياة فيكون بتقاليدهم وأعرافهم ثم بقوانينهم التي أصبح مشرعوهم يضعونها لهم.

مقارنات:

ولكن نحن المسلمين ما لنا ولهذا كله؟ وظروفنا التاريخية وطبيعة ديننا وظروفه وتعاليمه ليست في شيء من هذا جميعه، وباستطاعة أي منصف دون عناء أن يدرك هذا الاختلاف من نظرة ومقارنة بين النصرانية والإسلام حيث يجد:

١ - لا يوجد سند تاريخي متصل يربط الإنجيل الحاضر والإنجيل الذي أنزل على السيد المسيح عليه السلام، وأن المراسيم والطقوس الكنسية المعمول بها الآن لم يمارسها عيسى عليه السلام ولم يأمر بها، وأن

النصرانية الحالية لا ترتبط بالسيد المسيح عليه الصلاة والسلام، حتى إن الكونت دي نوي قال: لقد تجرأ أسقف كبير هو الدكتور وليام تامبل أسقف الكنيسة الإنجليزية الأولى (كنتر بري) على القول بأن من الخطأ الفاحش أن نظن أن الله وحده هو الذي يقدم الديانة أو القسط الأكبر منها.(1) أما الإسلام فالقرآن الذي نتلوه اليوم هو القرآن عينه الذي كان يتلوه محمد ﷺ وأصحابه(2)، وما يقال عن القرآن الكريم يقال عن العبادات والشعائر الدينية (3).

٢ - إن النصرانية في أصلها تركت للقوانين والأوضاع التي كانت تسود الإمبراطورية الرومانية أن تتحكم في شؤون الناس وتوجه مصائرهم، فهي في حياة المسيح عليه الصلاة والسلام وتلاميذه من بعده حتى القرون الثلاثة الأولى وقفت موقف المسالم للدولة، لا تصطدم معها في تشريع، ولا تفرض عليها رجال دين يتحكمون في شؤونها «ما لله لله»، وما لقيصر لقيصر»(4).

أما الإسلام فنشأ في مجتمع بدوي قبلي ليست فيه أوضاع أو قوانين

---

(1) انظر مصير البشرية: و١٥٢ ب موجز تاريخ الإنسانية ٥٢٣/٣، دائرة المعارف البريطانية ٦٣٧/٥.

(2) «ونستطيع كذلك أن نؤيد استناداً على أقوى الأدلة أن كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها كما تلاها محمد ﴿ﷺ﴾ من كلام السير وليم موير وهو من ألد خصوم الإسلام انظر كتاب حياة محمد للدكتور هيكل: ٣٤ وما بعدها.

(3) يقول بودلي المستشرق الأمريكي: «لو أن القديس بطرس عاد إلى روما لامتلأ عجباً من الطقوس الضخمة وملابس الكهنوت المزركشة والموسيقا الغربية في المعبد المقرونة باسمه ولن يعيد البخور والصور والرقي إلى ذهنه أي شيء من تعاليم سيده المسيح، ولكن إذا ما عاد محمد ﴿ﷺ﴾ إلى أي مسجد من المساجد المنتشرة بين لندن وزنجبار فإنه سيجد الشعائر نفسها التي كانت تقام في مسجده في المدينة» انظر كتاب الإسلام بين الإنصاف والجحود ٣٢ وما بعدها.

(4) إنجيل متى الآية ٢١ من الإصحاح الثاني والعشرين.

من نوع ما كـان في الإمبراطـورية الـرومانيـة، فتولى هـو إنشاء المجتمـع الـذي يريـده، ووضع لـه قوانينـه ونظمـه، وهو يتـولى في الوقت نفسـه ضميره وروحه كما يتولى سلوكه ومعاملاته ويجمـع بين الـدين والدنيـا في توجيهاته وتشريعاته. يقول السباعي رحمه الله: وأنا أقول: إن العـرب لم يكن لهم دولة في الجاهلية فأسسها لهم الإسلام.

٣ - إن المناداة بفصل الدين عن الدولة في تاريخ الكنيسة عود بها إلى وضعها الأول الصحيح وإن انحرافها عن هذا المبدأ جر عليها وعلى شعبها البلاء والشقاء.

أما في الإسلام فإن المناداة بفصـل الدين عن الـدولة انحـراف به عن وضعه الصحيح، بل إن وقوع الفصل في بعض مراحـل التاريـخ[١] جر على الإسلام وعلى المسلمين البلاء والشقاء.

٤ ـ إن فصـل الدين عن الـدولة في تـاريخ أوروبـا كـان في عصر نهضتها ولقد سارت بعده حـرة طليقة تسيـطر على شؤون العـالم وتتحكم بمصائره.

أما في الإسلام فإن أزهى عصور حضارته وأحفلهـا بالقـوة والمجد وأجداها على الإنسانية هي العصور التي قـامت فيها دولتـه على مبـادىء شريعته.

٥ ـ إن ربط الـدولة بـالدين في أوروبـا أدى إلى اضـطهـاد الفكـر وخنق الحـريات، وقيـام الحـروب الـدينيـة المفجعـة، وخضـوع النـاس

(١)التجزئة والخضوع للكافر الأجنبي، وضياع فلسطين والمقدسات، وقيام دولة إسرائيل.

لكابوس الخرافة والجهالة والبؤس.

أما ربط الدولة بالدين في عصور الإسلام الزاهرة فقد أدى إلى تحقيق الكرامة الإنسانية والعدالة الإجتماعية بين أبناء الشعوب، وانطلاق الفكر وحماية الحريات الدينية وإشاعة السلام بين أبناء الديانات المختلفة، وتحرير الناس من أوهام الخرافة والشعوذة[1].

يقول موريس بوكاي: ولكن علينا أن نتذكر عظمة الإسلام حين كانت تفرض القيود في بلداننا النصرانية فيما بين القرن الثامن والثاني عشر الميلادي، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات في الجامعات الإسلامية[2].

٦ ـ إن علاقة الدين بالدولة في أوروبا في القرون الوسطى جعل من رجال الدين طبقة تمثل السيطرة والاستعلاء والاضطهاد والتعصب.

لكن علاقة الدين بالدولة في عصور الإسلام الزاهرة لم توجد مثل هذه الطبقة إذ الإسلام نفسه لا يعترف بوجودها فكيف يعترف بحقها في السيطرة والاستعلاء؟ ولكنه أوجد العلماء الحقيقيين الذين يرون أنهم ورثة الأنبياء كما ذكر رسول الله ﷺ، وأنهم هداة الخلق إلى الحق، وعلى عاتقهم تقع أمانة متابعة تبليغ الرسالة الإسلامية والسهر على حمايتها من كل تحريف أو تعطيل؛ ولقد ضرب هؤلاء العلماء على مر التاريخ أروع الأمثلة في التفاني والتضحية بالمصالح الشخصية من أجل إرساء قواعد

---

(١)لم يعرف الإسلام اضطهاداً للعلم والعلماء في تاريخه، بل كان الدافع إلى العلم والتعليم والتدبر، لذا كان معظم العلماء المسلمين علماء بدينهم أيضاً، انظر كتاب «تاريخ العلوم عند المسلمين» لمؤلفه عادل زعيتر.

(٢)دراسة الكتب المقدسة: ١٤٠ وما بعدها.

الحق والعدل والمحافظة على روح الشريعة كما جاء بها وبلغها صاحبها عليه الصلاة والسلام؛ بل لقد وصل الأمر بالعديد منهم إلى التضحية بأنفسهم في سبيل الله ليقدموا القدوة الحسنة لمن سيأتي من المسلمين من بعدهم[1].



(١) انظر كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رحمه الله المجلد الخامس. وكتاب الإسلام بين العلماء والحكام لعالم العراق الشيخ عبد العزيز الدوري رحمه الله والذي ذهب ضحية ثباته على الحق شهيداً على أيدي دعاة التغريب والعلمانية؛ ففيه الكثير من الأمثلة.

وانظر كتاب الدين والدولة للسباعي رحمه الله: ٧٦ وما بعدها، وكتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام للشهيد سيد قطب: ٩ وما بعدها. وكتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ٤٥١ وما بعدها.

الباب الثّاني

القضيّة على الصّعيد الفكري

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول

الإستشراق والتبشير

تمهيد

بعد أن فشلت الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها وانتهت بطرد الصليبيين من الأرض الإسلامية، تداعى رجال الكهنوت[1] والسياسة والفكر لديهم من أجل وضع الخطط التي تكفل لهم تخليص بيت المقدس من الكفرة، وإعادة الأرض الإسلامية إلى السيطرة النصرانية. وقام القسيس الإسباني ريمون رول ينادي باستخدام سلاح التبشير والغزو الفكري بدلاً من الحروب الصليبية، وفي ذلك يقول أدوين بلس في كتابه (ملخص تاريخ التبشير): «إن ريمون رول الإسباني هو أول من

---

(١)جاء في وثيقة صادرة عن الفاتيكان مؤخراً بعنوان «توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين): «علينا بمراجعة مواقفنا إزاء الإسلام وبنقد أحكامنا المسبقة... ويجب التخلي عن الصورة البالية التي ورثنا الماضي إياها أو شوهتها الفريات والأحكام المسبقة... كما يجب الاعتراف بالمظالم التي ارتكبها الغرب المسيحي في حق المسلمين....» ومن الجدير بالذكر أن أي شكل من أشكال العداء للإسلام حتى وإن صدر عن أعداء للكنيسة كان يتلقى التأييد الحار من كبار الشخصيات الكنسية، فالبابا بونوا الرابع عشر الذي اشتهر بكونه الحبر الأعظم في القرن الثامن عشر الميلادي لم يتردد في مباركة فولتير الأديب الذي اشتهر بعدائه للكنيسة ومحاربته لها، عندما أصدر مسرحيته التي سماها «محمد أو التعصب» والتي هجا فيها الرسول ﷺ وتهجم على الإسلام وتاريخه... واشتهرت المسرحية وذاع صيتها حتى سمح لها بأن تسجل في قائمة مؤلفات مسرح الكوميدي فرانسيز. للاستزادة انظر دراسة الكتب المقدسة: ١٣٦ وما بعدها.

تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها»[1].

أما آرنست باركر فيقول: «وظهر أمثال ريمون رول الذي كان ينادي بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تبشيرية، وأن يقوم التبشير السلمي مقام الحملة الحربية»[2].

الغاية من التبشير:

وانطلقت بعد ذلك البعثات التبشيرية تحت ستار تحقيق الغايات الإنسانية والتخفيف من آلام البشرية (مستوصفات ومستشفيات، مدارس وتعليم، مساعدات مادية) وكلها ترمي إلى غاية أساسية ألا وهي تحقيق استعباد الغرب للشرق بتحويل آسيا إلى النصرانية والقضاء على الإسلام[3] وما ذلك إلا لأن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا، فلا بد من العمل على أن يمحى الإسلام من العالم ـ هذه أمنية المبشر جب[4] ـ وهذا لن يكون إلا بالقضاء على الوحدة الإسلامية ومنع قيامها «إذا اتحد المسلمون أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم أو خطراً... أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير... لذا يجب أن نحول بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين»[5].

أما القس سيمون فكان يرى أن الوحدة الإسلامية هي التي تجمع

(١)الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٩.
(٢)الحروب الصليبية النص العربي ص ١٤٤.
(٣)انظر كتاب التبشير والإستعمار ص ٣٨.
(٤)المرجع السابق ص ٣٧.
(٥)المبشر لورنس براون، انظر كتاب التبشير والاستعمار ص ٣٧.

آمـال الشعـوب السمـر وتسـاعـدهم عـلى التملص من السيـطرة الأوروبية[1]. . .

لذا كان على التبشير أن يعمل على كسر شوكة هـذه الوحـدة ويمنع قيامها بحال من الأحوال وهذا لن يكون إلا بتحقيق عـزلة الإسـلام عن واقـع المسلمـين وتجـريـده من القـوة الأسـاسيـة فيـه ألا وهي الـدولـة (الخلافة).

وانطلقت البعثات التبشيرية ساعية لتحقيق هذه الغايـة مستخدمـة جميع الوسائل المتاحة لها دون تفريق بين وسيلة فكرية أو عسكرية.

ومن الأمور التي أصبح لا خلاف فيها بين الباحثـين والمؤرخين أن الإرساليات التبشـيرية التي حلّت محـل الحملات الصليبيـة كانت طليعـة الغزو الاستعماري الجديد وإذا حـدث أن هذه الإرسـاليات أشـارت بأن يتقدمها الجيش أولاً، فإن ذلك لم يحدث على التحقيق قبل القرن التاسع عشر بعد أن بلغ المبشرون في تمهيد الطريق أكثر ما يستطيعون، وبعد أن بلغت الدولة العثمانية من الضعف مـا يمكن معه اخـتراق سورهـا بطريق عسكري، هذا على الرغم من أن بعض هؤلاء المؤرخين لا يرى في رغبة المبشرين السـابقـة في أن يتقـدمهم الجيش أولاً أكـثر من أن هـذا الأمـر يسهـل مهمتهم ويختصر لهم الطريق في سبيـل تعـاون الجميـع عـلى أداء رسالة الحروب الصليبية التي فشلت في أدائها في وقت سابق.

وأصبـح الاستعمار ـ الـذي يشكل روح الحضـارة الأوروبيـة ـ في الواقع رسالة الرجل الأبيض الذي بات يعتقد معها أنـه يقدم للشعـوب

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٣٧.

المستعمرة: ملح المدنية وروحها على حد تعبير مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية المسيو هانوتو، أو أنه يجعلها تتدرج في سبيل الحضارة كما قال المبشر وليم بالكراف[1] وهو الذي كان يقول: «إنه متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب أمكن للعربي معها أن يتدرج في تلك السبيل»[2].

وكان التأكيد على استخدام الوسائل الفكرية أشد لأنها هي التي تمهد الطريق وتفتح العقول والقلوب إن نجحت لتقبل الوجود العسكري الصليبي والسير في ركاب النصرانية والكهنوت، لذلك وجدنا أن هذه الإرساليات التبشيرية قد احتكرت العلم والتعليم، فعملت على فتح المدارس لجميع مراحل التعليم بدءاً من رياض الأطفال وانتهاء بالدراسات العليا، ووضعت المناهج التي تحقق غايتها، وما ذلك إلا لأنها تدرك أهمية العلم والتعليم في صياغة القلوب والعقول الصياغة التي تقربهم من الغاية أو تبعدهم عنها، لذا قامت هذه الإرساليات باحتكار العلم والتعليم في جميع المناطق التي سيطر عليها الاستعمار الغربي تقريباً وهذا يفسر لنا كون الزعامة الإدارية والسياسية والاقتصادية الآن تتركز في أيدي النخبة المسيحية الجديدة حتى في المناطق التي تقطنها أغلبية مسلمة ـ السنغال، تشاد وغيرها ـ أو تتركز في أيدي النخبة التي تربت على المناهج التي وضعها هؤلاء المبشرون والتي أصبحت ترى أن السير خلف الحضارة الأوروبية هو عنوان الرقي والتقدم، لأن التعليم الآن هو

(١)انظر تاريخ الإمام محمد عبده للشيخ رشيد رضا ٢/٤٠٤.
الغارة على العالم الإسلامي ص ٩٣.
مجلة حضارة الإسلام العدد ٧ – ٨ من السنة الثالثة عشرة ص ٧٣ وما بعدها.
(٢)الغارة على العالم الإسلامي ص ٩٤ وما بعدها.

السلم الحقيقي للوصول إلى الزعامة، وعن طريق هذه الزعامة يمكن تحقيق الأهداف التي تخدم في النهاية أو تحقق الغاية التي من أجلها خرجت هذه الإرساليات التبشيرية. .

ومن الطريف أن ريمون رول وهو أول من نادى باستخدام التبشير كسلاح للسيطرة على بلاد المسلمين وإضعاف شأن الإسلام هو أول من نادى كذلك بإيجاد كرسي للدراسات الشرقية الإسلامية في الجامعات الأوروبية[1]، وهكذا نشأ الاستشراق نتيجة الفشل الذي انتهت إليه الحروب الصليبية أيضاً لدراسة الإسلام ونقده وتشويهه بإعداد دراسات غريبة عنه وعن تاريخه، لتقديمها جاهزة حسب التفكير الغربي وبما يخدم مصالحه ويحقق غايته للموفدين من الشرقيين لمتابعة تحصيلهم العلمي في ديار الغرب، وعودتهم إلى بلادهم وجهاً آخر للعملة التي يريدها المستعمرون، ولك أن تتصور مقدار الأذى الذي سيلحقونه بدينهم وأمتهم إذا عرفت مقدار الغرور الذي دخل نفوس علماء الغرب ومؤرخيه من مستشرقين وغيرهم نتيجة القوة المادية والعلمية التي وصل الغرب إليها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حتى إنهم اعتقدوا أن الغربيين أصل جميع الحضارات في التاريخ ـ ما عدا الفرعونية ـ وأن العقلية الغربية هي العقلية الدقيقة التأمل التي تستطيع أن تفكر تفكيراً منطقياً سليماً، أما غيرهم من الشعوب وخاصة الإسلامية فإن عقليتهم ساذجة بسيطة، أو «ذرية» على حد تعبير المستشرق جب في كتابه «وجهة

---

(١)وهو الذي أدخل تعليم العربية في المعاهد المسيحية في الدراسات العليا انظر كتاب الجامعات الأوروبة ص ٣٠ حيث يقرر أن الغرض كان تبشيرياً خالصاً وكنسياً لا علمياً. مجلة العالم الإسلامي عدد يوليو ١٩٦٣.

الإسلام» ويقصد أن العقلية الإسلامية تدرك الأمور بواسطة الجزئيات ولا تدركها إدراكاً كلياً[1].

هذا إلى جانب الشعور بالنقص والضعف وعدم الثقة بالنفس لدى هؤلاء الموفدين إزاء المستشرقين الغربيين وإعظامهم وإكبارهم وعدم

---

(١)يقول العلامة غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» الذي ترجمه إلى العربية الأديب عادل زعيتر رحمه الله ؛ «وقد يسأل القارىء بعدما تقدم ـ مما ذكره من أدلة على تأثير الحضارة الإسلامية في الغرب وأثرها في نشوء الحضارة الغربية الحديثة ـ لماذا ينكر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضاً، وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد.

فالمرء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية.

والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأجداد فكانت خلاصة لماض طويل.

فالشخصية غير الشاعرة وحدها، ووحدها فقط، هي التي تتكلم عند أكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة بأسماء مختلفة، وتملي عليهم آراءهم فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حراً في الظاهر فيحترم.

والحق أن أتباع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ظلوا أشد من عرفته أوروبا من الأعداء إرهاباً عدة قرون، فهم كانوا لا يرعدوننا بأسلحتهم كما في زمن شارل مارتل والحروب الصليبية أو يهددون فتح القسطنطينية، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة، فلم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس. لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة فصارت جزءاً من مزاجنا، فأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي أحياناً والعميق دوماً.

فإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة ضد المسلمين، وهمنا الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة: إن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي، أدركنا بسهولة سر جحودنا العام لتأثير العرب في تاريخ حضارة أوروبا. ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يفكر في أن أوربا النصرانية مدينة في خروجها من دور التوحش لأولئك الكافرين، فعار كهذا لا يقبل إلا بصعوبة.

ويمثل لوبون لما ذكره بالخطبة التي ألقاها رينان في السوربون عن الإسلام، وهي التي رد عليها في حينها الإمام محمد عبده رحمه الله. والتي تمثل الاضطراب في الحكم على الأشياء بسبب التقاء الأوهام الموروثة مع الثقافة في العالم الفاضل، حيث اضطرب رينان في محاضرته هذه بين الاعتراف بفضل العرب في تقدم العلوم، وبين زعمه أن الإسلام اضطهد العلم والفلسفة... وأمثلة من هذه المتناقضات ما ذكره في نهاية محاضرته: «إنني لم أدخل مسجداً من غير أن أهتز خاشعاً أو من غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلماً» حضارة العرب ص ٦٨٨ - ٦٩٠ الطبعة الثانية.

سوء الظن بهم، أو الانخداع بظاهرهم.

ولقد ضرب لنا أستاذنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله مثلاً على ذلك بأحد أساتذته في كلية الشريعة ـ قسم تخصص المادة في الفقه والأصول وتاريخ التشريع عام ١٩٣٩ ـ وكان قد أنهى دراسته في ألمانيا حديثاً وهو مجاز من كلية أصول الدين في قسم التاريخ، ومكث في ألمانيا أربع سنوات حتى أخذ شهادة الدكتوراه في قسم الفلسفة فيقول رحمه الله:

«كان أول درس تلقيناه عنه أن بدأه بمثل هذا الكلام: «إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي، ولكن على طريقة علمية لا عهد للأزهر بها، وإني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً فلم أفهم الإسلام ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا».

وابتدأ درسه عن تاريخ السنة النبوية ترجمة حرفية عن كتاب ضخم بين يديه، علمنا فيما بعد أنه كتاب جولد تسيهر، «دراسات إسلامية» وكان ينقل عبارته ويتبناها على أنها حقيقة علمية... [1] بدليل أنه لم يقبل أن يقال له: لقد تبين أن جولد تسيهر قد حرف نصوص الأقدمين فيما يتعلق بالزهري. فأجاب بقوله: لا يمكن هذا لأن المستشرقين وخاصة جولد تسيهر قوم علماء منصفون لا يحرفون النصوص ولا الحقائق...

وعندما نقول بأن الحروب الصليبية بما تركته في نفوس الأوروبيين

(١)للاستزادة انظر كتاب: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ١٩ وما بعدها.

من آثار مرة عميقة هي التي أدت إلى نشوء حركة الاستشراق، كذلك فإن رغبة المسيحيين في التبشير بدينهم بين المسلمين دفعتهم ليقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي، وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار الذي كانت مصلحة المبشرين قد التقت مع أهدافه فمكن لهم واعتمد عليهم في بسط نفوذه وسيطرته في الشرق كما مر معنا في بداية هذا الفصل.

وبجانب هذا وذاك كانت هناك أسباب أخرى لنشأة الاستشراق (تجارية، وسياسية ديبلوماسية، وشخصية مزاجية)[1].

ولقد تركزت أهداف الاستشراق مع تنوعها أخيراً في خلق التخاذل الروحي وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين، وحملهم من هذا الطريق على الرضى والخضوع للتوجيهات التي تحقق مصالح الكنيسة والغرب في العالم الإسلامي، وفي ذلك يقول الدكتور عمر فروخ: «ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية أو يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك، ثم يرمون كلهم مما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب والعلوم الغربية والآداب والعلوم الإسلامية، ليخرجوا دائماً بتفضيل الغربية على الإسلامية... وما غايتهم من ذلك إلا خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس المسلمين وحملهم من هذا الطريق على الرضى بالخضوع للمدنية الغربية المادية»[2] ولتحقيق

(١) كتاب المستشرقون لنجيب العقيقي ص ١٩ وما بعدها، وص ٤٠ وما بعدها.
(٢) التبشير والاستعمار ص ١٧.

هذه الغاية فقد انطوى عمل الدارسين للإسلام من المستشرقين على نزعتين رئيستين هما: [1]

١ ـ تمكين الاستعمار الغربي وتمهيد النفوس لقبول النفوذ الأوروبي والرضى بولايته عن طريق إضعاف القيم الإسلامية بشرح تعاليم الإسلام شرحاً يضعف في المسلم تمسكه بالإسلام، ويقوي في نفسه الشك فيه كدين، أو على الأقل كمنهج سلوكي يتفق وطبيعة الحياة القائمة. ويمثل هذا ما كتبه رينان الفرنسي حيث يقرر أن الديانة النصرانية ربانية المصدر، وهي الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية، وإن كانت مشتقة منه وغصناً من دوحته، ومن شأنها ترقية الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية، على حين يقرر أن الديانة الإسلامية بشرية المصدر ومشوبة بتأثير مذهب السامية، وتنحط بالإنسان إلى أسفل الدرك وترفع الإله عنه في علاء لا نهاية له... ويسف إلى أن يقول:

«غير أن إدراك المسيحيين ـ أي للألوهية ـ من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة إذ هو يحملهم على إتيان الأعمال التي تقربهم إلى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة، في حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستعانة بالله الأحد الذي هو مستودع الآمال...» [2].

أما فيليب فوندانسي الفرنسي صاحب كتاب «دراسة عن الإسلام

---

(١) «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» للدكتور محمد البهي.

(٢) انظر تاريخ الإمام ٢/٤٠٧ ـ ٤٠٩.

في أفريقيا السوداء» [1] فتراه يقول «إن الأموال المادية في نظر الإسلام هي من أصل شيطاني نجس، ويحل للمسلم أن يتمتع بهذه الأموال شريطة أن يطهرها وذلك بإرجاع هذه الأموال إلى الله».

ويأتي مستشرق ثالث ليتحدث لمجلة كندية «نجمة مونتريال» العدد ٨٠ للسنة الثامنة والثمانين عن الإسلام فيقول: «إن المسلمين يتجنبون الناس الذين يشتغلون بالمال ويعتبرونهم أقرب للكلاب منهم للبشر». ويشوهون علاقة الرجل بالمرأة ويفسرونها بمبدأ التفوق، وتعرض طاعة الزوجة لزوجها على أساس أنها نوع من الإذلال وسبب لفرض الرق والعبودية على نصف البشرية.

أما فكرة عدم قبول المسلم لولاية غير المسلم فيشرحها المستشرقون بفكرة عدم التعاون مع الشعوب الأخرى، أو النفور من رئاسة غير المسلم ولو كان ذا كفاية وأهلية للرئاسة والتوجيه أكثر من المسلمين أنفسهم.

ومبدأ عدم زواج المسلمة بغير المسلم يشرحونه بدافع العصبية والعنصرية وتمييز الشعوب بعضها على بعض.

أما فكرة العودة إلى الكتاب والسنة فهي في نظرهم رجوع إلى الحياة البدائية لا يليق بمن يدعو إلى الإصلاح أن يأخذ بها، لأن الإصلاح هو التطور، وهذا لا يتحقق إلا بالأخذ بأساليب المدنية الحديثة والقوانين المعاصرة وأسلوب الحكم الحديث، أي: الأخذ بأنماط المعيشة الغربية....

---

(١)نشر دار الفكر الإسلامي، دمشق، ١٩٥٤ م.

وكذلك لجأ المستشرقون إلى تذكية الفرقة القائمة بين المسلمين وذلك لمنع قيام وحدة تجمعهم فقاموا ينادون بفكرة تجدد الإسلام تبعاً لأحداث الزمن، وبفكرة تعدده كديانات حسب الشعوب المؤمنة به (إسلام فارسي ـ عربي ـ تركي . . .) أو حسب طوائفه ومصادره (إسلام الفقهاء ـ المتصوفة، أو إسلام القرآن، وإسلام الحديث أو السنة. . .). مع محاولة تكييفه على أنه نزعة روحية ترمي إلى تحسين الإنسان والعمل على صفاء نفسه فقط.

ولقد استتبع هذا إبعاد الإسلام عن مجال العلاقات العامة، وعن مجال علاقات الأفراد بعضها ببعض في نظام عام يعبر عنه بالدولة أو الحكومة. وظهرت فكرة أن الإسلام دين فردي شخصي لا يصح أن يتدخل في علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وهذه فكرة نصرانية استعمارية لأنها تستتبع ما يقال من وجوب الفصل بين ما يسمى ديناً وما يسمى دولة. . .

هذه الأفكار كلها من صنع الاستعمار وأثر من آثار التمهيد للرضى بحكمه بعد ضياع الشخصية الإسلامية الحقة.

وكان المستشرقون هؤلاء وهم يعملون على إضعاف شأن القيم الإسلامية والتيئيس من التضامن الإسلامي، يعملون على تمجيد القيم الغربية النصرانية، والحضارة المادية الصناعية التي هي عنوان هذه القيم في نظرهم.

فتخلف المسلمين في هذا المجال دليل على تخلف الإسلام في قيمه ومبادئه، وعلى إذلاله للإنسان وتقييده في السير في هذه الحياة طبقاً لعقيدة

الجبر فيه. وعلى العكس من ذلك كان تقدم الأوروبيين في هذا المجال دليلاً على أصالة القيم النصرانية وقوة صلتها بتحرير الإنسان من الجهل والفقر والمرض، وكذلك في انطلاقه في هذه الحياة من غير خوف أو وجل.

ويتناسون الحضارة العظيمة التي شادها المسلمون يوم أن تمسكوا بالإسلام وطبقوا مبادئه والذي نتج عنه القضاء التام على الجهل والفقر حيث يقرر الحاكم المسلم ويطبق أنه لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مؤنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، وها هو يحيى بن سعيد الذي أرسله الخليفة على صدقات أفريقية يقول: فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً، ولم نجد من يأخذها... فاشتريت رقاباً فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين... ولم يقتصر أثر هذا على المسلمين فقط بل تعداهم إلى جميع مواطني الدولة ولو كانوا من غير المسلمين «انظر هذا وأمثاله واجعل لهم نصيباً مفروضاً في بيت مال المسلمين» هذا ما قاله عمر بن الخطاب لخازن بيت المال عندما شاهد واحداً من أهل الذمة يسأل الناس. [1]
ويتناسون كذلك موقف الإسلام من العلم ويكفي أن نذكر قول واحد من الأوروبيين في هذا المجال: «أما في الإسلام فعموماً كان الموقف إزاء العلم مختلفاً ـ عن الكنيسة ـ إذ ليس أوضح من الحديث الذي يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وهناك أمر رئيس: القرآن، فهو إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم فإنه يحتوي أيضاً على تأملات عديدة خاصة بالظواهر الطبيعية وبتفاصيل توضيحية تتفق

(١)انظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، أخبار عمر للطنطاويين. ص ١٠٢

تماماً مـع معطيـات العلم الحديث. . .» وكيف يعـادي العلم دين حوت أول آياته نزولاً أمرين بالقراءة، ووردت فيها كلمة العلم ثلاث مرات[1].

٢ـ الروح الصليبية في دراسة الإسلام بعد سترهـا وإلباسهـا ثوب البحث العلمي وخدمة الغاية الإنسانية المشتركة. ولقد مر معنـا ما ذكـره بهذا الصدد صاحب كتاب «حضارة العرب» غوستاف لوبون.

ومن هنا قام الاستشراق على أساس أن الإسـلام من صنع محمـد وأن الـرسول صـلى الله عليه وآلـه وسلم لفقه من النصرانيـة واليهـوديـة وكانت الفكرتان الأساسيتان اللتان أكد عليهما المستشرقون: فكرة بشريـة القرآن وفكرة أن الإسلام دين لا دولة[2].

ويتجـلى الحقد عـلى الإسلام والمسلمـين بكـل وضـوح فيـما كتبـه المستشرق الفرنسي «كميون» في كتابه «باتولوجيا الإسلام».

«إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسـان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منها إلا ليسفك الدمـاء، ويدمن عـلى معاقرة الخمور، ويجمح في القبائح. ومـا قبر محمـد (صلى الله عليـه وآله وسلم) إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمـين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامـة والذهـول العقلي، وتكـرار لفظة «الله» إلى ما لا نهاية، والتعـود على عـادات تنقلب إلى طباع أصيلة: ككـراهة

(١)وانظر دراسة الكتب المقدسة: ١٤٠ وما بعدها. سورة العلق.

(٢)انظر كتاب الفكر الإسلامي الحديث ص ٤٨ وما بعدها.

لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة، والفجور في اللذات. . . » [1]

ونتيجة لعمل المبشرين والمستشرقين وغزوهم الفكري وسيطرتهم على العلم والتعليم ومراكز التوجيه في العالم الإسلامي، برز اتجاهان:

ـ الاتجاه الأول: قام على النقل والمحاكاة والموالاة لكل ما جاء به المبشرون والمستشرقون ويمثل هذا الاتجاه علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» وخالد محمد خالد في كتابه «من هنا نبدأ».

ـ الاتجاه الثاني: قام على النقض والرد ومقاومة الانحرافات التي حاول المستشرقون والمبشرون تركيزها في العالم الإسلامي ويمثل هذا الاتجاه الشيخ محمد عبده في ردوده على المستشرقين، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، وجميع العلماء الذين قاموا بنقض كتاب علي عبد الرازق والرد عليه من أمثال شيخ الأزهر السابق محمد الخضر حسين، ومفتي الديار المصرية السابق الشيخ محمد بخيت المطيعي، وأعضاء هيئة كبار العلماء آنذاك وغيرهم. . وسأقوم في الفصلين التاليين ـ إن شاء الله ـ بعرض نماذج من آراء وتفكير هذين الاتجاهين وبيان التأثيرات السيئة للفكر الاستشراقي الصليبي في أفكار أصحاب الاتجاه الأول، وكذلك لبيان كيف أن الاستعمار الغربي، على الرغم من سيطرته على معظم أجزاء العالم الإسلامي سيطرة عسكرية وإرهاب فكري، لم يتمكن من أن ينفرد بالسيطرة على الأفكار، وبقيت الشريعة الإسلامية لا تعدم من يؤمن بها ويدافع عنها ويحملها بحق مهما تحمل في سبيل ذلك من تكاليف، ومهما تعرض له من صنوف الأذى والحرمان.

---

(1) تاريخ الإمام ٩/٢.

الفصل الثاني

النقل والمحاكاة
أو
الاتجاه الممالئ

تمهيد

رأينا في الفصول السابقة كيف يختلف مفهوم الدين في الإسلام عنه في المفهوم الكهنوتي الكنسي، ورأينا كيف أن الدراسات الاستشراقية في هذا المجال كانت تحاول إخضاع الإسلام لهذا الفهم الكهنوتي المستمد من واقع الكنيسة في أوروبا ومن واقع صلتها بالحكومة هناك والتي انتهت أخيراً إلى التمايز بين الكنيسة والدولة، أو الفصل بين الدين والدولة كما يعبر عنه هؤلاء، حيث تم تحديد معنى الدين بالتوجيه الروحي للأفراد فقط، وحدد معنى الدولة بتنظيم العلاقات بين الأفراد.

ورأينا أنه نتيجة للغزو الفكري المنظم من قبل الكنيسة (المبشرين والمستشرقين) ظهر اتجاه في العالم الإسلامي موال للغرب، يستمد تصوراته وتفسيراته للدين والدولة من هذه التصورات الغربية، وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» لمؤلفه الشيخ علي عبد الرازق يمثل هذا الاتجاه في دعوى أن الإسلام دين لا دولة، وهو في عرضه لدعواه كما سنرى ـ يستعير من

الدراسات الاستشراقية للقساوسة الصليبيين واليهود الحاقدين ما لهم من آراء في هذا الجانب، وسأكتفي بعرض آرائه ومناقشته دون غيره لأن نقض آرائه نقضٌ لجميع آراء الذين جاؤوا بعده ونسجوا على منواله، خاصة وأن صرعى الغزو الفكري - ما يزالون يؤكدون على أهمية كتابه محاولين لفت أنظار الناشئة إليه ولو أدى بهم ذلك إلى تحريف الوقائع من أساسها والإتيان بما يناقضها تماماً، بإظهار صاحب الكتاب وكأنه البطل الذي يقف وحده متحدياً الفساد والخيانة والانحراف والطغيان من مثل أقوالهم :(شيخ ضد الملك) و(أخطر كتاب إسلامي) و(الملك يتحرك والشيخ وحده) و(المحاكمة الكبرى للشيخ المتهم بالكفر) وغير ذلك كثير[1].

ولأن بعضهم عاد فاعترف بما نقول، فها هو الشيخ خالد محمد خالد صاحب كتاب «من هنا نبدأ» والذي نحا فيه منحى الشيخ السابق في أن الإسلام دين لا دولة يكتب قائلاً بعد أن بين أن الإسلام دين ودولة: «وإني لأرجو أن يجيء كلامي هذا، رغم اختصاره، تصحيحاً لرأي أبديته من قبل في كتابي «من هنا نبدأ» إذ قلت يومها: إن الدين لا يعنيه أن يكون دولة ولا يعنيه أن يتدخل في بناء الدولة. . . ويبدو أنني يومها كنت متأثراً بتصور مسيحي عن الحكومات الدينية لا سيما تلك التي قامت تحت ظل الكنيسة في أوروبا في عصور الظلام ناسياً يومها أن الإسلام مختلف جداً، وأن الدولة بشكلها ومضمونها كانت تعنيه إلى أبعد مدى، وأنه خاطبها بمسؤوليتها كما خاطب الفرد والجماعة

(١)انظر مجلة آخر ساعة أعداد شهر نوفمبر ١٩٧٠، مجلة الطليعة نوفمبر ١٩٧١ وكتاب الإسلام وأصول الحكم دراسة ووثائق بيروت ١٩٧٢م.

بمسؤولياتهما، وفي الإسلام بالذات لا يمكن عزل الدين عن الدولة إلا إذا أمكن عزل الدين عن الدين، فهو يدرك دور الدولة في الحفاظ على دين الله ويعلن أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، ثم أنه وقد جاء يدعو الناس إلى الدخول في دين الله لا يمكن أن يترك الدولة تشكل عائقاً دون هذا الدخول. . .»[1].

ويقيني أن ما كتبه الشيخ خالد محمد خالد دليل على صحة ما ذهبنا إليه ويكفي لنقض جميع آرائه التي طرحها في هذا الموضوع، والآن نأتي على مناقشة صاحب الكتاب «الإسلام وأصول الحكم»[2] فمن هو؟.

الشيخ علي عبد الرازق:

ولد الشيخ علي في الصعيد بمحافظة المنيا من أسرة ذات نفوذ وأملاك. والده: حسن عبد الرازق باشا الكبير، اشتغل بالسياسة فكان نائباً لرئيس حزب الأمة في عام ١٩٠٧م، وحزب الأمة هذا نشأ في أحضان اللورد كرومر ورعايته[3]، فكان على صلة وثيقة بالانكليز، ثم

(١)جريدة الأخبار القاهرية العدد (٧٨٥٨) يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس ١٩٧٧م.

(٢)ترجم الكتاب إلى الانكليزية ويعد من المراجع الأساسية لعلم الاجتماع الإسلامي في الجامعات الأمريكية.

(٣)يقول سعد زغلول في مذكراته كراس ٢٨ صفحة ٥١٦:

«كان يجلس معي ـ اللورد كرومر ـ الساعة والساعتين ويحدثني في مسائل شتى كي أتنور منها في حياتي السياسية» وفي تقاريره التي كان يرفعها كرومر للخارجية البريطانية يحرص على أن يذكر أنه «يعد جيلاً جديداً من الشباب المتفرنج الذي يعجب بالغرب ويحرص على التفاهم مع الاستعمار البريطاني وقبول العمل معهم».

وترجع صلته بسعد زغلول عن طريق مصطفى فهمي أول رئيس وزراء لمصر بعد الاحتلال وذلك بعد أن أصبح سعد صهره.

خلفته أسرته في رعاية هذا الحزب.

تعلم الشيخ في الأزهر حتى حصل على العالمية عام ١٩١١م. ثم سافر إلى انكلترا ليدرس السياسة والاقتصاد لكنه لم يدرس وعاد إلى مصر بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م. وعين قاضياً بالمحاكم الشرعية عام ١٩١٥م. وكان عند إصداره الكتاب قاضياً شرعياً في محكمة المنصورة، وبعد انتهاء الحرب العامة تأسس حزب جديد هو حزب الأحرار الدستوريين كان في الواقع امتداداً لحزب الأمة القديم وكان كسلفه على صلات متينة بالإنكليز، بل إنه نشأ في رعاية اللورد اللنبي[1] وكنفه، وكان الحزب قد تأسس واقعياً حين انشق عدلي ومن تابعه على سعد زغلول لإجهاض ثورة عام ١٩١٩م. ولو أنه لم يعلن رسمياً إلا في عام ١٩٢٢م. وكان من مؤسسيه حسن باشا عبد الرازق الصغير أخو الشيخ، وكان وكيل ديوان السلطان حسين كامل الذي كان عميلاً للإنكليز أيام الحرب العالمية الأولى، وقد قتل حسن

= وفي عام ١٩٠٧ ترك كرومر مصر معلناً أنه يتركها مستريحاً لأنه أقام القاعدة الأساسية لاستدامة الاحتلال؛ وكان هذا العام هو العام الذي تألف فيه حزب الأمة، ولقد أقام له هذا الحزب حفلة وداع.

وفي هذه المناسبة كتب سعد زغلول في مذكراته كراس ٦/ ٢٤٠ - ٢٤٣ قائلاً:

أما أنا فكنت كمن تقع ضربة شديدة على رأسه، أو كمن وخز بآلة حادة فلم يشعر بألمها لشدة هولها، وقد امتلأت رأسي أوهاماً وقلبي خفقاناً وصدري ضيقاً.

وعندما تم تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف كتب كرومر مسوغاً ذلك قائلاً:

إنه يرجع أساساً إلى الرغبة في ضم رجل قادر ومصري مستنير من تلك الطائفة الخاصة من المجتمع المعنية بالإصلاح في مصر...

ومما يذكر أن سعد زغلول وهو زعيم حزب الوفد «العلماني» كان من الداعين لإقامة حفل توديع لكرومر بعد استعفائه، وقام بالرد على الوطنيين الذين كتبوا ضد كرومر وقال: «إن صفاته قد اتفق الكل على كمالها» الكراس ٦/ ٢٤٥.

(١) صاحب الكلمة المشهورة: الآن انتهت الحروب الصليبية، بعد احتلاله القدس في الحرب العالمية الأولى، والمندوب السامي لانكلترا في مصر آنذاك.

هذا وهو خارج من اجتماع مجلس إدارة الحزب بمقر جريدته في أكتوبر ١٩٢٢م. وصار محمود باشا عبد الرازق الأخ الثاني للشيخ من أقطاب هذا الحزب وكبار موجهي سياسته.

الجو السياسي في تلك الأيام:

بريطانيا تحتل مصر منذ انتصارها على أحمد عرابي في موقعة التل الكبير ١٨٨٢م. وتعمل منذ ذلك الحين لتثبيت أركان احتلالها لمصر واضعة نصب عينيها وصية رئيس وزرائها آنذاك اللورد غلادستون «ما دام هذا الكتاب ـ القرآن الكريم ـ بين أيدي المصريين فلن يقر لنا قرار فيها» لذا كان همها أن تفصل هذه الأمة عن دينها، فكانت مناهج التعليم التي وضعها القسيس دنلوب، وكان الفصل الواقعي بين دين ودنيا أو علوم دينية وعلوم عصرية، ووضعت جل همها من أجل فصل مصر كلياً عن ماضيها الإسلامي بإحياء النعرات الفرعونية القديمة، وكذلك بدأت العمل لفصل مصر عن العالم الإسلامي وبشكل أدق عن الدولة العثمانية والخلافة.

فكان من المبادىء الأساسية والرئيسة لحزب الأمة المتعاون معها: العمل على فصل مصر عن تركيا والخلافة، وكان أحمد لطفي السيد الناطق بلسان الحزب والمقرر الأول لمذهبه السياسي وهو الذي كتب في صحيفة حزبه «الجريدة» إبان عدوان إيطاليا على ليبيا عام ١٩١١م وفي فورة حماس مسلمي مصر وتبرعهم السخي لصالح مسلمي ليبيا وللدفاع عنها، كتب مقالات ثلاثة تحت عنوان «سياسة المنافع لا سياسة العواطف» داعياً إلى الكف عن التبرع، والامتناع عن مساعدة تركيا،

والوقوف على الأقل موقف الحياد. . . .

وهذا ما كانت تريده إنكلترا عدوة الإسلام المتواطئة مع إيطاليا، مما أدى إلى ثورة الشعب على هذا الحزب، وعلى المتكلم بلسانه الذي اضطر إلى مغادرة القاهرة والانزواء بعيداً في قريته أمام هذا المد الإسلامي العارم المخيف للغربيين وأشياعهم، وبقي مصراً على موقفه هذا المعادي للأمة ودينها المتعاون مع إنكلترا. يتجلى ذلك واضحاً فيما كتبه أثناء الحرب العالمية الأولى داعياً الشعب في مصر إلى مؤازرة انكلترا وتأييدها، وهي الدولة المستعمرة للمصريين (قرن موقفه هذا بالموقف السابق) فهو يدعو إلى الحياد من ليبيا، وإلى التعاون مع انكلترا، من هنا كان على انكلترا أن تعمل مع عملائها على إبعاد الإسلام عن السياسة وفصل الدولة عن الدين، وتجريد الإسلام من القوة وواجب الجهاد بل وحتى الدفاع[1].

وفي عام ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الأولى ووقفت الدولة العثمانية آنذاك في صف أعداء انكلترا، وأعلنت انكلترا حمايتها على مصر، لكن الرابطة الدينية التي تربط شعب مصر بالأتراك، وما كان يعانيه من استعباد على يد الانكليز، والولاء الواجب على شعب مصر المسلم لدولة الخلافة يجعل الدولة المستعمرة لا تستطيع أن تفعل فيها شيئاً، لذا كان لا بد من إلغاء الخلافة لاقتسام ممتلكاتها وتقطيع الأواصر التي تربط شعب مصر بها.

وجاءت دعوى الشيخ لتحقيق مصلحة انكلترا حيث تساعدها

---

(١)سنجد أن كتاب الشيخ يتشكل من هذه المحاور الرئيسة فهو يحاول جاهداً أن يثبت أن الإسلام لا علاقة له بالدولة، وأنه لا جهاد فيه ولاقتال ولا تعلق بأي شأن من شؤون الدنيا.

على فصم العلاقة بين مصر وتركيا لتثبيت دعائم احتلالها لمصر لذا كانت الخلافة لديه غير إسلامية، ولا أساس لها من الدين، والدين منها بريء ويجب إلغاؤها وهدمها، ولا جهاد ولا قتال .. الخ...

وحتى لا نظلم الرجل نترك له الفرصة ليتحدث عن الظروف التي دفعته لكتابة هذا البحث والفترة الزمنية التي بدأ فيها الكتابة فيقول:

«وليت القضاء بمحاكم مصر الشرعية منذ ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية (١٩١٥م) فحفزني ذلك إلى البحث عن تاريخ القضاء الشرعي، والقضاء بجميع أنواعه فرع من فروع الحكومة، وتاريخه يتصل بتاريخها اتصالاً كبيراً، وكذلك القضاء الشرعي ركن من أركان الحكومة الإسلامية، وشعبة من شعبها، فلا بد حينئذ لمن يدرس تاريخ ذلك القضاء أن يبدأ بدراسة ركنه الأول، أعني الحكومة في الإسلام، وأساس كل حكم في الإسلام هو الخلافة أو الإمامة العظمى ـ على ما يقولون ـ فكان لا بد من بحثها. شرعت في بحث ذلك منذ بضع سنين، ولا أزال بعد عند مراحل البحث الأولى، ولم أظفر بعد الجهد إلا بهذه الورقات أقدمها على استحياء إلى من يعنيهم ذلك الموضوع...»[1] ولنترك له هو نفسه يحدد لنا قصده من قوله «منذ بضع سنين» فيقول: «وما كان لأمير المؤمنين محمد الخامس سلطان تركيا أن يسكن اليوم يلدز لولا تلك الجيوش التي تحرس قصره، وتحمي عرشه، وتفنى دون الدفاع عنه»[2] ويقول في هامش الصفحة نفسها: «كتبنا ذلك

(١)الإسلام وأصول الحكم ص ١١١ طبعة بيروت.
(٢)المصدر نفسه ص ١٢٩. وتاريخ مقدمة الكتاب أول إبريل ١٩٢٥م.

يوم كانت الخلافة في تركيا، وكان الخليفة محمداً الخامس من الخلفاء»[1].

والخليفة الذي جاء على ذكره هو السلطان محمد رشاد كان خليفة من عام ١٩٠٩م. إلى عام ١٩١٨م. فالشيخ إذن كان يكتب بحثه هذا بين سنتي ١٩١٥ و١٩١٨م. أي في أيام الحرب العالمية الأولى، حيث كان الخليفة آنذاك قد أعلن الجهاد المقدس ضد انكلترا، وشعب مصر مسلم يدين بالولاء الروحي والسياسي للخليفة، ومركز انكلترا في مصر أصبح في غاية الحرج لأن شعب مصر يمقتها ولا يعترف بها، وفي الوقت نفسه عواطفه وارتباطاته مع دولة الخلافة في تركيا ومع إخوانه المسلمين في كل البلدان التابعة لها...

ومن هنا وفي هذا الجو كانت أية دعوة لهدم الخلافة، وإضعاف العلاقة بين شعب مصر وغيره من المسلمين، كانت حتماً تحقيقاً لمصلحة انكلترا وسلاحاً قاطعاً يساندها على تنفيذ سياستها الرامية للاستئثار بالسلطان في مصر وتثبيت دعائم استعمارها لها إلى الأبد، سواء أقصد إلى هذا الشيخ أم لم يقصد، لكن المهم أن آراءه هذه تطابق تماماً الأهداف التي كانت ترمي السياسة الإنكليزية إلى تحقيقها، والتي لم تكن تريد القضاء على الخلافة من أجل أغراضها في مصر فقط، ولكنها كانت ترمي إلى تقسيم الدولة العثمانية وانتهاب ممتلكاتها وتحقيق حلم اليهود بإقامة دولتهم كما ظهر بعد ذلك في الاتفاقات والمعاهدات السرية التي عقدتها أثناء الحرب الأولى (اتفاقية سايكس بيكو مع فرنسا وروسيا القيصرية ـ اتفاقها مع اليهود ووعد بلفور).

---

(١)كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٢٩ طبعة بيروت ١٩٧٢م.

ويظهر إعجاب الشيخ بكتابات المستشرقين جلياً في قوله: «وإذا أردت مزيداً في هذا البحث ـ هدم الخلافة ـ فارجع إلى كتاب «الخلافة» للعلامة السير توماس أرنولد، ففي الباب الثاني والثالث منه بيان ممتع ومقنع»[1] وهذا الكتاب كتبه هذا المستشرق الإنكليزي عقب الثورة الكمالية في تركيا تمجيداً لهذه الخلافة وإبعاد الإسلام عن مجالات الحياة العامة.

وتراه إلى جانب هذا التمجيد لدراسة المستشرق ينتقص علماء هذه الأمة قائلاً: «من الملاحظ البين في تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين أن حظ العلوم السياسية فيهم كان بالنسبة لغيرها من العلوم الأخرى أسوأ حظ، وأن وجودها بينهم كان أضعف وجود، فلسنا نعرف لهم مؤلفاً في السياسة ولا مترجماً، ولا نعرف لهم بحثاً في شيء من أنظمة الحكم ولا أصول السياسة، اللهم إلّا قليلاً لا يقام له وزن إزاء حركتهم العلمية في غير السياسة من الفنون»[2] ويفسر لنا دعواه هذه التي ما نظن أنه جاء بها من عند نفسه، أو بعد مراجعة أمينة منصفة فيقول: «لم يترك علماؤنا أن يهتموا بعلوم السياسة اهتمامهم بغيرها غفلة منهم عن تلك العلوم، ولا جهلاً بخطرها، ولكن السبب في ذلك هو ما نقصه عليك»[3] وما قصه علينا بعد ذلك أن الإسلام دين لا دولة وأن الخلافة

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ١٢٣، وهو مستشرق انكليزي اشترك في تحرير دائرة المعارف الإسلامية ومن كتبه أيضاً الدعوة إلى الإسلام.

(٢) الإسلام وأصول الحكم ص ١٢٧، وانظر كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» للشيخ محمد الخضر حسين ص ٤٢ - ٤٤ لتجد كيف ساق العديد من أسماء الكتب التي ألفها العرب والمسلمون في السياسة وفنونها والحكم وأصوله، وعدد منها ستة وعشرين كتاباً.

(٣) الإسلام وأصول الحكم ص ١٢٨.

لا تقوم إلّا على الغلبة والاستبداد والقوة وسفك الدماء وكأنه يتهم هؤلاء الأعلام بالجبن والخوف أو المداهنة والنفاق والخداع[1].

ولا أدري إن كان صادقاً معتقداً ما يقول أم لا؟ وأمامنا قائمة بكتب الأحكام السلطانية التي لم تترك شاردة ولا واردة إلّا وذكرتها، أليست هذه سياسة؟ فإن لم تكن سياسة فما هي السياسة في نظره؟ أظن أنه سيقول إنها ما يصدره الغرب وما عدا ذلك لا يعتبر بحثاً في سياسة «فما لهم ـ أي علماء المسلمين ـ قد وقفوا حيارى أمام ذلك العلم وارتدوا دون مباحثه حسيرين؟ ما لهم أهملوا النظر في كتاب «الجمهورية» لأفلاطون، وكتاب «السياسة» لأرسطو. . . وما لهم رضوا أن يتركوا المسلمين في جهالة مطبقة بمبادئ السياسة وأنواع الحكومات عند اليونان. . . »[2].

إن كلامه هذا من باب التضليل المؤذي إلى أبعد الحدود لأنه حاول تطبيق مصطلحات لا صلة لها بالإسلام على الأفكار والأنظمة الإسلامية فوقع في هذا الخلط والافتراء وإلّا فيكفي أن نقول له عد إلى كتاب «السياسة الشرعية» الذي عنونه مؤلفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بـ «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» هذا الكتاب الذي لا تعود قيمته لاشتماله على أسس الحكم وقواعده النظرية في الإسلام ـ الجانب السياسي ـ فحسب، وإنما في كونه مشروعاً إصلاحياً إسلامياً كان الباعث على تأليفه تقديم النصح لمن كان متولياً حكم البلاد

---

(١) الإسلام وأصول الحكم انظر الصفحات من ١٢٩ إلى ١٣٣.

(٢) الإسلام وأصول الحكم ص ١٢٨. وهنا لا بد من ذكر أن ابن رشد شرح كتاب أرسطو في السياسة، كما ترجم كتاب «الجمهورية» لأفلاطون وشرحه في كتاب «جوامع سياسة أفلاطون» والفارابي وضع كتابه «المدينة الفاضلة» مقابل كتاب جمهورية أفلاطون.

في ذلك العصر وهو السلطان قلاوون، والذي يذكر التاريخ أن إصلاحاته جاءت مطابقة ما أراده ابن تيمية رحمه الله في كتابه هذا[1].

إن للفكرة الإسلامية أنظمتها الخاصة بها وحدها والتي تختلف من عدة وجوه عن الأنظمة السائدة في الغرب، ولا يمكن لنظام الإسلام أن يدرس ويفهم إلاّ في حدود مصطلحاته ومفاهيمه الخاصة، وأي شذوذ عن هذا المبدأ سوف يؤدي حتماً إلى الالتباس بدلاً من الوضوح والجلاء حول موقف الشرع الإسلامي تجاه كثير من القضايا السياسية والاجتماعية التي تشغل الأذهان في الوقت الحاضر[2].

نجد هذا واضحاً في كتاب الشيخ علي فهو منذ البداية ينظر إلى الإنسان نظرة صليبية تقوم على أساس من مثنوية تفكير القرون الوسطى، وهو التفكير الذي ساد لدى الغربيين عند فصلهم الكنيسة عن الدولة وهذا ما أوقعه في الخلط والخطأ والافتراء. فتراه يقول:

«ولاية الرسول على قومه: ولاية روحية، منشؤها إيمان القلب وخضوعه خضوعاً صادقاً يتبعه خضوع الجسم».

«وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد إخضاع الجسم من غير أن يكون لها بالقلب اتصال» «تلك ولاية هداية إلى الله، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة، تلك للدين وهذه للدنيا، تلك زعامة دينية وهذه زعامة سياسية، وما أبعد ما بين السياسة والدين»[3].

---

(١)أنظر المقدمة التي كتبها الأستاذ محمد المبارك للكتاب المذكور طبع دمشق عام ١٩٦٦م. وانظر أسماء الكتب التي أوردها الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله في كتابه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، المطبعة السلفية ١٩٢٦م. والتي ألفها المسلمون في علم السياسة في العصور المختلفة، وأسماء مؤلفيها.

(٢)انظر «منهاج الإسلام في الحكم» محمد أسد ص ٢٥ وما بعدها.

(٣)انظر «الإسلام وأصول الحكم» الصفحات ١٤٤، ١٥٧، ١٦٧.

وها هي النظرة النصرانية التي استخدمها الشيخ واتكأ عليها في بحثه ظاهرة جلية في قوله: «ولقد كان عيسى بن مريم عليه السلام رسول الدعوة المسيحية وزعيم المسيحيين، وكان مع هذا يدعو إلى الإذعان لقيصر ويؤمن بسلطانه وهو الذي أرسل بين أتباعه تلك الكلمة البالغة: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»(١).

من أجل ذلك اعتسف الشيخ الحكم ولتسويغ هذا الاعتساف نراه يعتسف الدليل له اعتسافاً، فتراه يتسقط أبياتاً من الشعر أو أخباراً في كتب الأدب وغيرهما كما فعل عندما قال: «المذهب الأول أن الخليفة يستمد سلطانه من سلطان الله تعالى وقوته من قوته، ذلك رأي تجد روحه سارياً بين عامة العلماء وعامة المسلمين أيضاً، وكل كلماتهم عن الخلافة ومباحثهم فيها تنحو ذلك النحو وتشير إلى هذه العقيدة» إلى أن يقول: «إنهم جعلوا الخليفة ظل الله تعالى»(٢).

ولم يأت بدليل واحد مما كتبه هؤلاء العلماء ولا حتى من عامة المسلمين، واكتفى بأبيات من الشعر قالها بعض الشعراء من مثل:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار(٣)

و: هشام خيار الله للناس والذي
به ينجلي عن كل أرض ظلامها

و: جاء الخلافة أو كانت له قدراً
كما أتى ربه موسى على قدر

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ١٤٥، والكلمة التي استشهد بها «أعطوا ما لقيصر لقيصر» إنجيل متى الآية ٢١ من الإصحاح الثاني والعشرين.

(٢) الإسلام وأصول الحكم ص ١١٩.

(٣) ابن هانئ الأندلسي يمتدح المعز لدين الله الفاطمي.

وجاء كذلك بما ذكره صاحب العقد الفريد[1] من أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي قال في إحدى خطبه بمكة: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته....».

هذه كل الأدلة التي أوردها ليؤيد فيها اعتسافه القول والحكم ثم يقول بعد ذلك: «وجملة القول إن استمداد الخليفة لسلطانه من الله تعالى مذهب جار على الألسنة فاشٍ بين المسلمين»[2].

ترى هل كان الشيخ يجهل كتب الماوردي أو الغزالي أو الفراء أو ابن حزم أو الكاساني أو ابن تيمية أو غيرهم من علماء المسلمين؟

إن أحكام الشريعة ومذاهب المسلمين لا تؤخذ من أبيات من الشعر لأن الشعر خيال وهو فن لا علم «وأعذب الشعر أكذبه» ولا تؤخذ من كلمة عابرة جاءت في ثنايا خطبة ذكر صاحب العقد الفريد أن الخليفة المنصور ألقاها بمكة، ومن هو أبو جعفر المنصور إنه فرد مسلم يؤخذ من كلامه ويترك، وكلامه حجة عليه لا له، وليس هو أحد أئمة المذاهب أو الفتوى، وعبارته مجازية أو استعارية لا أظن أنه كان يقصد حقيقة لفظها، وأظن أنه قصد بها أن السلطان أو الحاكم العادل يقيم العدل بين الناس وينفذ الشريعة، فهو ينفذ حكم الله وبالتالي فهو بمثابة ظل الله يحتمي به الناس من الظلم، وإلّا فأين هو من أول خليفة في الإسلام من أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما قال[3]: «لست خليفة

---

(١)العقد الفريد ٢/١٧٩.

(٢)الإسلام وأصول الحكم ص ١١٩.

(٣)مقدمة ابن خلدون ص ١٨١.

الله، ولكني خليفة رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم» هذه الكلمة التي تضع حداً بين الحقيقة والهوى. وها هو الماوردي رحمه الله يقول: «فإذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطاً، ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته»[1].

ويقول البغدادي: «قال الجمهور الأعظم من أصحابنا ـ أهل السنة ـ ومن المعتزلة والخوارج والنجدية: إن طريق ثبوتها ـ الإمامة ـ الاختيار من الأمة»[2]. ويقول ابن تيمية شيخ الإسلام عن خلافة الصديق رضي الله عنه «إنها ثبتت بالاختيار من أهل الحل والعقد»[3].

وكذلك يقول الكاساني في بدائع الصنائع، وابن حزم في الفصل، وابن خلدون في مقدمته وغيرهم من علماء المسلمين.

وبعد فأين هو الحق المقدس أو الاستمداد للسلطان من الله تعالى وعلماؤنا يقررون أنه «إذا قام الإمام بما ذكرنا من حقوق الأمة فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وما عليهم، ووجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة ما لم يتغير حاله، والذي يتغير به حاله فيخرج به عن الإمامة شيئان، أحدهما: جرح في عدالته، والثاني: نقص في بدنه»[4].

وهو «الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فإن زاغ عن شيء منها، منع من ذلك وأقيم عليه

---

(١)الأحكام السلطانية ص ٧.

(٢)أصول الدين ٢٧٩.

(٣)منهاج السنة ١/١٣٦.

(٤)الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٧.

الحد والحق، فإن لم يؤمن أذاه إلّا بخلعه، خلع وولي غيره.. والواجب إن وقع منه شيء من الجور وإن قل أن يكلم في ذلك ويمنع منه، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن فلا سبيل إلى خلعه... فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع، وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق»[1].

فالخليفة في الإسلام إذن كما يقول ابن خلدون: «لا يتميز عن سائر المسلمين إلّا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين»[2] ولو أنصف الشيخ لقال: إن عامة علماء المسلمين قالوا بأن مصدر سلطة الخليفة هو اختيار الأمة له بالبيعة الصحيحة أو الانتخاب، لأن هذا هو مذهب الأكثرية العظمى للمسلمين، فهو مذهب أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والخوارج... وهذا عكس ما قاله الشيخ تماماً.

وما ذهبت إليه الأقلية وهم فرقة الشيعة من أن طريق ثبوت الإمامة بالنص، أي أن النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أوصى من بعده لعلي رضي الله عنه ثم أوصى علي لابنه وهكذا، ومع قولهم هذا تبقى سلطة الخليفة مستمدة من الشرع فليس هو إلّا منفذاً للشريعة ويجب عليه أن يلتزمها وإلّا فقد جار ولزم تغييره واختيار غيره من آل البيت[3].

وحتى ينسجم مع نفسه في اتهامه علماء المسلمين بالجبن والخوف ومداهنة الحاكم من أجل أن يظهر نفسه كصاحب رأي حر لا يخشى في

---

(١)الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/١٠٧ وما بعدها.

(٢)المقدمة ٢/٦٨٨ طبعة دار البيان العربي.

(٣)انظر كتاب «الإسلام والخلافة في العصر الحديث» ص ١٨١ وكتاب «النظريات السياسية الإسلامية» للدكتور محمد ضياء الدين الريس رحمه الله.

أن يقـول الحق مهما كلفـه ذلك تـراه يقول: «وقـد كان واجباً عليهم إذ أفاضوا على الخليفة كل تلك القوة أن يذكروا لنـا مصدر تلك القـوة التي زعموها للخليفة، أنى جاءته، ومن الذي حباه بها وأفاضها عليه؟ لكنهم أهملوا ذلـك البحث شـأنهم في أمثـالـه من مبـاحث السيـاسـة الأخرى. . . .»[1] في حين تجده يقول عن نفسه في مقدمة كتابه:

«أشهـد أن لا إلـه إلاّ الله ولا أعبـد إلاّ إيـاه ولا أخشى أحـداً سواه. . .»[2] أي تجن هذا، بل أي افتراء وقد مرت معنا أقوالهم رحمهم الله في هذا المجال، وكيف أنهم وضعوا الخليفة في المكان الذي أرادته له شريعة الله عز وجل.

وتراه بعد ذلك يريد أن يتعالم مظهراً سعة اطلاعـه على النـظريات السياسية لدى مفكري أوروبا فيقول: «مثل هذا الخـلاف بين المسلمـين في مصدر سلطان الخليفة قد ظهر بين الأوروبيين وكان له أثـر فعلي كبـير في تطور التاريخ الأوروبي، ويكاد المذهب الأول يكون مـوافقاً لما اشتهر به الفيلسوف هوبز من أن سلطان الملوك مقدس»[3].

وكل دارس للنظريات السياسية في الغرب يعرف أن نظريـة هوبز[4]

---

(1) الإسلام وأصول الحكم ص ١١٧.
(2) الإسلام وأصول الحكم ص ١١١.
(3) الإسلام وأصول الحكم ص ١٢٠.
(4) توماس هوبز: فيلسوف إنكليزي ولد عام ١٥٨٨ وتوفي عام ١٦٧٩. وهو من فلاسفـة العلمانية المعتدلة التي سادت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتي تعتبر الدين أمـراً شخصياً لا شـأن للدولة فيه، وعلى الدولـة أن تحمي الكنيسة وعلى الأخص في جبايـة ضرائبها، وكـذلك تـدعو إلى ضرورة إخضاع تعاليم النصرانية للعقل ومبادئ الطبيعة. ويرى هوبز أن الـدولة عقـد، وأن عليها أن تسوق الإنسان بالإكراه إلى الانضمام إلى هذا العقد. . . لأنه يرى أن الإنسان أناني بطبعه، على عكس روسو الفرنسي الذي يرى أن طبيعة الإنسان خيرة وأنه اجتماعي بإحساسه. =

هي عكس ما ذهب إليه الشيخ تماماً، فهوبز يرى أن الدولة تقوم بمقتضى أو نتيجة عقد، أي: تعاقد يتم بين الناس والحاكم وهذا هو منشأ نظريات العقد في التاريخ السياسي الأوروبي. فمصدر سلطة الحاكم عند هوبز هو هذا العقد الذي أنشأه الناس وتنازلوا به عن سلطاتهم، أي أن مصدر السلطة عنده أرضي لا سماوي... بل إن نظرية هوبز وجدت لتعارض وتهدم نظرية «الحق الإلهي أو المقدس للملوك»[1] ولقد فرع الشيخ على اتهامه الباطل لعلماء المسلمين وقوله: إنهم يقولون بأن الخليفة يستمد سلطانه من الله عز وجل نتيجة جاءت أشد بطلاناً من سابقتها وأصلها الذي فرعها عليه فتراه يقول: «فالخليفة عندهم ينزل من أمته بمنزلة الرسول ﷺ من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة والسلطان الشامل، وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا ظاهراً وباطناً لأن طاعة الأئمة من طاعة الله وعصيانهم من عصيان الله... وهو - الخليفة - أيضاً حمى الله في بلاده وظله الممدود على عباده، ومن كان ظل الله في أرضه وخليفة رسول الله ﷺ فولايته عامة مطلقة كولاية الله تعالى وولاية رسوله الكريم، ولا غرو حينئذ أن يكون له حق التصرف في رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم، وأن يكون له وحده الأمر والنهي، وبيده

= والدولة عند هوبز هي المصدر الوحيد للقانون والأخلاق وكذلك الدين ومن أقواله بهذا الخصوص «... ولهذا أعلن أن سلطة الدولة العليا لها الحق في أن تفصل هي في بعض التعاليم، هذه التعاليم هل تحتمل بالنسبة لطاعة المدنيين للدولة أم لا؟ فإذا كانت لا تحتمل فيجب تحريم انتشارها».

ومن حرص هوبز على سيادة الدولة يعارض كل اتجاه يعارضها وبالأخص يتجه بمعارضته إلى الكنيسة، والأمر عنده في مخاصمة الكنيسة ليس هو أمر التفتيش عن الحقيقة أو القانون أو الدين.... بقدر ما هو محافظة على قوة الدولة وسيادتها....

(١) انظر تفصيلاً أوفى في كتاب «الخلافة في العصر الحديث» و«النظريات السياسية الإسلامية» للدكتور ضياء الدين الريس رحمه الله.

وحده زمام الأمة . . . . وليس للخليفة شريك في ولايته . . . »[1]. وقارن هذا الذي قاله مع ما قاله الصديق رضي الله عنه يوم بويع بالخلافة : «وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . . . »[2] لتجد أن الذي ذهب إليه الشيخ كله غير صحيح ، فمنزلة الخليفة لا ترقى إلى منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو فرد من المسلمين تختاره الأمة لينفذ شرع الله عز وجل ويحمي البيضة ويذب عن الحمى ، وطاعته مشروطة دائمة بطاعته لله عز وجل ورسوله . . .

وستجد بعد ذلك كله أنه في كل ما صدر لم يصدر إلا عن الإسلام المطلق لأفكار ومصطلحات غريبة عن هذه الأمة ودينها وفكرها طالما سعى الساعون من أعدائنا إلى أن تكون هي المنطلق للحكم على الفكر الإسلامي ونظمه .

وينتقل بعد ذلك الشيخ إلى الجانب العملي التطبيقي في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لينتهي كما انتهى في حديثه السابق عن الخلافة ووجوبها لدى علماء المسلمين ، من أن الدين لا يلتقي مع الدولة ، فيأخذ يسأل أو يتساءل : «هل كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسولاً؟ أم كان رسولاً وملكاً؟ هل كانت المملكة النبوية عملاً منفصلاً عن دعوة الإسلام ، أم كانت جزءاً منها؟ هل كان النبي مؤسساً

(١)الإسلام وأصول الحكم الصفحات ١١٤ ، ١١٥ .

(٢)البداية والنهاية لابن كثير ٥/٢٤٥ ، وقول عمر رضي الله عنه : «وأنا بعد ذلك رجل من عامة المسلمين» .

لدولة سياسية؟ وهل الجهاد كان شيئاً خارجاً عن الرسالة أم مندمجاً فيها؟»[1] إلى آخر هذه التساؤلات المريبة التي ينتهي منها إلى قوله:

«لم يكن ثمة حكومة، ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة، ولا أغراض الملوك والأمراء... ولم يكن هنالك ترتيب حكومي، ولم يكن ثمة ولاة ولا قضاة ولا ديوان...»[2] ويتابع «إنَّما كانت ولاية محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم»[3] حتى يصل إلى القمة في الافتراء فيقول: «إنه ليس القرآن وحده الذي يمنعنا من اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو مع رسالته الدينية إلى دولة سياسية، وليست السنة هي وحدها التي تمنعنا من ذلك، ولكن مع الكتاب والسنة حكم العقل وما يقضي به معنى الرسالة وطبيعتها»[4].

وعندما يشعر بتهافت أقواله وأفكاره، خاصة وأفعال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الجانب وأقواله محفوظة موجودة جعلت الإمام البخاري رحمه الله يفرد كتاباً خاصاً في صحيحه لجميع الأحاديث المتعلقة بشؤون الحكم والخلافة ويسميه «كتاب الأحكام» وكذلك فعل الإمام مسلم رحمه الله أيضاً فيما سماه في صحيحه: «كتاب الإمارة».

حينما يشعر بالتهافت يلجأ إلى التخريجات المخادعة المضللة محاولاً أن يقول: «دعوة دينية» و«زعامة نبوية» و«مملكة نبوية» وذلك من أجل أن يبقى الدين عنده بالمفهوم النصراني الكنسي، وتبقى النظم السياسية

---

(١)الإسلام وأصول الحكم الصفحات ١٤٤، ١٤٧، ١٤٩.

(٢، ٣، ٤) الإسلام وأصول الحكم ص ١٦٧.

خارجة عن نطاقه وليست من طبيعته...

من أجل هذا نراه ينزع من الإسلام سمة القوة والحكومة والنظم السياسية ويجعلها في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقط ومن مستلزمات «الزعامة النبوية» فيقول:

«فهل كان تأسيسه ﴿ﷺ﴾، أم كان جزءاً مما بعثه الله له وأوحى به إليه؟»[1] ويتابع قوله: «إن مقام الرسالة يقتضي لصاحبه سلطاناً أوسع مما يكون بين الحاكم والمحكومين، بل أوسع مما يكون بين الأب وأبنائه، وقد يتناول الرسول من سياسة الدولة مثل ما يتناول الملوك، ولكن للرسول وحده وظيفة لا شريك له فيها...

من أجل ذلك كان سلطان النبي ﴿ﷺ﴾ بمقتضى رسالته سلطاناً عاماً، وأمره في المسلمين مطاعاً، وحكمه شاملاً، فلا شيء مما تمتد إليه يد الحكم إلا وقد شمله سلطان النبي ﴿ﷺ﴾، ولا نوع من الرئاسة والسلطان إلا وهو داخل تحت ولاية النبي ﴿ﷺ﴾ على المؤمنين...[2].

تلك زعامة كانت لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي، ليست لشخصه ولا لنسبه، ولكن لأنه رسول الله... فإذا ما لحق عليه السلام بالملأ الأعلى، لم يكن لأحد أن يقوم من بعده ذلك المقام الديني...»[3] ويجعل الشيخ الخلافة التي أجمع المسلمون على وجوبها «لا دينية» حتى يسوغ ما ذهب إليه من أن ممارساته عليه الصلاة والسلام

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ١٥٥.

(٢) قارن هذا بما نقلناه عنه آنفاً لتجد كيف يناقض نفسه حيث نفى وجود حكومة ودولة وسياسة، ثم عاد ليعترف بوجود الحكومة والرئاسة.

(٣) الإسلام وأصول الحكم ص ١٥٦، ١٧٢.

التي تدخل في الجانب السياسي، من تنظيم للدولة وتعيين للولاة والقضاة وجهاد لأعداء الله تدخل كلها تحت الزعامة النبوية، فتراه يقول:

«طبيعي ومعقول إلى درجة البداهة أن لا توجد بعد النبي زعامة دينية، وأما الذي يمكن أن يتصور ويوجد بعد ذلك، فإنما هو نوع من الزعامة جديد ليس متصلاً بالرسالة ولا قائماً على الدين... هو إذن نوع لا ديني... وإذا كانت الزعامة لا دينية، فهي ليست شيئاً أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية أو السياسية، زعامة الحكومة والسلطان، لا زعامة الدين، وهذا هو الذي كان...»[1].

حتى الجهاد في سبيل الله وقتال أعداء الدعوة لم يسلم من التوقيت[2] عنده بوقت وجوده عليه الصلاة والسلام فتراه يقول:

«ولا يريبنك هذا الذي ترى أحياناً من سيرة النبي «ﷺ» فيبدو لك كأنه عمل حكومي، ومظهر للملك والدولة، فإنك إذا تأملت لم تجده كذلك، بل هو لم يكن إلا وسيلة من الوسائل التي كان عليه «ﷺ» أن يلجأ اليها تثبيتاً للدين وتأييداً للدعوة، وليس عجيباً أن يكون الجهاد وسيلة من تلكم الوسائل»[3].

ونسي ما قاله قبل صفحات قليلة من أن الجهاد وسيلة للتوسع في الملك وتثبيت السلطان: «وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ١٧٤.
(٢) قارن ذلك بالقاديانية ربيبة الانكليز وانظر كتاب «القاديانية ثورة على النبوة والإسلام» للندوي، وكتاب «الفكر الإسلامي الحديث» للبهي. لتجد التطابق واضحاً بين أفكار الشيخ وهذه النحلة المرتدة المارقة.
(٣) الإسلام وأصول الحكم ص ١٦٦.

الـدعوة إلى الـدين، ولا لحمل النـاس على الإيمـان بالله ورسـوله، وإنما يكون الجهاد لتثبيت السلطان وتـوسيع الملك» ونسي أيضـاً ما ذهب إليـه من أن الجهـاد ليس من خصائص الـرسالـة الإلهية بحـال من الأحوال: «وما عرفنا في تاريـخ الرسـل رجلاً حمـل الناس عـلى الإيمان بـالله بحد السيف، ولا غـزا قومـاً في سبيل الإقنـاع بدينـه، وذلك هـو نفس المبدأ الـذي يقرره النبي «ﷺ» فيـما كان يبلغ من كتـاب الله»[1] «وإذا كـان «ﷺ» قد لجأ إلى القوة والرهبـة فذلـك لا يكون في سبيـل الدعـوة إلى الدين، وإبلاغ رسالته إلى العالمين، ومـا يكون لنـا أن نفهم إلا أنه كـان في سبيل الملك. . .»[2] ولا أعرف كيف يوفق الشيخ بين أقواله السابقـة واللاحقة؟ إنـه التخبط والاضطراب والتضليـل المؤذي إلى أبعد الحـدود وإنها محـاولة إخضـاع الإسـلام لآراء غـريبـة عن طبيعتـه أدت إلى هـذا التضاد والتنافر في أقوال الشيخ.

ولم يكتف الشيخ بالمناداة بفصل الدين عن الدولة فقط، بل لا بد من أن يتـابع الأفكـار الكنسية التي تبنـاها أصـلاً ليصل إلى فكـرة فصل الدين عن الدنيا كلها حيث جعل الدين في مقـابلة الدنيـا، فهما ضـدان متنافران ليس لأحدهما علاقة بالآخر، فانظر إليه يقول:

«ذلك من أغراض الدنيا، والدنيا من أولها لآخرها وجميع مـا فيها من أغراض وغايات، أهون عند الله تعالى من أن يقيم على تدبيرها غـير ما ركب فينا من عقول، وحبانا من عواطف وشهوات، وعلمنا من أسماء ومسميـات، هي أهون عنـد الله من أن يبعث لها رسـولاً، وأهون عنـد

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ١٤٧.
(٢) الإسلام وأصول الحكم ص ١٤٨.

رسل الله تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها»[1].

«إن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات، وآداب وعقوبات[2]، فإنما هو شرع ديني خالص لله تعالى ولمصلحة البشر الدينية فقط، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أم لا، فذلك ما لا ينظر الشرع السماوي إليه، ولا ينظر إليه الرسول»[3] أليست هذه الأقوال تتهم رب العزة عز وجل - والعياذ بالله - بالعبث وكذلك رسله؟ فإن لم تكن هنالك فائدة ولا مصلحة دنيوية لشرع الله فلم أنزل؟ إنها النظرة الكهنوتية التي تحتقر الحياة الدنيا نتيجة انحرافها عن الطريق السوي فابتدعت الرهبنة وتعذيب الجسد للوصول إلى ملكوت الله فهل هذا هو الذي يريد أن يصل بنا إليه الشيخ، هل صحيح أن الإسلام لا يهتم بمصالح الحياة ولا إعمار الأرض، هل صحيح أن شرع الله ورسل الله لا تعبأ بالناس، وأن الدين منفصل تماماً عن الدنيا؟.

انظر ما يقوله ابن خلدون رحمه الله وقارن مع ما قاله الشيخ لتعرف الدخل والمكر وفساد الطويَّة: «واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة ومن فقد المطيَّة فقد الوصول. وليس مراده فيما ينهي عنه أو يذمه من أفعال البشر، أو يندب إلى تركه، إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله، إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة، حتى تصير المقاصد كلها حقاً. . .» ويقول رحمه الله: «إذ أحوال الدنيا كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة»[4].

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ١٦٦.

(٢) يوجد إذن في الإسلام معاملات وعقوبات، فمن الذي يشرف على التطبيق ويقوم بالتنفيذ يا شيخ؟؟.

(٣) الإسلام وأصول الحكم ص ١٧٠.

(٤) المقدمة ص ١٨٠.

فتعرف بعد ذلك أي الرأيين أقرب إلى الشريعة والإسلام إذا تذكرت أن الله عز وجل هو الذي جعل الناس خلائف في الأرض ﴿**ثُمَّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**﴾[1] وهو ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾[2] والله عز وجل لا يفعل عبثاً ﴿**أفحسبتم أنَّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾[3].

وإليك ما يقوله الإمام الرازي في تفسيره الكبير للقرآن الكريم من بيان المعنى المراد من الإشارات في بعض الآيات إلى الدنيا: «اعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب». وبين سبب ذلك باستخلاف الله فيها للنوع الإنساني، ولأنها من خلقه وهو لا يفعل العبث جل وعلا، ولأنها نعمة بل هي أصل لجميع النعم. وبين رحمه الله أن المذموم تصريف الحياة فيها إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى.

وها هو الإمام عضد الدين الإيجي يقول: «إنا نعلم علماً يقارب الضرورة أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والجهاد والحدود وإظهار شعار الشرع في الأعياد والجمعات، إنما هو مصالح عائدة إلى الخلق معاشاً ومعاداً»[4].

وها هو الإمام محمد عبده رحمه الله يبين أن أحد أصول الإسلام الأساسية: «الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة»[5] في معرض رده من أن

---

(١) يونس: ١٤.

(٢) الملك: ٢.

(٣) المؤمنون: ١٥.

(٤) المواقف ٤٦٣ وما بعدها.

(٥) الإسلام والنصرانية الصفحات ٧٧ ـ ٨١ ـ ٨٣.

أحد أصول المسيحية ترك الدنيا، وقال: «إن المسلمين يحثهم دينهم ويدفعهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد»[1].

فالدنيا أعظم نعمة في نظر الإسلام إذا صرفت إلى طاعة الله، وكانت صالحة. ومن أجل أغراض الحق «فليست أهون عند الله من أن يبعث لها رسولاً» ومن هنا اقتضت حكمة الله عز وجل أن يرسل رسله بالأديان والشرائع، ليوجه الدنيا إلى الحق والخير والصلاح...

فالدنيا ليست منفصلة عن الآخرة ولا ضدها، والدين كذلك ليس منفصلاً عن الدنيا ولا ضدها، والروح والمادة ليسا منفصلين ولا متضادين، لذا جاء الإسلام نظاماً كاملاً شاملاً للدين والدنيا والروح والمادة، هذا ما بينه القرآن، ودعا إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ووعاه الصحابة ونفذوه، وهذا ما قرره كل علماء الإسلام واعتقده المسلمون...[2].

وينتقل الشيخ بعد ذلك ليتحدث عن الدولة العربية أو الخلافة والحكومة في التاريخ فيقول: «زعامة النبي عليه السلام كانت زعامة دينية، جاءت عن طريق الرسالة لا غير، وقد انتهت الرسالة بموته ﴿ﷺ﴾ فانتهت الزعامة أيضاً، وما كان لأحد أن يخلفه في زعامته، كما أنه لم يكن لأحد أن يخلفه في رسالته[3]» وبعد أن يقول: إن الزعامة بعد النبي ﴿ﷺ﴾ لا دينية يقول: «وإذا أنت رأيت كيف تمت البيعة لأبي بكر، واستقام له الأمر، تبين لك أنها كانت بيعة سياسية ملكية، عليها كل طوابع الدولة المحدثة، وأنها قامت كما تقوم الحكومات على أساس

(١) الإسلام والنصرانية ص ٨٣.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب «الخلافة في العصر الحديث» ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٣) الإسلام وأصول الحكم ص ١٧٤.

القوة والسيف. . . تلك دولة جديدة أنشأها العرب، فهي دولة عربية وحكم عربي. . .»[1].

وقبل أن نضع اليد على تهافت القول وصاحبه نورد فيما يلي شيئاً مما كتبه الدكتور «محمد حسين هيكل» في كتابيه «حياة محمد» و«الصديق أبو بكر» لأنه كان قد تولى في جريدة «السياسة» لسان حال حزب الأحرار الدستوريين قيادة الحملة الصحفية للدفاع عن صديقه الشيخ علي عبد الرازق يوم صدر كتابه عام ١٩٢٥ لنرى كيف أنه عندما دافع كان يدافع لغرض سياسي شخصي، ولم يكن يدافع لأنه يؤمن بصدق وصحة ما قاله الشيخ يقول هيكل: «إنما كانت حكومة أبي بكر حكومة شورى في منشئها، وفي نزعتها، بويع الصديق بالرضى العام، وبويع لصفاته الذاتية ولمكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا لأسرته ولا لعصبية قبيلته، ولم يطلب أبو بكر البيعة لنفسه، بل كان يرشح عمر وأبا عبيدة ليبايع المسلمون أيهما شاؤوا. . . ولقد تم ذلك كله في اجتماع عام هو اجتماع السقيفة، فلما أقبل الناس على البيعة لم يكن المهاجرون أسبق إليها من الأنصار» ويتابع قوله: «هذه بيعة أنشأتها الشورى، فليس انتخاب رئيس الجمهورية في فرنسا بل في أمريكا بأكثر حرية منها، فلما تولى أبو بكر الحكم كانت أول خطبة له موطدة أسس الشورى، مثبتة قواعدها، ألم يقل للناس إثر بيعته العامة: لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم؟[2] ولا

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ١٧٥.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٤٥/٥.

نحسب معنى أبلغ في معاني الشورى من هـذا المعنى»[1] إلى أن يقـول: «ولقـد تولى أبـو بكر قيـادة المسلمين وسيـاسة أمـورهم بعـد رسـول الله باختيار المسلمين ورضاهم».

فأين القوة والسيف الـذي استخدم لتقـوم خلافـة الصـديق عـلى أساسه كما زعم الشيخ؟

ويقـول هيكل مبينـاً أن خلافـة الصـديق خـلافـة عن رسـول الله ﴿ﷺ﴾: «وعهـد أبي بكر يكـاد يكون فـريداً من نـوعه، فهـو الاتصال الطبيعي لعهد الرسول ﴿ﷺ﴾ في السياسة الـدينية والـزمنية»[2] ويتـابع قوله: «ولم يـرد أبو بكـر بأنـه خليفة رسـول الله إلا أنه خلفـه على قيـادة المسلمين وسياسة أمورهم في حدود ما أمـر الله به ومـا نهى عنه، أمـا ما اختص الله به رسوله فيما وراء ذلك فلم يدر بخاطر الصديق أنه خليفة فيه، وكيف يدور ذلك بخاطره ورسول الله خـاتم الأنبياء والمـرسلين»[3] ويصف كيف ساس الصديق الناس بقوله: «لم يكن أبو بكر يصنع شيئـاً كان رسول الله يدعه ولم يكن يدع شيئاً كان رسول الله يصنعه»[4].

وفي كتابه عن «حياة محمد» صلى الله عليه وآلـه وسلم يقرر تـلازم الدين والدولة فيقول بعد أن تحدث عن الهجرة إلى المدينـة المنورة: «هنـا يبـدأ طور جـديد من أطـوار حياة محمـد لم يسبقه إليـه أحد من الأنبيـاء والـرسل، هنـا يبدأ الـطور السياسي الـذي أبدى فيـه محمـد من المهـارة

(١) «الصديق أبو بكر» ص ٣٦٣ - ٣٦٤.
(٢) «الصديق أبو بكر» ص ٧٩ - ٨٠.
(٣) الصديق ص ٣٥٤.
(٤) حياة محمد ٣٧١.

والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشاً ثم يطأطىء الرأس إجلالاً وإكباراً. . . وهذا الطور من حياة الرسول «ﷺ» لم يسبقه إليه نبي ولا رسول، فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس من طريق الجدل ومن طريق المعجزة ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوي السلطان أن ينشروا هذه الدعوة. فأما محمد فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والفاتح، كل ذلك في سبيل الله وفي سبيل كلمة الحق التي بعث بها، وهو قد كان في ذلك كله عظيماً، وكان مثل الكمال الإنساني على ما يجب أن يكون. . .»[1] ثم يقرر قائلاً «إن تاريخ الإسلام خلا من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية، أي: بين الدين والدولة. فاتجاه ذلك مما ترك هذا النزاع في تفكير الغرب وفي اتجاه تاريخه»[2].

وقبل ذلك قال عندما تحدث عن الحضارة الإسلامية: «إن النبي محمداً «ﷺ» أقام دين الحق، ووضع أسس حضارة هي وحدها الكفيلة بسعادة العالم والدين والحضارة اللذان بلغهما محمد للناس بوحي ربه يتزاوجان حتى لا انفصال بينهما. . . فلا عجب اذن أن تكون الحضارة الإسلامية هي الحضارة الجديرة بالإنسانية الكفيلة حقاً بإسعادها» ولقد جاء قوله هذا في معرض رده على الحضارة الأوروبية التي وصفها بقوله: «فهي حضارة مادية تعبد المال وينفصل نظامها الاقتصادي عن المبادىء الخلقية»[3].

---

(١) حياة محمد ص ٢١٨ - ٢٢١.

(٢) حياة محمد ص ٥٠٣.

(٣) حياة محمد ص ٤٩٩.

وأظن الآن أن فيما كتبه الدكتور هيكل وهو من أصدقاء الشيخ ومن المنافحين عنه أبلغ رد على الذين ما يزالون يكابرون بالمحسوس ويريدون لقضية الشيخ الخاسرة أن تنتصر.

والآن أصبح واجباً علينا أن نعود لتفنيد الرأي الذي ألقاه الشيخ على عواهنه، ودحض الشبهة التي طرحها بقوله: «وقد انتهت الرسالة بموته﴿ﷺ﴾ فانتهت الزعامة أيضاً» ماذا يقصد الشيخ بقوله «انتهت الرسالة» ولِمَ لَمْ يوضحه؟ أيقصد الوحي؟ ما أظن أن مسلماً يؤمن بالله واليوم الآخر وله أدنى معرفة في دين الله يقول ببقاء الوحي بعد وفاة الرسول ﴿ﷺ﴾. أما الرسالة فباقية، ما أظن مسلماً يقول بانتهائها، وها هو القرآن الكريم يشهد بواجب البلاغ على المسلمين، وبقاء البلاغ دليل على أن الرسالة لم تنته ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**وما محمد إلا رسول قدخلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين**﴾[3]. وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه: «لقد تركت فيكم بعدي أمرين لن تضلوا أبداً ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه».

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) آل عمران: ١٤٤.

فالرسالة إذن لم تنته، وتبليغها والقيام بحقها وتنفيذها واجب المسلمين في كل عصر من عصورهم، من لدن محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وإلى هذا قصد الخليفة الأول رضي الله عنه عندما قال: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»[1].

وما دامت الرسالة لم تنته، فالزعامة ـ على حد تعبير الشيخ ـ لم تنته أيضاً ويبقى الدين موجهاً سياسة الدولة، وتبقى الدولة منفذة وراعية شرع الله عز وجل؛ وما أصدق قولة سيد قطب رحمه الله في هذا المجال: «والإسلام لا كهانة فيه ولا وساطة بين الخلق والخالق، فكل مسلم في أطراف الأرض وفي فجاج البحر يستطيع بمفرده أن يتصل بربه، والحاكم الإسلامي لا يستمد ولايته من الحق الإلهي ولا من الوساطة بين الله والناس، وإنما يستمد سلطته من الجماعة الإسلامية كما يستمد سلطته من تنفيذ الشريعة التي يستوي الكل في فهمها وتطبيقها متى فقهوها، ويحتكم إليها الكل على السواء.

فليس لرجل الدين من حق خاص في رقاب المسلمين وليس للحاكم في رقابهم إلا تنفيذ الشريعة التي لا يبتدعها هو، بل يفرضها الله سبحانه على الجميع، أما في الآخرة فالكل مصيرهم إلى الله وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً».

وبعد: فإن الدراسة المتأنية لكتاب الشيخ تجعل صاحبها يضع يده على أخبث منهج لتشويه دين الله والقضاء عليه، أخبث منهج ينادي به ويسعى إليه الغربيون واليهود أعداء الإسلام والمسلمين لكي يبقى

---

(١) الطبري ١٩٦/٣.

المسلمون ضعافاً متفككين، لا حول لهم ولا قوة، ولا دولة تجمعهم ولا نظام، فيسهل التغلب عليهم وسوقهم، ويصبحوا فريسة للطامعين والمعتدين، يتبعون كل ناعق.

ويستطيع أن يفسر تلك الثورة العارمة التي قوبل بها كتاب الشيخ بما حوى من آراء تتطابق مع آراء أعداء الأمة، وما رمى إلى تحقيقه من أهداف تتطابق مع الأهداف التي يسعى لها المستعمرون واليهود في خضد شوكة الإسلام واقتسام بلاد المسلمين... ويجعله يتساءل بعد هذا كله، أصحيح أن كاتب هذا الكلام يحمل العالمية في شرع الله عز وجل؟ أصحيح أن لصاحب هذا القول أدنى ارتباط أو إحساس بارتباط بهذه الأمة ودينها وتاريخها ورجالاتها؟ ما أظن ذلك، وهذا يرجح ما كتبه مفتي الديار المصرية الشيخ محمد بخيت المطيعي أثناء نقضه لآراء الشيخ من أنه قد «علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له فيه إلا وضع اسمه عليه فقط، فهو منسوب إليه فقط، ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار، وألبسوه ثوب الخزي والعار إلى يوم القيامة»[1].

ولا يعجب بعد ذلك أن حكمت هيئة كبار العلماء برئاسة شيخ الأزهر الشيخ محمد أبي الفضل بإخراج الشيخ علي عبد الرازق من زمرة العلماء في يوم الأربعاء ٢٢ المحرم ١٣٤٤ هـ/ ١٢ أغسطس ١٩٢٥[2].

وبعد هذا أظن أن الأوان قد حان لنلقي شيئاً من الضوء على الاتجاه المقاوم لفكر المبشرين والمستشرقين في هذا السبيل للتعرف عليه وعلى بعض رجاله.

---

(١) انظر حقيقة الإسلام وأصول الحكم ص ٢٣٧ طبع السلفية.

(٢) انظر المنار المجلد ٢٦ الجزء الخامس ص ٣٨٢.

الفصل الثالث

مع خلف الله في مفاهيمه

وقع بين يدي كتاب «مفاهيم قرآنية» المنشور في سلسلة عالم المعرفة الكويتية في عددها التاسع والسبعين، ذهب فيه واضعه الدكتور محمد أحمد خلف الله إلى أن الإسلام دين لا دولة، وأن سلطة الرسول ﷺ سلطة نبوة ورسالة ليس غير، وأن سلطته التي كان يدير بها شؤون المجتمع الإسلامي كانت مستمدة من الله تعالى، وهي خاصة بمرحلة خاصة من مراحل حياة المجتمع الإسلامي، وهي مرحلة إدارة محمد بن عبد الله ﷺ لهذا المجتمع، ولم تتجاوزها إلى غيرها من المراحل، وأن الله عز وجل لم يبعث محمدًا ﷺ حاكمًا أو رئيس دولة، بدليل أن الله تعالى خاطبه بقوله: ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله**﴾ ولو كان رئيس دولة لوجب أن يقول له: (**فاحكمهم بما أنزل الله**) وأن على المسلمين تبعاً لذلك أن يفرقوا بين صيغة [محمد يحكم الناس] وصيغة [محمد يحكم بين الناس] ويستدل كذلك بقوله تعالى في (سورة الأنعام ـ الآية: ٥٠): ﴿**قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لكم إني مَلَكٌ، إنْ أَتَّبِعُ إلاَّ مَا يُوحىٰ إِلَيَّ**﴾ قائلاً بعد ذلك: محمد عليه السلام رسول من الله وليس مَلِكاً من الملوك، وإن الله عز وجل هو

الذي أمر نبيه ﷺ أن يقول للناس بأنه ليس ملكاً عليهم. . . ويدّعي بعد ذلك أن الدين ليس من القوائم الأساسية التي يقوم عليها بناء القوم أو الأمة؛ بحيث إنه إن لم يوجد الدين تبدد القوم وانفرط عقد الأمة، وأن قوله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ إنما هو خطاب موجه لجماعة بعينها هي جماعة الذين أسلموا واستقروا مع النبي ﷺ في مدينة يثرب. . . وأن الذي انتهى إليه الطوفي بتفكيره البشري واستنباطه العقلي ـ تقديم المصلحة على النص ـ هو الذي جاء الزمن فجعله حقيقة واقعة، وقيمة ثقافية لا تمارَس الحياة اليوم إلّا على أساس منها. . .

وقبل أن نقوم ببيان وجه الحق فيما ذهب إليه، وتدليسه عندما أراد إيهام القارىء بأن هذه المفاهيم مستمدة من القرآن الكريم، فنسبها إليه، وأنه فهم القرآن الكريم على الأساس الذي كانت تفهمه عليه العرب وقت نزوله، من حيث فهم الألفاظ اللغوية والعبارات الأدبية [!!] لا بد من تعريف القارىء بصاحب هذه المفاهيم ليكون على بينة من أمره. . .

من هو؟

في نهاية الأربعينات من القرن العشرين الميلادي كان قد تقدم بأطروحة لنيل رسالة الدكتوراه من كلية الآداب بالقاهرة تحت عنوان «الفن القصصي في القرآن» رُفضت بإجماع أعضاء لجنة المناقشة، ورُدَّت إلى صاحبها الذي تظلم إلى السلطة السياسية يومها، فرفع شكوى إلى وزير المعارف الذي أحال الرسالة إلى الشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ عضو جماعة كبار العلماء في ذلك الوقت، وشيخ الأزهر فيما بعد، وبعد أن درس الشيخ رحمه الله الرسالة وضع تقريراً حولها، جاء فيه قوله:

يذكر المؤلف أن الذي دفعه إلى هذا البحث ما رآه من:

(١) أن المستشرقين يطعنون على القرآن فيما جاء به من قصص وأخبار يرون أنها لا تتفق والواقع التاريخي الذي يعلمون[1]، وأنها تدل على جهل محمد [ﷺ] بالتاريخ.

(٢) وأن المسلمين منذ عهد النفر الأول الذين عاصروا النبي ﷺ قد استقبلوا كل ما ذكر في القرآن على أنه تعبيرات جادَّة، يراد بها معانيها فيما جاءت به، وتأثرت عقليتهم بما جاء من الآيات الدالة على أنه يقص أنباء الغيب التي لم يكونوا يعرفونها، فقالوا بأن أخبار الأولين آية صدق النبي [ﷺ] ودليل إعجاز القرآن...

ثم يجمع بين هؤلاء المسلمين وأولئك المستشرقين في حكم واحد، إذ يقول: [وليس من شك عندي في أن مصدر الخطأ فيما ذهب إليه من آمن بهذه الأشياء وصدّق كل ما فيها من تاريخ، أو من أنكرها وادّعى أنها أخطاء تاريخية أو قصص ملفقة، جهلُ أولئك وهؤلاء أو تجاهلهم لما

---

(١) من المعروف تاريخيًّا أن نشأة حركة الاستشراق في الغرب جاءت بعد فشل الحروب الصليبية، ودخلها اليهود الذين التقت أحقادهم على الإسلام مع أحقاد هؤلاء النصارى الذين تجمعهم بهم الخلفية التوراتية في العهد القديم، من هنا جاءت محاولتهم في الطعن على كتاب الله تعالى والتشكيك بقصصه، لأنه فصّل وأفاض في بيان أخلاق بني إسرائيل، وغدرهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ووصف أحوالهم ومواقفهم في كثير من آياته، كما أنه صحح كثيرًا من المعلومات الواردة في التوراة «العهد القديم» وهتك الستر عن أحبار يهود الذين كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله، يفترون على الله الكذب، ليأكلوا به ثمنًا قليلًا، ﴿إِنَّ هذا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذي هُمْ فِيه يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] فضلًا عن أنه انفرد دون الكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد، بذكر أقوام بادت، كعاد، وثمود، وذكر قصة أصحاب الكهف، وسيل العرم، وأصحاب الأخدود، وهجرة إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام إلى الأرض المقدسة في الحجاز، وقيامهما ببناء الكعبة ـ أول بيت أقيم لعبادته تعالى على الأرض ـ وإقامة إسماعيل عليه الصلاة والسلام هناك... فإذا كان هذا عذرهم، فما هو عذر المؤلف المذكور حيث ذهب إلى مدىً أبعد منهم في الطعن على كتاب الله تعالى بحجة أنه يريد الذبَّ عنه، وكف أذى المستشرقين!!

بين الأدب والتاريخ من علاقات].

هذا هو أهم ما دعاه إلى أن يسلك سبيلاً آخر في فهم القرآن الكريم، سماه «الفن القصصي» ورأيه في ذلك يتلخص في أن [القصص القرآني نمط من أنماط القصة الفنية التي لا يلتزم الفنان فيها الصدق وتحري الواقع، وإنما يعطي نفسه من الحرية ما يغير به ويبدل، ويزيد ويخترع] ولا يقف بهذا عند قصة أو قصص بعينها، ولكنه يطرد هذا الشأن في كل ما قصَّه القرآن الكريم؛ سواء في ذلك ما جاء عن الأنبياء والرسل والأمم، وما جاء عن غيرهم، فيذكر قصة آدم وإبليس، وقصة الخليقة والملائكة، وقصة كلام عيسى عليه السلام في المهد، ونجاته من اليهود، وأنهم لم يصلبوه ولم يقتلوه، وقصة ناقة صالح، إلى غير ذلك... ثم لا يقف عند القصص القرآني، بل يطرد هذا الحكم أيضاً على غيره مما جاء في الكتاب الكريم من أوصاف ونسب - ماضية كانت أم مستقبلة - فيذكر سؤال الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦) ويذكر مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦) يذكر هذا وأمثاله في مجال ما يقرره من أن القرآن الكريم ليس فيه ما يدل على أن حوادث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلي أو لا تلتئم [!!] وأن هذه النسب والأوصاف تصدق أو لا تصدق [!!] وإنما هو أسلوب قصد به غرس فكرة وراء ما تدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة، أو مشايعة الواقع النفسي الذي كان سائداً عند المعاصرين، استغلالاً لمعلوماتهم وإن لم تكن صحيحة في سبيل تأييد الدعوة التي جاء بها؛ وقد زعم أن هذا تأويل للآيات، وبخاصة آيات القصص التي هي عنده من المتشابه، يجري فيها مذهب

السلف ومذهب الخلف من التسليم أو التأويل. . .

ويستند إلى ما عرف عند العرب من التمثيل، وما جاء في بعض تمثيلات القرآن الكريم وتشبيهاته على هذا الأسلوب الذي لا ينظر إلى الواقع وإنما يجري فيه على ما ألفه العرب في هذا الباب، كما زعم أن بعض المفسرين يقولون بمثل هذا إيحاءً أو تصريحاً، وقد ذكر منهم: الإمام الرازي، والإمام محمد عبده. . .

ويقول بعد ذلك الشيخ شلتوت رحمه الله: هذه خلاصة فكرته وأهم عناصرها وعواملها، ولا ريب أن هذه الأسس التي بنى عليها الكاتب بحثه أسس فاسدة. . . ولننظر بعد هذا فيما يرمي به المسلمين منذ العهد الأول، عهد المعاصرة للنبي ﷺ، وعهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس وابن مسعود، ومن إليهم من أصحاب النبي ﷺ رضوان الله عليهم، وأهل اللسان العربي، وقد سمعوا من رسول الله ﷺ، وتلقوا منه هذا الكتاب الكريم، وفهموا معانيه التي يدل عليها بمقتضى أساليب اللغة العربية، وقد طُبعوا عليها، ورضعوا لبانها، واستمر هذا الشأن على جميع عصور المسلمين وعهودهم مدى أربعة عشر قرناً. . ننظر فيما رمى هؤلاء جميعاً به من جهل أو تجاهل أو تأثر بما يخالف الواقع أوقعهم في فهم القرآن الكريم على غير وجهه الذي فطن إليه هو وأمثاله ممن يتناولون القرآن الكريم بمثل هذه الدراسات. . . ثم ختم الشيخ شلتوت تقريره بقوله: وإن القرآن الكريم إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط فقد اقتحمت قدسيته، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه، وزلزلت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار وأحوال مستقبلة: كالبعث، والحشر، والحساب، والجنة

والنار، ونحو ذلك... وانفتح لكل إنسان أن يقول في كل هـذا: ليس له مدلول ولا واقع يدل عليه، ولكنه سيق لمجرد بعث الـرغبة أو الـرهبة أو العـظة، أو تقويم النفس وإصلاح المجتمعـات... سبحـانـك هـذا بهتان عظيم... إن هي إلّا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء، أنت ولينا فاغفـر لنا وارحمنـا وأنت خير الغـافرين... (الهـلال ـ فبرايـر ١٩٨٦م).

رحم الله الشيخ شلتوت حيث لم يـترك في تقريـره الذي كتبه بعد قراءة «الفن القصصي» زيادة لمستزيد، إلّا أن امرًا لا بّد من التنبيـه إليه، لأنه يتعلق بموضوعنا، ألا وهـو ادعاء صـاحب «الفن القصصي» أنه أراد مما كتب الرد على المستشرقين الـذين طعنوا عـلى القرآن فيـما جاء بـه من قصص وأخبار يرون أنها لا تتفق والواقع التـاريخي، فحقق لهم أكثر ممـا يريدون؛ حيث جهَّـل المسلمين الأوائـل جميعهم، وشكك في كتـاب الله تعـالى كله؛ وهؤلاء المستشرقون سـواء أكـانـوا يهـودًا أم نصـارىٰ فـإنهم ينطلقون في طعنهم علىٰ القرآن وعيبهم عليه من خلفية تـوراتية، وحقـد موروث على الإسلام والمسلمين، فكتاب الله تعالى الذي يصفه الـرسول ﷺ بـأن فيه «نبـأ من قبلكم، وخبر مـا بعدكم، وحكم مـا بينكم، وهو الفصـل ليس بالهـزل... وهو حبـل الله المتين، ونـوره المبين، والـذكـر الحكيم، والصراط المستقيم، وهـو الذي لا تـزيـغ بـه الأهـواء... من علم به سبق، ومن قال بـه صدق، ومن حكم بـه عدل، ومن عمـل به أُجر...» فضح تحريف الأحبار والرهبان للتوراة التي أُنزلت عـلى موسى عليه الصلاة والسلام من خلال ما قصه من أنباء السابقـين، فجاء طعن هؤلاء عليه ليصونوا هذه التوراة المحرفة، والتي يشهد بـأنها غير مـوثوقـة السند المؤمنون بها أنفسهم، ومن المعروف أن هناك نسختين للتوراة عند

اليهود؛ واحدة للعبرانيين، وأخرى للسامريين، وكل منها تختلف عن الأخرى في عدد أسفارها، وفي كثير من نصوصها، ولم يكن الأمر عند النصارى ـ وهم من المؤمنين بها ـ بأفضل من اليهود، فهناك طبعتان على الأقل للتوراة، واحدة تستعملها الكنائس البروتستانتية، والأخرى تستعملها الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية وتزيد عن الأولى بأسفار عدة اعتبرها البروتستانت زائفة... وكان يكفي الاعتماد على ما كتبه هؤلاء للرد عليهم والطعن على كتابهم المقدس، وما نظن أن صاحب «الفن القصصي» يجهل هذا؛ بدليل أنه عندما استُكْتِب من قبل «لويس عوض» أيام كان المستشار الثقافي لمؤسسة الأهرام الصحفية في الستينيات من هذا القرن لباب «دائرة المعارف» في صحيفة الأهرام ليكتب مادة «يعقوب النبي» كان جميع ما كتبه حول هذه المادة مستقىً من التوراة، رغم أنه يكتب للمسلمين، ورغم أنه يدّعي في كتاباته أن اعتماده الأساسي على القرآن الكريم... فقد كان مما كتبه في عدد الأهرام الصادر بتاريخ ٣٠ رمضان ١٣٨٤هـ ـ الموافق ١٩٦٥/٢/١م، ما يلي [كان بين الأخوين التوأمين: العيص ـ عيسو ـ ويعقوب تنافس قوي حول من يكون كاهن الأسرة، ومستودع أسرار السماء... وأن العيص نزل من بطن أمه أولاً، واعتُبر لذلك الأبن الأكبر، واستحق لذلك حقوق الأبن الأكبر، وكان من أهمها حسب التقاليد: أن يكون المسؤول الأول عن الأسرة بعد وفاة الوالد، وأن يرث بركة السماء التي ورثها إسحاق عن إبراهيم، والتي تجعل منه كاهن الأسرة، ومستودع أسرار السماء، ومبلِّغ هذه الأسرار للبشرية، ولكن يعقوب كان يطمح إلىٰ هذا المركز الديني، واستطاع بذكائه العملي الخارق أن ينتصر على أخيه بحيلتين، الأولى: حين اشترى منه حقوق البكورية، وأفقده بذلك سنده

الشرعي التقليدي؛ والثانية: حين احتال على أبيه بتدبير من أُمه، وحصل على البركة التي كان من المفروض أن يتلقاها عيسو ـ العيص ـ] ثم يقول: [وفي الطريق إلى الحدود السورية العراقية حيث كان يقيم خاله لابان، رأى يعقوب رؤياه التي عدّها من وَحْيِ السماء، والتي وُعد فيها يعقوب بأن يكون ذلك المكان الذي رأى فيه تلك الرؤيا له ولأبنائه من بعده... أقام يعقوب بعد العودة إلى أرض شكيم ـ نابلس ـ وعاوده الوحي في شكل الرؤى والأحلام، وأخذ يدعو إلى نبذ الأوثان والأصنام وعبادة الواحد الديان، فلم تستجب له القبائل الكنعانية، وناصبته العداوة، ورحل إلى الجنوب وأقام في منطقة بئر سبع، وظلّ هناك إلى أن كانت رحلته إلى مصر مع أبنائه وأحفاده] ويقول الأستاذ محمود محمد شاكر ـ حفظه الله ـ في كتابه [أباطيل وأسمار: ص ٢٧٧] معلقاً: [وهذا الكلام على سقم عبارته، وركاكة ألفاظه، ومشابهته للغة منشورات المبشرين، التي يدسونها في أيدي أطفال الأزقة والحارات خَلْسةً وخِيفَةً وتَرَقُّبًا، يتبرأ بعضه من بعض، ولست أدري كيف يطيق امرؤ مسلم قرأ القرآن العظيم، أو سمع آيات الله تتلى عليه، مما فيه ذكر أنبيائه ورسله، أن يقرأ هذا الضرب الغثّ من الكلام عن نبي من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، فضلاً عن أن يخطّه بيمينه ويستودعه الورق، بل أن يرضى نسبته إلى نفسه، بل أن يذيعه على القراء الذين يعلم أنهم مثله مسلمون؟!] ويتابع الشيخ شاكر قائلاً: [وهذا الكاتب قد استخدم في معرض الحديث عن ثلاثة من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم: «كاهن الأسرة» و«مستودع أسرار السماء» و«مبلغ هذه الأسرار للبشرية» و«المركز الديني» و«الوحي» مفسرًا بأنه الرؤى والأحلام!! وهؤلاء الأنبياء الثلاثة من رسل الله وأنبيائه الذين لا يتم لنا

إيمـان ألاّ بالإيمـان بهم وتولّيهم، والـبراءة ممن يتـبرأ منهم، أو ممن ينسب إليهم من الأفعـال والأعمال والصفـات ما يخل بعصمة الأنبيـاء وحقـوق النبوة. . .] قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُـلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَـلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُلِهِ، لاَ نُفَرِّقُ بَـيْنَ أَحَدٍ من رُسُلِهِ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِـيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥) إذن هو مطلع على التوراة، يتبنى ما فيها ويذيعه عـلى المسلمين ولـو كان فيـه الطعن على أنبياء الله تعالى، وكأن هذا هو الذي جعله يذهب أبعد بكثير من أسـلافه المستشرقـين الذين ادّعى أنـه يريـد الردّ عليهم!! وهـو بعد ذلـك يقـول عن نفسـه في مفـاهيمـه [ص: ٧]: [كنت أول من اقتحم ميـدان الدراسـات القرآنيـة من بين طـلاب قسم اللغة العـربيـة بكليـة الآداب. . . ثم تتـابعت دراساتي القـرآنيـة. . وكـان الأسـاس في هـذه الدراسات: دراسـة المفاهيم. . . أن يُفهم القـرآن الكريم عـلى الأساس الذي كانت تفهمـه العرب وقت نـزوله من حيث فهم الألفـاظ اللغويـة والعبارات الأدبية. . .] أهـذا هو الفهم القـرآني الذي أمـلىٰ هذا الهـراء بحق ثلاثة من أنبياء الله تعالى؟!.

وبعد أن عرفنا الخلفية التي تحركه وتملي عليه، نـأتي على مفـاهيمه والأدلة التي اعتسفها ليبرهن على صحـة هذه المفـاهيم!! إنه في معـرض حـديثه عن أن الإسـلام دين لا دولة، وأن محمـداً ﷺ لم يكن حاكـماً أو رئيس دولة يستدل بقول الله تعالى في سورة الأنعام [الآيـة: ٥٠]: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائنُ الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَكٌ إن أتَّبـع إلاّ ما يـوحى إليَّ﴾ ويقول: محمـد عليه السـلام رسول من الله وليس مَلِكًا من الملوك، والله عز وجـل هو الـذي أمر نبيـه ﷺ أن يقول للناس بأنه ليس ملكاً عليهم] [ص: ١٧].

وهنا نسأل: أهذا هو الأساس الذي يجب أن يفهم القرآن الكريم على ضوئه؟ وهل هذا ما أراده الشيخ أمين الخولي عندما كان يقول ـ على ذمة الكاتب ـ : إن الأستاذ الإمام محمد عبده قد وضع حجر الأساس لهذه الدراسة؛ عندما ذهب إلى أن القرآن الكريم يجب أن يُفهم على الأساس الذي كانت تفهمه العرب وقت نزوله من حيث فهم الألفاظ اللغوية والعبارات الأدبية؟!

ومَنْ مِنَ العرب فهم كلمة «مَلَكٌ» مفرد «ملائكة» على أنها «مَلِكٌ» فالله عز وجل يقول لرسوله ﷺ : ﴿**قل لا أقول لكم عندي خزائنُ الله**﴾ أي: لست أملكها ولا أتصرف فيها ﴿**ولا أعلم الغيب**﴾ أي: ولا أقول لكم: إني أعلم الغيب، إنما ذلك من علم الله عز وجل، ولا أطَّلع منه إلّا على ما أطلعني عليه ﴿**ولا أقول لكم إني مَلَكٌ**﴾ أي: ولا أدّعي أني مَلَكٌ من الملائكة، إنما أنا بشر من البشر يوحى إليّ من الله عز وجل، شرفني بذلك، وأنعم به عليّ، ولست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى من ذلك... [ابن كثير: ٢/١٣٦] فكيف فهم ـ وهو المتخصص بالدراسات القرآنية [!!] ـ أن النبي ﷺ لم يكن حاكمًا ولا رئيس دولة وهو يقول للمشركين من أهل مكة: ﴿وَلَا أَقُولُ لكم إِنِّي مَلَكٌ﴾ إلّا لغاية في نفسه؟!

ويستدل بقصة سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال لربه عز وجل: ﴿**قال: رب اغفر لي وَهَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ [ص: ٣٥] على أن كلمة [مُلْكاً] هنا بسطة الحكم والسلطان والقيادة، وأن الله عز وجل استجاب له فأعطاه ما طلب فكان نبيًا مَلِكًا، أو مَلِكًا نبيًا، واجتمعت في شخصه السلطتان الزمنية والدينية... ـ اليهودية

دين ودولة، والإسلام غير ذلك، فهـو دين فقط (!!) وبما أن محمـداً ﷺ تجـرد عن هذه الصفـة [مَلِك] فهو ليس سـوى نبي رسـول [ص: ١٥ - ١٦] ثم يذكر ما قاله القرآن الكريم على لسـان بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَـرْيَـةً أَفْسَـدُوهَـا وَجَعَلُوا أَعِـزَّةَ أَهْلِهَـا أَذِلَّـةً وَكَـذَلِـكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمـل: ٣٤] ليبرهن عـلى صحة تفسـيره لكلمة [مُلْكـاً] في قولـه تعالى حكاية على لسان سليمان عليه الصـلاة والسلام: ﴿رَبِّ اغفر لي وهَبْ لِي مُلْكـاً﴾.

ولـو أنصف نفسه ـ قبـل قراء مفـاهيمـه ـ لأورد الآيـات المتعلقـة بسليمان عليه الصلاة والسلام في صـورة [ص] كاملة، حيث إن بعضهـا يفسر بعضاً ويوضح المراد من قوله تعالى: ﴿رب اغفر لي وهب لي مُلْكـاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ فقد جـاء بعدهـا مباشرة: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَـادِ. هَذَا عَـطَاؤُنَا فَـامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَـيْرِ حِسَـابٍ﴾ [٣٦ - ٣٩] فليس المقصـود إذن مجـرد السلطة والقيـادة والسلطان، وإنما: الممتلكات والقدرات التي تمتد إلى آفاق لا تصل إليها قدرات أحد من بعده، كتسخير الرياح والجن، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ما رواه مسلم في صحيحـه عن أبي الـدرداء رضي الله عنــه، قـال: [قـام رسول الله ﷺ يصلي، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك» ثلاثاً، ثم قال: «ألعنـك بلعنة الله» ثـلاثاً، وبسط يـده كأنـه يتناول شيئـاً، فلما فرغ من الصلاة، قلنا: يا رسول الله، سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعـك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يـدك. قال ﷺ: «إن عـدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ـ ثـلاث مرات ـ ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامـة ـ ثلاث مـرات ـ فلم يتأخـر،

ثم أردت أن آخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به صبيان أهل المدينة».

أما ما أورده ليعضد المعنى الذي ذهب إليه بأن [مُلْكاً] تعني الحكم والسلطة، من قول الله تعالى على لسان بلقيس: ﴿**إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها**﴾ فقد خانه التوفيق أيضاً في هذا الاستدلال حيث إن بلقيس لما أحست من الملأ من قومها الميل إلى المحاربة، مالت إلى المصالحة لمعرفتها بحقيقة القوة التي يمتلكها سليمان عليه الصلاة والسلام، وأنها ليست قوة بشرية، ورتبت الجواب، فزيفت أولاً ما ذكروه، وأرتهم الخطأ فيه حيث قالت: ﴿**إن الملوك إذا دخلوا قرية**﴾ عنوة وقهرًا﴿**أفسدوها**﴾ خربوها﴿**وجعلوا أعزة أهلها أذلة**﴾ أذلّوا أعزتها، وأهانوا أشرافها، وقتلوا وأسروا، فذكرت لهم سوء عاقبة الحرب، ثم قالت ﴿**وكذلك يفعلون**﴾ أرادت: وهذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير، لأنها كانت في بيت الملك القديم[1] فسمعت نحو ذلك ورأت... ﴿**وإني**

---

(١) لقد فهم المسلمون الأوائل، الذين عاصروا التنزيل، أن الخلافة غير القوة الغاشمة التي تستعبد الناس وتستذلهم، وهي التي عنتها ملكة سبأ بقولها: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها...﴾ أخرج ابن سعد في طبقاته [٣/٢٢١] عن سفيان بن أبي العوجاء، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك؟ فإن كنت ملكًا فهذا أمر عظيم! قال قائل: يا أمير المؤمنين، إن بينها فرقًا؛ قال: ما هو؟ قال: إن الخليفة لا يأخذ إلاّ حقًا، ولا يضعه إلاّ في حق، وأنت بحمد الله كذلك؛ والملك يعسِف الناس، فيأخذ من هذا ويُعطي هذا... فسكت عمر رضي الله عنه.

وفيه أيضاً عن سلمان الفارسي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال له: أملك أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان رضي الله عنه: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهمًا أو أقل أو أكثر ووضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة؛ فاستعبر ـ بكى ـ عمر...

وعند نعيم بن حماد في «الفتن» عن رجل من بني أسد شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أصحابه، وفيهم: طلحة، وسلمان، والزبير، وكعب رضي الله عنهم، فقال: إني سائلكم عن شيء، فإياكم أن تكذبوني وتهلكوا أنفسكم، أنشدكم بالله، أخليفة أنا أم ملك؟... فقال سلمان: يشهد بلحمه ودمه أنك خليفة ولست بملك. فقال عمر: إن تقل =

مُرْسِلَةٌ إليهم بهدية﴾ وإني سأرسل إلى سليمان هدية أختبره بها، فإن كان نبيًّا لم يقبل الهدية، أما إن كان مَلِكـاً قبلها وانصرف، وروي أنها قـالت لقومها: إن كان ملكاً دنيـويّاً أرضـاه المال، وعملنـا معه بحسب ذلـك؛ وإن كان نبيًّا لم يـرضه المـال، وينبغي أن نتبعه عـلى دينه [روح المعـاني: ١٩/١٩٨] ﴿فناظرةٌ بم يرجع المرسلون﴾ أبقبول أم برد؟ وجاءهـا الرد من سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿أتمدونني بمال﴾؟ فما أعطاني الله من المال والدنيا أكثر مما أعطاكم منها وأفضل. . .

وهنـا نسـأل: إلى أي مـدى وصلت سلطة سليـمانْ عليـه الصـلاة والسلام المادية وحكمه المادي؟ وكيف يمكن أن يكون المـراد من دعائـه: رب هب لي حكمًا وسلطة لا ينالهما أحد من بعدي؟ وهل يمكن استجـابة هذا الدعاء إلّا بألّا يبقى حاكم من بعده عـلى وجه الأرض؟ وهـل تحقق مضمون الدعاء بمفهومه على صعيد الواقع، أم أن ما حفظه التاريخ - بل ما أوردته توراة اليهود في هـذا السبيل - ينـاقض ما ذهب إليـه الكاتب؟ حيث يفهم منها أنه في فترة من فتراته كان تابعًا لفرعون مصر، وأنـه ترك دينه اتبع دين زوجته ابنة الفرعون [!!]؟

وكـأن الكاتب يـريـد أن يضرب بعض القـرآن ببعض ليصـل إلى غـايته في فصـل الدين عن الـدولة، ورسـول الله ﷺ، وقد سمـع قومـاً يتـدارؤون في القـرآن - يختصمـون في فهمـه قـال: «إنمـا هلك من كـان قبلكم بهذا، ضربوا كتـاب الله بعضه ببعض، وإنمـا نزل كتـاب الله

= فقد كنت تدخل فتجلس مع رسول الله ﷺ. ثم قال سلمان: وذلـك أنك تعـدل في الرعيـة، وتقسم بينهم بالسويّة، وتشفق عليهم شفقة الرجل على أهله، وتقضي بكتاب الله تعـالى. . . فقال كعب: ما كنت أحسب أن في المجلس أحداً يعرف الملك من الخليفـة غيري، ولكن الله تعالى ملأ سلمان حكمًا وعلمًا، ثم قال: أشهد أنك خليفة ولست بملك. . [أنظر منتخب كنـز العمال: ٤/٣٨٩].

يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردّوه إلى عالمه» [أحمد وابن ماجه].

وهو في سبيل تأكيد ما ذهب إليه، يحرف الكلم عن مواضعه، فتراه يقرر أن كلمة «الحكم» في القرآن الكريم ليس لها المعنى السياسي الذي يعرفه الناس اليوم، وإنما وردت فيه بمعنى القضاء والفصل في الخصومات والمنازعات، ولذلك يقول: [يجب أن نفرق بين صيغة: محمد يحكم الناس، وصيغة: محمد يحكم بين الناس... فالأولى هي التي تصلح لرئيس الدولة، أما الثانية فهي التي تصلح للقاضي، وعبارات القرآن الكريم كلها وردت في الصيغة الثانية: الحكم بين الناس ولم تكن أبداً حكم الناس] وقبل أن نبين زيف دعواه، نسأل: هل كان الرسول ﷺ الذي بين للناس ما نزل إليهم قاضياً مسلمًا إلى جانب رئيس دولة تحكم الأمة بنظام آخر غير النظام الإسلامي، ويسلم له هذا الحاكم بأن يكون من وراء القضاء تشريع آخر غير تشريعه؟ وهل يمكن أن يكون القاضي مسلمًا يحكم بين الناس بشرع الله تعالى إلى جانب حاكم يرفض هذا الشرع أصلاً؟ وكيف يمكن للكاتب أن يوفق بين الأمرين إلاّ إذا أفصح عن غايته في قصر الإسلام على أن يصبح علاقة بين العبد وربه في مجال العقيدة والعبادة، والتحاكم إلى البشر في الشؤون الأخرى؟! وكيف يفسر لنا بعد ذلك قوله تعالى في [سورة النساء: ٦٥]: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾** وقوله تعالى في [سورة المائدة: ٥٠]: **﴿أفحكمَ الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون﴾** ؟وإذا كان الأمر كما ذهبتَ، فكيف تُفسر وصف الله تعالى لذاته **﴿فالله يحكم بينهم﴾**؟ وهل له عز وجل حق السلطة والحكم

والملك أم لا؟ لأنه لم يقل: يحكمهم، وإنما قال: ﴿**يحكم بينهم**﴾ ؟ حيث من المعروف لغة: أن [حَكَمَ] تتعدىٰ باللام، أو [على] أو [في] أو تُسَلِّط على كلمة بين، فيقال: حكم لهم، أو عليهم، أو فيهم، أو بينهم. . . وعلى هذا فإن آيات الحكم في القرآن الكريم تشمل القضاء كما تعني الحكم بالمعنى السياسي المعروف. . . [الأمة: العدد الرابع والخمسون].

ولو كان النبي ﷺ نبيّاً رسولاً ولم يكن حاكمًا، والإسلام دين وليس دولة، فما معنى قول الله عز وجل: ﴿**يأَيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ [النساء: ٥٩].

موقف من السنة:

والملاحظ أن صاحب «المفاهيم» في كل ما قرر لم يرجع إلى سنة رسول الله ﷺ، دون أن يبين سببًا لذلك، إلّا أننا نستطيع تبين السبب من خلال ما صرح به في ندوة مجلة «اللواء الإسلامي» القاهرية الذي نشرته ثم أكدته في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٢/١٢/٩م حيث قالت: [الدكتور خلف الله قال بصوته المسجل عندنا إذا أراد أن يسمعه: تفسير رسول الله للقرآن قول بشر] أي أن: السنة النبوية غير ملزمة؛ بدليل قوله أيضاً: [ما عدا القرآن فكر بشري نتعامل معه بعقولنا. . .] [الوطن الكويتية بتاريخ ١١/١٩ و١٩٨٢/١٢/١٧] وهو بهذا يناقض القرآن الكريم الذي حث على طاعة رسول الله ﷺ، وأنها طاعة لِلَّهِ تعالى ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ [النساء: ٨٠]، وأمر المسلمين أن يأخذوا ما جاء به عليه الصلاة والسلام ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ [الحشر: ٧] وقرر أنه لا ﴿**ينطق عن الهوى. إن هو إلاّ وحي يوحىٰ**﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] وأخبر أنه أوتي القرآن والحكمة﴿**لقد مَنَّ**

اللّهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران: ١٦٤] قال الشافعي رحمه الله: فذكر الله تعالى الكتاب، وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ، وهذا يشبه ما قال والله أعلم، لأن القرآن ذُكِرَ وأُتْبِعَتْهُ الحكمةُ، وذكر الله مَنَّهُ على خلْقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز - والله أعلم - أن يقال: الحكمة هنا إلاّ سنة رسول الله ﷺ؛ وذلك أنها مقرونة مع الكتاب، وأن الله افترض طاعة رسوله ﷺ، وحتّم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لِقَوْلٍ فُرِض إلا لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لما وصفناه من أن الله جعل الإيمان برسوله ﷺ مقروناً بالإيمان به... [الرسالة: ٧٨] ويعلق شيخنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله على قول الشافعي رحمه الله فيقول: وواضح مما ذكره الشافعي هنا رحمه الله أنه يجزم بأن الحكمة هي السنة، لأن الله تعالى عطفها على الكتاب، وذلك يقتضي المغايرة، ولا يصح أن تكون شيئاً غير السنة، لأنها في معرض المِنَّة من الله سبحانه علينا بتعليمنا إياها، ولا يمن إلاّ بما هو حق وصواب، فتكون الحكمة واجبة الاتباع كالقرآن، ولم يوجب علينا إلاّ اتباع القرآن الكريم والرسول ﷺ، فتعين أن تكون الحكمة هي ما صدر عن الرسول ﷺ من أحكام وأقوال في معرض التشريع... وإذا كان كذلك، كان رسول الله ﷺ قد أوتي القرآن وشيئًا آخر معه يجب اتّباعه فيه، وقد جاء ذلك مصرحاً في قوله تعالى في وصف الرسول ﷺ: **﴿يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾**

[الأعـراف: ١٥٧] وما دام اللفظ عـامًّا فهـو شامـل لما يحله ويحـرمه ممـا مصـدره القرآن الكـريم، أو مصدره وحي يـوحيه الله تعـالى إليه، وقـد روى أبـو داود عن المقدام بن معـديكـرب عن الـرسـول ﷺ : «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» [السنـة ومكانتهـا في التشريع الإسـلامي: ٥٠ وما بعدها] وحول وجوب إقامة الدولة المسلمة، روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «. . . ومن مـات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» وروى الشيخان في الحديث المتفق عليـه عن حذيفـة بن اليمان رضي الله عنـه قول رسـول الله ﷺ: «. . . تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» وأحـاديث كثيرة، مثـل: «إذا خرج ثـلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» و«لا يحل لثلاثة يكونون بفـلاة من الأرض إلاّ أمَّروا عليهم» فإذا شرع هـذا لثلاثـة في فلاة أو مسـافرين فشرعيتـه أولى لعدد أكثر يسكنون القرىٰ والأمصار، ويحتاجون لدفع التظالم والفصل في الخصومات. . . [نيل الأوطار: ٨/٤٩٦] ولما سئل ﷺ: ما للخليفة من بعدك؟ قال: «مِثْلُ الذي لي. . . مـا عدل في الحكم وأقسط في القَسْم، ورحم ذا الرحم، فمن فعل غير ذلك فليس مني ولست منه» وقوله عليه الصلاة والسلام أيضاً: لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فأولهـا نقضاً الحكم، وآخرها الصلاة».

وقد فهم أئمة المسلمـين وعلماؤهم ـ ليس من الآيات والأحـاديث فقط بل ومن السنة العملية للرسول ﷺ ـ أن الإسـلام دين ودولة، وأن للرسـول ﷺ وظيفتـين: التبليغ عن الله عـز وجـل، وقـد انتهت هـذه الوظيفة بوفاته ﷺ، والثانية: القيام على أمر الله، وتنفيذ شرعه، وتوجيه سياسة الدولة، وهذه مهمة الخلفـاء من بعده، من هنـا جاء قـول عضد الـدين الإيجي: [هي خلافـة عن الرسـول ﷺ في إقـامـة الـدين وحفظ

حوزة الملة] [المواقف: ٦٠٣] وقول الماوردي: [الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا] [الأحكام السلطانية: ٥] وقول ابن خلدون: [فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا] [المقدمة: ١٨٠].

ولقد أجمع سلف هذه الأمة على أن نصب الإمام واجب شرعًا لا عقلًا - كما قال بعض المعتزلة(١) - واستدلوا بأمور، منها: إجماع الصحابة

---

(١) المعتزلة: فرقة شذت عن أهل السنة والجماعة، حكّموا أهواءهم في الدين، وحسبوا أن ما يقولونه إنما هو حكم العقل، لم يأخذوا الدين مأخذ المستهدي، ولم يعترفوا بأنه نزل هاديًا للعقل، إنما رأوا أن العقل هو المرتبة الأولى في معرفة الخير والشر، ولو كان الأمر كذلك لما اختلفوا هم وتمزقوا شيعاً؛ تحمسوا تحمساً شديداً للجدل النظري، واتسموا بفتور شديد للجانب العملي من الدين، لذلك انصرف عنهم جمهور الأمة، كانوا ما بين شاك بعدالة الصحابة رضوان الله عليهم منذ عهد الفتنة، ومن هؤلاء: واصل بن عطاء؛ وما بين موقن بفسقهم، ومن هؤلاء؛ عمرو بن عبيد؛ وما بين طاعن في أعلامهم متهم لهم بالكذب والجهل والنفاق، ومن هؤلاء: النَّظّام؛ وذلك أوجب ردّهم للأحاديث التي جاءت عن طريق هؤلاء الصحابة، والمعتزلة هم أول من استعدى السلطان على مخالفيهم في الرأي، واعتمدوا القوة الغاشمة للسلطة السياسية لفرض هذه الآراء عليهم، وقد اتصف رؤساء الأعتزال بقلة التدين، وعدم الورع عن ارتكاب بعض المحرمات، فقد روى الجاحظ - وهو من أئمتهم - في كتاب «المضاحك» أن المأمون العباسي - نصيرهم ومضطهد علماء أهل السنة والجماعة في فتنة القول بخلق القرآن - ركب يوماً فرأى ثمامة بن أشرس - من رؤوس المعتزلة - سكران قد وقع في الطين، فقال له: ثمامة؟ قال: إي والله؛ قال: ألا تستحي؟ قال: لا والله؛ قال: عليك لعنة الله؛ قال: تترى ثم تترى... وروى أيضاً أن غلام ثمامة قال له يوماً: قم صلِّ؛ فتغافل ثمامة، فقال له غلامه: قد ضاق الوقت، فقم وصلِّ واسترح؛ فقال: أنا مستريح إن تركتني... [الفَرْق بين الفرق: ١٠٤] ويذكر ابن قتيبة في [تأويل مختلف الحديث: ٢١] عن ثمامة بن أشرس الذي قاد حركة القول بخلق القرآن في عهد المأمون، أنه رأى الناس يوم الجمعة يتعادون - يسرعون - إلى المسجد الجامع لخوفهم فوت الصلاة، فقال لرفيق له: أنظر إلى هؤلاء الحمير والبقر... ثم قال: ماذا صنع ذاك العربي بالناس؟ - يعني رسول الله ﷺ - والمعتزلة هؤلاء هم الذين فتحوا ثغرات في مكانة الصحابة رضوان الله عليهم استطاع أن يلج منها المتعصبون من المستشرقين والمستغربين من أعداء هذا الدين حمى أولئك الميامين، وأن يجرؤوا على رميهم بالكذب والتلاعب في دين الله تعالى، مستندين إلى افتراءات النّظّام وأمثاله عليهم... هؤلاء هم الذين عمل على إحياء فكرهم ولا يزال محمد عمارة وأمثاله - الذين لا يرون في تاريخ هذه الأمة إلّا الثغرات والنقاط السود - لما في ذلك من توهين عرى الإسلام، =

رضوان الله عليهم حيث قدموه على دفن النبي ﷺ [ما أن تحقق الصديق رضي الله عنه من وفاة الرسول ﷺ حتى خرج على الناس يقول لهم: ألا إن محمداً قد مات، ولا بد لهذا الدين من يقوم به، ولم يُدفن عليه الصلاة والسلام حتى أقام المسلمون أبا بكر رضي الله عنه خليفة له] [شرح العقائد النسفية: ١٨١].

ومنها: أن ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب، فسدّ الثغور وإقامة الحدود ونحو ذلك مما يتعلق به حفظ النظام واجب، وهذا الواجب لا يتم إلّا بإمام...

ومنها: وجوب طاعته، وهذا يقتضي وجوب حصوله، وذلك بنصبه، وأن ما أجمعوا عليه من وجوب طاعته بالمعروف شرعاً تقتضي أن نصبه واجب شرعاً... وإذا كان الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلفوا فيما بعد على الخلافة، فينبغي أن نعلم أن الخلاف كان على الشخص الذي يملأ الوظيفة، لا على وجوب الخلافة وفرضية ذلك ووجوب إقامتها... وفي ذلك يقول ابن حزم رحمه الله في [الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٤/٧٨]: [اتفق جميع أهل السنة، وجميع المرجئة، وجميع الشيعة، وجميع الخوارج على وجوب الإمام، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله تعالى، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ، حاشا النَّجِدات من الخوارج فإنهم قالوا: لا يلزم الناس فرض الإمامة، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم، وهذه الفرقة ما نرى بقي منهم أحد، وهم المنسوبون

= والعيب على سلف هذه الأمة، وتشويه صورة جيل القدوة في أذهان الناشئة مما يسهل على أعداء الإسلام من يهود وصليبيين وماركسيين مهمتهم في القضاء على دين الله، واقتسام الأرض الإسلامية!!

إلى نجدة بن عمير الحنفي القائم باليمامة] وفي ردّه عليهم قال: [وقول هذه الفرقة ساقط، يكفي في الرد عليه وإبطاله: أجماع كل من ذكرنا على بطلانه، والقرآن والسنة قد وردا بإيجاب الإمام، من ذلك قوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ مع أحاديث كثيرة صحاح في طاعة الأئمة وإيجاب الإمامة ـ صحيح البخاري: كتاب الأحكام؛ وصحيح مسلم: كتاب الإمارة، ففيهما الكثير من هذه الأحاديث ـ وأيضاً فإن الله عز وجل يقول: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها**﴾ فوجب اليقين بأن الله تعالى لا يكلف الناس ما ليس في طاقتهم واحتمالهم، وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته أن قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام عليهم في الأموال، والجنايات والدماء والنكاح والطلاق، وسائر الأحكام كلها، ومنع الظالم وإنصاف المظلوم، وأخذ القصاص ـ على تباعد أقطارهم وشواغلهم، واختلاف آرائهم، وأمتناع من تحرى في كل ذلك ـ ممتنع غير ممكن، إذ قد يريد واحد أو جماعة أن يحكم عليهم إنسان، ويريد آخر أو جماعة أخرى ألّا يحكم عليهم، إما لأنها ترى في اجتهادها خلاف ما رأىٰ هؤلاء، وإما خلافاً مجرداً عليهم، وهذا الذي لا بد منه ضرورة، وهذا مشاهد في البلاد التي لا رئيس لها، فإنه لا يقام هناك حق ولا حدّ؛ حتى قد ذهب الدين في أكثرها، فلا تصح إقامة الدين إلّا بالإسناد إلى واحد أو إلى أكثر من واحد، فإذاً لا بد من أحد. . .] ولقد فصّل ذلك علماء المسلمين الذين كتبوا في السياسة الشرعية والأحكام السلطانية، مثل: الماوردي، والفراء، وابن خلدون، والغزالي، وابن تيمية، وابن القيم وغيرهم. . . وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: [ويم الله لو أعلم أنه يسوغ لي فيما بيني وبين الله تعالى أن أخلّيكم وأمركم هذا ـ الخلافة ـ وألحق

بـأهـلي لفعلت، ولكني أخـاف ألا يسـوغ ذلـك لي فيـما بيني وبـين الله تعالى. . .].

من هنا نتبين خطأ ما ذهب إليـه صاحب «المفـاهيم» عندمـا قال: [إن عمليـة الاستخلاف لم تكن أبـداً عملية دينيـة، وإنما كـانت عمليـة مدنيـة، وإن الأسـاس الشرعي لها لم يكن أبـداً النصوص القـرآنيـة، أو الأحاديث النبوية القطعية الدلالة والواردة في هذا الشأن. . . وإنما كانت الاجتهـادات العقلية التي بـذلها النـاس. . .] وهو هنـا يخلط بـين أصـل الخلافة ووجوب نصب الإمام؛ الثابت بالنصوص القطعية من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وقد ذكرنا بعضها آنفاً، وبـين طريقـة اختيار الخليفة أو الإمام. . . وهو في هذا كالنصارىٰ [يرى الإسلام دين عبادة، ويريد أن يأخذ بالنظريـات الغربيـة، ويقيم عليها العـروبة، وهـذا يقيم التضاد بين العـروبة والإسـلام] [ندوة القـومية العـربية والإسـلام ص: ٦٧٣] وممـا يؤكد أنـه غربي المنهـج والمنحى والمنزع مـا كتبـه بتكليف من جامعة «برنستون» الأمـريكية حـول «القيم الإسلاميـة والحياة الأدبيـة في مصر الحديثة» فقد جاء فيه قوله: [بدأ القرن التاسع عشر والثقافة مركزة في الأزهر في فروع الـدراسة الإسـلامية التي كـانت تُدَرَّس عـلى مناهـج القـرون الوسـطى، والأدب مقصور عـلى الآفـاق الضيقـة. . . ثم اتجـه النشـاط حيناً في أواسط هـذا القرن إلى حـركـة الـطبـاعـة ونشر الكتب المترجمة عن الغرب في مختلف العلوم، وبدأت ثـروة اللغة العـربية تـزداد بهذه التراجم، وبـدأت عقول المصريـين تتنسم أرواحاً جـديدة من أدب الغرب وثقافته. . .]

الأمة والقومية والدين. . . [1]

يقول صاحب «المفاهيم» في الصفحة الحادية والتسعين: «والأمر الذي أريد أن ألفت إليه ذهن كل قارىء هو أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ إنما كان موجهاً لجماعة بعينها هي جماعة الذين أسلموا واستقروا مع النبي ﷺ في مدينة يثرب» أي: الأنصار والمهاجرون فقط؛ ولم يقل هذا إلّا ليسوغ ما سوّده في الصفحة التي سبقت، حيث قال: «إن الدين ليس من القوائم الأساسية التي يقوم عليها بناء القوم أو الأمة؛ بحيث إنه إن لم يوجد الدين تبدد القوم وانفرط عقد الأمة» ويعقب على هذا كله بقوله في الصفحة الثالثة والتسعين: «وهذا الموقف هو موقف القرآن الكريم، وهو الموقف الذي كان قبل أن يأخذ القوم، وتأخذ الأمة المفاهيم السياسية الحديثة التي جاء بها الفكر السياسي في القرن التاسع عشر - يعني الفكر السياسي الأوروبي - عندما قرر مبدأ القوميات، وأخذت الأمم تتعرف على ذواتها على أساس منه».

فهل إذا عدنا إلى القرآن الكريم نجد هذا الموقف هو موقفه، أم أن الأمر نقيض ذلك، وأن التجمع كان أصلاً على آصرة العقيدة والدين؟!

منذ البداية نقرر أن الأمة في المفهوم الإسلامي «مجتمع يشترك أفراده في العقيدة ومفاهيم الحياة، وفي القيم الخُلقية والمثل الإنسانية، وما يتبع ذلك أو ينبثق عنه من نظم وعادات، أو شعائر وعبادات، سواء

---

(١) أنظر كتاب «الأمة وعوامل تكوينها» لأستاذنا محمد المبارك رحمه الله، وما نشرته له مجلة الأمة حول ذلك في عددها الثالث عشر.

أكانت هذه الأمة قبيلة، حين كان التطور البشري يمر بمرحلة القَبلية، أم كانت الأمة قوماً حين كانت البشرية تمر بمرحلة تكوّن القوميات، أم كانت مجموعة شعوب تجاوزت المرحلتين القبلية والقومية في اتجاه التجمع الإنساني، وهي المرحلة الأحدث والأرقى والأعلىٰ» وقد وصف القرآن الكريم واقع البشرية في تطورها من القبيلة إلى الشعب، أو القوم، ثم التجمع على الصعيد الإنساني العام في قوله تعالى: ﴿**يأيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات: ١٣] «لقد بدأت الآية بمخاطبة الناس جميعاً، وانتهت إلى التعارف الإنساني، ومرت فيما بينهما مرحلتي: القبائل والشعوب» وهذه المرحلة الأخيرة: مرحلة التجمع الإنساني المفتوح لجميع الشعوب والأقوام، هي التي تقابل بعثة خاتم النبيين ﷺ الذي جُعلت رسالته للناس جميعًا: ﴿**يأيُّها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس**﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿**وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. . .

ولو عدنا إلى كتاب الله عز وجل نستعرض كلمة «أمة» لوجدنا أن هذه الكلمة وردت في آيات كثيرة تدل على الجماعة التي تشترك بوجه خاص في عقيدة، أو قيم أخلاقية، أو عمل مشترك. . . ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أُمة**﴾ [النحل: ١٢٠] ذلك أن إبراهيم يختلف عن قومه بعقيدته التي يتميز بها عنهم وينفرد بها، فهم أمة، وهو أمة، هذا مع أنه منهم قوميًّا ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه. . .**﴾ [الزخرف: ٢٦].

- وقوله تعالى: ﴿كلُّ أُمة تُدعى إلى كتابها﴾ [الجاثية: ٢٨] للأمة هنا كتاب مشترك يتضمن عقيدتها وشريعتها ودينها. . .
- وقوله تعالى: ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ [الأنعام: ١٠٨] الآية تدل على اشتراك الأمة في القيم، أي: مقاييس الخير والشر.
- وقوله تعالى: ﴿لكل أُمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه﴾ [الحج: ٦٧] بينت الآية أن بين أفراد الأمة مناسك مشتركة في العبادات.
- وقوله تعالى: ﴿ومن ذريتنا أُمةً مسلمة لك﴾ [البقرة: ١٢٨] وصفت الأمة هنا بأنها مسلمة لله.

من الواضح في هذه الآيات كلها أن الأمة تشترك في عقيدة وقيم، أي: أنها تشترك في دين واحد؛ وليس الاشتراك في واحد منها النسب والأصل والجنس. . . هذا إذا عرفنا أيضاً أن الأمة من الأَمِّ، مصدر أمّ، أي قَصَد؛ فوحدة القصد والاتجاه هي جوهر مفهوم الأمة. . .

وقد تطلق كلمة «أُمة» في القرآن الكريم على طائفة من الناس، وعلى فريق من قوم إذا كانت تجمع أفرادها صفة معنوية تمت إلى الدين بصلة، كقوله تعالى: ﴿أمة قائمة يتلون آيات الله﴾ [آل عمران: ١١٣] وقوله تعالى: ﴿ومن قوم موسى أُمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ [الأعراف: ١٥٩] وقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وعلى هذا نقول: إن الأمة التي عناها القرآن الكريم هي تلك «الجماعة الكبيرة التي تربط بينها العقيدة والدين؛ ورابطة الدين ـ لدى التحليل العلمي لمضمونها ـ هي رابطة في المفاهيم الأساسية والحقائق الكبرى والقيم العليا، وفي الكرامة الإنسانية، وفي التشريع المبني على

الحق، وفي العقيدة المبنية على الحقيقة وعلى التصور الصحيح للوجود؛ هذه الرابطة إذن تكتل حول الحق والحقيقة والخير والفضيلة؛ وكل تكتل آخر هو تكتل مبني على العصبية، أو على الظلم، أو الشر، أو الرذيلة، أو المنفعة المحصورة بفئة خاصة، أو على تصور ناقص للحقيقة والحق».

لذلك جعل القرآن الكريم الاختلاف في العقيدة بين نوح عليه الصلاة والسلام وابنه، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام وأبيه، ومحمد ﷺ وعمه عبد العزى - أبي لهب - سبباً للفصل بينهم في الارتباط الاجتماعي؛ وهذا يجعل رابطة العقيدة والدين أعلا وأوثق، وأولىٰ من رابطة النسب والقومية... وجاء وصفه للمؤمنين بأنهم إخوة ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ [الحجرات: ١٠] وصفاً حصرياً... وأوجب التناصر والموالاة بين المؤمنين بالإسلام دون أي اعتبار للاشتراك في القومية أو عدمه، ومنع مناصرة الكافرين بالإسلام وموالاتهم من دون المؤمنين [الآيات الأخيرة من سورة الأنفال] وجعل الموالاة في الحق الذي أمر به الإسلام، لذا جاء قول الرسول ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعىٰ بذمّتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم» ومنع التوارث بين المسلمين وبين غير المسلمين ولو كانوا من نسب واحد، وشرع التوارث بين المسلمين...

من هنا جاء إطلاق القرآن الكريم على المستجيبين لدعوته ﷺ والمؤمنين به وبرسالته، مهما اختلفت نسبتهم القبلية والقومية «أمة» وهي الأمة المسلمة التي حدَّد القرآن الكريم صفاتها بقوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ [آل عمران: ١١٠] وهذا الكلام ينطبق على المسلمين لا على

غيرهم؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ [البقرة: ١٤٣] والخطاب هنا للمؤمنين بمحمد ﷺ أي: للمسلمين، بدليل أن الرسول ﷺ شهيد عليهم، وهم شهداء على بقية الناس...

أما «القوم» فهم الجماعة التي يجمع بينها أصل مشترك ونسب مشترك، وقد يشتركون في دين واحد وعقيدة واحدة فهم حينئذ «أمة» و«قوم»؛ وقد يختلفون في ذلك... وقد نسب القرآن الكريم الأنبياء إلى أقوامهم، وأقوامهم إليهم: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه**﴾ [هود: ٢٥] ﴿**فقال الملأ الذين كفروا من قومه**﴾ [المؤمنون: ٢٤] ﴿**وإذ قال موسىٰ لقومه**﴾ [البقرة: ٦٧] وأمثال هذه الآيات في القرآن الكريم كثيرة، وهؤلاء الأقوام منهم كافرون بما جاء به أنبياؤهم، ومع ذلك ينسبون إليه، فيقال: إن بني إسرائيل هم قوم موسىٰ، ومثلهم قوم نوح، وإبراهيم، وصالح، وهود، وشعيب... وقد ورد أكثر من مرة ذكر قوم محمد ﷺ، وهم العرب، كقوله تعالى: ﴿**وكذَّب به قومُك وهو الحق**﴾ [الأنعام: ٦٦] ﴿**ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا**﴾ [هود: ٤٩] ﴿**وإنه لذِكْرٌ لك ولقومك**﴾ [الزخرف: ٤٤].

والانتماء إلى قبيلة، أو شعب، أو قوم، أمر قسري، لا يد للإنسان فيه ولا خيار، وهذا الانتماء إلى قومية معينة لا فضل للإنسان فيه، ولا يكسبه مزية «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» ولا يصلح بالتالي لكي يكون مذهباً عقيديًّا، والدعوة إلى القومية في عصرنا أكبر شاهد على ما نقول، فقد انتهى دعاتها ما بين متبنٍّ صراحة للفكر الماركسي، أو الاشتراكي، أو ضمناً، وإن لم يصرِّح، وبين متبنٍّ للفكر

الرأسمالي «الليبرالي». . .

وصاحب المفاهيم هنا يخطىء باستخدام كلمة «الدين» وكان الأولى أن يضع مكانها كلمة «الإسلام» ما دام قد اختار لكتابه عنواناً ألصقه بالقرآن الكريم، والقرآن الكريم هو الكتاب الذي أوحىٰ الله تعالى به لرسوله محمد ﷺ وحوىٰ أصول الإسلام. . . الأمر الذي استتبع لديه قياس «الإسلام» على «اليهودية» و«النصرانية» عند إصداره الحكم الجائر بأن «الدين» ليس من القوائم الأساسية التي يقوم عليها بناء الأمة [!!] وبالتالي الاعتساف في التفسير، عندما قصر معنى قوله تعالى: ﴿**هذه أمتكم أمة واحدة**﴾ على المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة فقط. . . في حين لو عدنا إلى الصحيفة التي وضعها الرسول ﷺ لتنظم العلاقة في الدولة التي أقامها والمجتمع الذي بناه، وكانت نواته في المدينة المنورة، لوجدناها تنص على أن المسلمين «أمة واحدة من دون الناس» وتجعل «العقيدة» هي الرابطة الأولى. . .

والآية القرآنية ﴿**هذه أمتكم أمة واحدة**﴾ التي قصرها على مسلمي يثرب، جاءت في سورة الأنبياء الآية [٩٢] في نهاية استعراض شمل نماذج من الرسل الكرام صلوات الله تعالى عليهم، ومعاناتهم مع أقوامهم في سبيل العقيدة التي آمنوا بها، ودعوا أقوامهم إلى الإيمان بها، وصبرهم على الابتلاء، ورحمة الله تعالى بهم، لتبين أن الأنبياء أمة واحدة، تدين بعقيدة واحدة، وتنهج نهجاً واحداً. . .

وجاءت كذلك في سورة «المؤمنون» الآية [٥٢] تعقيبًا كذلك على نماذج من الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. . . وفي الآيتين كان التأكيد على أن الأنبياء أمة واحدة رغم اختلاف أقوامهم وقبائلهم، ولم يكونوا كذلك إلاّ بالعقيدة الجامعة والعمل الصالح المنبثق عن هذه

العقيدة . . .

النص والمصلحة[1] :

ويصل في «مفاهيمه» في نهاية المطاف إلى القول بتقديم المصلحة على النص مشيداً بالطوفي؛ حيث يقول في الصفحة [١١٤]: [هذا الذي انتهى إليه الطوفي بتفكيره البشري واستنباطه العقلي، هو الذي جاء الزمن فجعله حقيقة واقعة، وقيمة ثقافية لا تمارس الحياة اليوم إلاّ على أساس منها. . .] وقال بأن هناك نصوصاً من القرآن الكريم وردت في بعضها أحكام أصبحت معطلة وينبغي أن تبقى كذلك تحقيقاً للعدل والعدالة، ويضرب لذلك مثلاً بآيات القتال والغنيمة. . . ويقول: إن النص القرآني إن لم يكن قادراً على تحقيق المصلحة في شأنها ـ شأن المعاملات ـ تركناه ولجأنا إلى الفكر البشري (!!؟). . . وينتهي إلى القول بأن مدار النصوص على المصالح، فهي أصل والنصوص فرع (!!) وحينما يقع التعارض بين الأصل والفرع يشطب على الفرع ـ النص ـ ويستغنى عنه بالأصل ـ المصلحة ـ ولقد كان «محمد عمارة» الذي أحيا فكر المعتزلة أصرح منه عندما قال: (إن المصلحة هي المعيار، وإنها مقدمة على النص، ولو كان قرآناً قطعيَّ الثبوت قطعيَّ الدلالة) (القومية العربية والإسلام: ٥٥٤).

والطوفي هذا المشاد به بأن الحياة اليوم لا تمارس إلاّ على أساس ما وصل إليه بتفكيره البشري واستنباطه العقلي في القرن السابع الهجري، هو سليمان بن عبد القوي الطوفي المولود في إحدى قرى بغداد عام (٦٥٦هـ) وهو في أصل مذهبه حنبلي، معدود من أهل السنة والجماعة،

(١) انظر في ذلك ما كتبه أستاذنا الدكتور البوطي في مجلة الأمة في عددها الخامس والخمسين: (ص١٧) حول ذلك؛ وأطروحته للدكتوراه: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية.

غير أنه تشيع بعد ذلك، ثم غالىٰ في تشيعه حتى انحرف إلى الرفض كما نص على ذلك ابن رجب الحنبلي في (ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٦٦ ـ ٣٦٧) بل لقد اشتهر عنه الوقوع في أبي بكر الصديق وأبنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما، وفي غيرهما من جلّة أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم أجمعين. . . رفع أمره إلى القاضي سعد الدين الحارثي، وقامت عليه البينة، فعاقبه بالسجن مدة من الزمن، ولما أطلق سراحه توجه إلى «قوص» وأقام هناك نزيلاً عند بعض النصارىٰ، كما ذكر ذلك ابن العماد في (شذرات الذهب: ٦/٢٣٩) وقد اشمأز من غلوّه وتبرأ من فحش كلامه في حق الصحابة الشيعةُ أنفسهم، فقد ترجم له عبد الحسين شرف الدين العاملي في كتابه (أعيان الشيعة) مستنكراً تطرفه وغلوّه، وكان مما قال عنه: (. . . وسليمان الطوفي من الغلاة الذين لا تزال خصومنا تحمّلنا أوزارهم).

ويقول عنه أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (على أن الرجل باتفاق من عرفوه، أو ترجموا له، كان مضطرب الفكر والسلوك، فلم يستقر على اعتقاد، ولا على منهج، بل كان يتطوح في كثير من المعتقدات والمذاهب والمسائل بين وسائس وأوهام مختلفة تأخذه وترده، وحسبك مصداقاً لذلك قوله عن نفسه:

أشعري حنبلي ظاهري رافضيٌّ، هذه إحدى العبر

ألف كتاباً في شرح الأربعين حديثاً، وأفاض في الكلام عند شرحه لحديث: «لاضرر ولا ضرار» حتى قال: «إن رعاية المصلحة أقوى من الإجماع، ويلزم من ذلك أنها أقوى من أدلة الشرع، لأن الأقوى من الأقوىٰ أقوى. . . » إلى أن يصل به الأمر إلى القول بأن «النصوص مختلفة متعارضة؛ فهي سبب الخلاف في الأحكام المذموم شرعاً، ورعاية

المصالح أمر حقيقي في نفسه، ولا يختلف فيه، فهو سبب الاتفاق المطلوب شرعاً، فكان اتباعه أولى. . .».

فكيف ينعت نصوص القرآن بالتناقض من يكون موقناً بأنه وحي من عند الله عز وجل؟ ولو صحّ أن في نصوص القرآن الكريم تعارضاً وتخالفاً لكان ذلك أكبر دليل على أنها ليست من عند الله تعالى، ولذا نبه الله تعالى عباده إلى أن تناسق القرآن؛ وتوافق نصوصه في الدلالة والأحكام من أكبر الأدلة على أنه من عنده سبحانه، فقال لهم: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ [النساء: ٨٢] وهل من عاقل لا يعلم أن اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم والأئمة في الاجتهاد لا يعني اختلاف النصوص في مدلولاتها، ولكنه يعني أن واحداً غير معين قد وافق الحقيقة وأخطأها الآخرون، وقد رفعت الشريعة عنهم تبعة هذا الخطأ على لسان النبي ﷺ عندما قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد» [متفق عليه] فالصحابة رضوان الله عليهم لم ينبع خلافهم من قوله ﷺ: «ألا لا يصلين أحدكم العصر إلّا في بني قريظة» ولكنه نبع من اختلاف فهم بعض الصحابة له، ولذلك أخرها بعضهم تنفيذاً لحرفية الأمر، ولم يبال في سبيل ذلك بخروجها من الوقت، وصلّاها بعضهم في الطريق تفادياً للوقوع في خطيئتي تأخير الصلاة عن وقتها والتأخر عن الوصول إلى بني قريظة في الوقت المحدد، ولم ينتقد الرسول ﷺ أيًّا من الطرفين. . .

وصاحب «المفاهيم» عندما يقول: (إن النص القرآني إن لم يكن قادراً على تحقيق المصلحة تركناه، ولجأنا إلى الفكر البشري) فحجته في ذلك قول الفقهاء بأن المصلحة تتغير بتغير الأزمان، وهنا لا بد من التنبه

أولاً إلى أن الأحكام التي قصدها الفقهاء، وأنها تتغير بتغير الزمن ليست الأحكام الواردة بصريح القرآن الكريم، ولا تلك التي بينها رسول الله ﷺ ولا التي أنشأها إنشاءً عليه الصلاة والسلام، وإنما هي الأحكام التي لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة، وهي التي قال بها الأئمة بالقياس أو الاستحسان أو الإجماع، ونحو ذلك، أي: الأحكام التي وصل إليها هؤلاء رحمهم الله بتفكيرهم واجتهادهم. . .

وصاحب «المفاهيم» في قوله السالف بدل أن يتهم فهمه للنصوص بالقصور، نراه يتهم النص نفسه بعدم تحقيق المصلحة، لذا يجب أن تُقدم المصلحة عليه وأن يلغى العمل بالنص. . . هكذا، وهنا يبرز تساؤل: أية مصلحة هذه التي تقدم على النص؟ وما المعيار في تحديد كونها مصلحة؟

والأحكام التي قال عنها صاحب «المفاهيم» إنها معطلة، وتمنى أن تبقى معطلة بحجة المصلحة، وضرب لها مثلاً: الأحكام المتعلقة بالقتال والغنيمة والسبي. . . هذه الأحكام داخلة أصلاً فيما يسمى بأحكام الإمامة أو السياسة الشرعية، وهذا يعني أن الخطوط العريضة لهذه المسائل كما يقول الدكتور البوطي: (إنما ثبتت بأحكام تبليغية لا تقبل التبديل والتغيير، أما الوجوه المتعددة المختلفة للتنفيذ، والمحصورة ضمن هذه الخطوط العريضة فأمرها عائد إلى إمام المسلمين، يختار منها ما يرى أنه الأَسَدُّ لمصلحتهم. . . فمشروعية الأسر أثناء الحرب حكم تبليغي ثابت، والوجوه التنفيذية التي تندرج في داخله هي: القتل، والمنّ، والفداء بالمال، والاسترقاق. . . والمصير إلى أحد هذه الوجوه منوط بما يراه إمام المسلمين تبعاً لما تقتضيه مصلحتهم والظرف الذي يمرون به. . . وإذا كان الاسترقاق واحداً من هذه الوجوه، فإن ذلك لا يعني

أنه حكم دوري تنفيذي مستمر على اختلاف الأوضاع والظروف ـ كما قد يتصور بعض الجهال ـ وإنما هو صلاحية احتياطية يعطيها الشارع سبحانه وتعالى لإمام المسلمين، يجدها أمامه عند اللزوم، ومهما كان احتمال الحاجة إلى استعمال هذه الصلاحية ضئيلاً، فإن مقتضى صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، وإمكان استجابتها لكل الظروف الطارئة أن يكون فيها حكم احتياطي يعطي صلاحية التحرك المناسب لإمام المسلمين إذا ما فوجىء الناس بمثل تلك الظروف لسبب من الأسباب. . . وكذلك توزيع الغنائم والأسلاب) وتطبيق ما تدعو إليه المصلحة من هذه الوجوه في نطاق أحكام السياسة الشرعية إنما هو سير وراء دلالة النص، والتزام أمين ودقيق لتعاليم النبي ﷺ وهديه. . . فأعجب لهذا الذي ينسج من عدم معرفته بالفقه وأصوله أوهاماً، ثم يجعلها حيثيات يسوغ لنفسه بها الحكم على النصوص الشرعية بالطيّ والبعد بها عن الاعتبار، ثم يدعو إلى اتخاذ المصلحة التي يراها الناس بأفكارهم ورعوناتهم وأهوائهم وريثاً لها وبديلاً عنها. . . فإذا كان خالق الخلق سبحانه وتعالى من خلال نصوصه التي أوحى بها إلى نبيه ﷺ لا يحقق مصلحة البشرية ـ بزعمهم ـ فكيف يهتدون بفكرهم البشري الشائه إلى التعرف على هذه المصلحة؟ وهل هم في منزلة تجعلهم أكثر إحاطة بمصلحة البشرية من خالقها؟ تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، إن هم إلّا يخرصون.

هذه نماذج لمفاهيم شائهة، ما كان لنا أن نتعرض لها لولا أن نسبها صاحبها، ليروج لها بين المسلمين، إلى قرآننا العظيم الذي لا يأتيه الباطل، فكان لا بد من البيان خروجاً من العهدة وأداءً للأمانة، والله الموفق للصواب.

الفصل الرابع

النقض والرد
أو
الاتجاه المقاوم

تمهيد

لم يتمكن الاستعمار الغربي بمبشريه ومستشرقيه أن ينفرد بالتوجيه والسيطرة الفكرية في العالم الإسلامي على الرغم مما بذل من مال، وربى على يديه من رجال، وما نشر من أفكار وقيم واتبع من أساليب ترمي إلى اضعاف القيم الإسلامية وتيئيس المسلمين من أن يكون لهم وجود كريم وعزيز إلا في ظله وحمايته... بل لقي مقاومة لوجوده وللاتجاه الفكري الذي نماه وتعهده بالرعاية، وهذا دليل حيوية هذه الرسالة، ويهمنا في بحثنا هذا أن نتعرض لهذا الاتجاه المقاوم للفكرة التي نحن بصددها ألا وهي «قضية فصل الدين عن الدولة» إذ ليس من بحثنا التعرض بالتفصيل لهذا الاتجاه الذي سار في طريقين، طريق المقاومة للتخلص من السيطرة السياسية، وطريق نقض ورد الأفكار التي كان التبشير والاستشراق يعملان على ترسيخها وتأمين الأرضية لها، أي:

طريق المقاومة الفكرية للوقوف في وجه الغزو الفكري الذي يمارسه الغربيون على المسلمين.

ولقد رأينا في الفصل السابق أنموذجاً للاتجاه الممالىء للاستعمار الناقل لأفكاره، العامل على نشرها وترسيخها ولو أدى ذلك إلى تشويه الإسلام ومسخه، بل ولو أدى على المدى البعيد إلى زواله والقضاء عليه.

وفي هذا الفصل سنعرض بعض الشيء للاتجاه الآخر، الذي لم ينخدع بالدراسات الاستشراقية، ورفض أن يتنازل عن شيء من دينه مهما كانت النتائج التي سيتحملها من جراء مقاومته وصموده ووقف كالطود يمنع تشويه الإسلام، ويرد عنه غائلة أعدائه. ويمثله علماء هذه الأمة السائرون على هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين نذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر: شيخ الإسلام السابق في الدولة العثمانية الشيخ مصطفى صبري[1] رحمه الله الذي تصدى للكماليين بقلمه، واضطر إلى الهجرة والإقامة في مصر، وترك بلده وداره من أجل هذه العقيدة التي رفض أن يساوم عليها، والشيخ محمد رشيد رضا[2] صاحب المنار وتلميذ الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد الخضر حسين[3] شيخ الجامع الأزهر، والشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله[4] الذي لم يكتف بالرد على المستشرقين وأشياعهم فيما كتبه عنهم في مجلته «حضارة الإسلام» هاتكاً أستارهم، مبيناً تحريفهم، وفضح صرعى

---

(١) انظر كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» وخاصة الجزء الثاني.

(٢) انظر كتابه «الخلافة أو الإمامة العظمى».

(٣) انظر كتابه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم».

(٤) انظر كتابه السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، الدين والدولة في الإسلام.

الفكر الصليبي وتلامذة الدراسات الاستشراقية من متابعيهم، بل قام ليبرهن عملياً على صلة الدين بالدولة، فخاض غمار الحياة السياسية في سورية وأصبح نائباً في مجلسها النيابي وحمل لواء الدعوة داخله إلى ضرورة أن يكون الدستور السوري دستوراً إسلامياً، ولاقى مقاومة عنيفة صمد لها رحمه الله، واستمر على دعوته لتحكيم شرع الله عز وجل حتى وافاه الأجل المحتوم عام ١٩٦٤م، وكانت له اليد الطولى في تأسيس كلية الشريعة بجامعة دمشق، وكان أول عميد لها، وإليه يرجع الفضل في بث الوعي الإسلامي في الجماهير الشعبية، والوعي لمبادىء الإسلام وشمولها، والوعي لمآسي الإسلام في العصر الحديث ونكباته مع الاستعمار الغربي والإلحاد الشرقي والصهيونية.

وعندما خاض غمار الحياة السياسية لم يستغل الدين في سبيل السياسة، بل جعل السياسة خادماً للدين محققاً لأهدافه السامية، ووسيلة لخدمة الشعب وتحريره من الشرور والمفاسد[1].

وسأكتفي بشيء من التفصيل لأصحاب هذا الاتجاه بالشيخ محمد عبده رحمه الله وسبب اختياري له، هو أن معظم الذين حملوا لواء الدعوة لأفكار علي عبد الرازق، وقاموا بالدفاع عنه والوقوف بجانب آرائه، اعتبروه تلميذاً للإمام رحمه الله وأنه لم يتعد فيما قال أو كتب الأفكار التي كان يدعو إليها الإمام الشيخ:

«فلم يكن علي عبد الرازق سوى امتداد متطور للشيخ محمد عبده في الإصلاح الديني، بل إن آراءه في موضوع الخلافة قد كانت في عدد من نقاطها الجوهرية تفصيلاً وبلورة وتطويراً لآراء الأستاذ الإمام في ذات

(١) مجلة حضارة الإسلام العدد الخاص عن الدكتور السباعي رحمه الله. ديسمبر ١٩٦٤.

الموضوع . . . وجريدة التايمز البريطانية تشير إلى هذه الحقيقة فتقول: أما الشيخ علي عبد الرازق فهو خلف الشيخ محمد عبده وقاسم أمين في آرائهم الفكرية. وهي بذلك تحدد مكان كتاب الإسلام وأصول الحكم من حركة الإصلاح الديني التي بدأها الأستاذ الإمام»[1] بل إنه ليذهب إلى القول: «والذي يهمنا هنا هو جانب العلاقة بين علي عبد الرازق ومحمد عبده فكرياً، وتلك الخيوط التي قامت بين أفكار «الإسلام وأصول الحكم» وفكر الأستاذ الإمام في نفس الموضوع، وهي خيوط نراها واضحة، بل على جانب كبير من الوضوح والجلاء . . .»[2].

وأمام هذا التزييف، ومحاولة إيجاد المسوغ الإسلامي لهذه الأفكار المستقاة من الدراسات الاستشراقية التبشيرية رأيت أن أفصل القول بآراء الإمام رحمه الله حتى نضع أيدينا على القول الفصل في هذه القضية.

الشيخ الإمام محمد عبده رحمه الله:

نشأ الشيخ في جو القرية المصرية واتصل في نشأته بكتاب القرية، ثم انتقل بعدها إلى الأزهر حيث تلقى علومه الإسلامية، واتصل في هذه الأثناء بخال والده الشيخ درويش خضر وعن طريقه اتصل بالنظام الصوفي الفكري الإسلامي للسنوسي الكبير والذي كان يقوم على: الاحتكام إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وعدم التعصب لما سواهما . . .[3].

(١) انظر كتاب «الإسلام وأصول الحكم دراسة ووثائق» بقلم محمد عمارة بيروت ١٩٧٢ ص ٣١، وانظر كيف يعتمدون على التايمز الانكليزية لتأييد رأيهم.

(٢) المصدر نفسه ص ٣١.

(٣) الفكر الإسلامي الحديث ص ١١٥ وما بعدها.

وعن طريق الأزهر والزاوية السنوسية تكونت المعرفة لدى الشيخ الإمام.

وبعد أن علم بقدوم جمال الدين الأفغاني إلى القاهرة اتصل به وصحبه في مجالسه وندواته، وكان مع مدرسته السلفية التي تأسست في مصر الأثر الذي تركه جمال الدين رحمه الله فيها.

وعندما خرج الشيخ للحياة العملية لم يترك جانباً من جوانبها الوطنية أو الاجتماعية أو الفكرية وأخيراً التربوية والتوجيهية إلا وتناوله وعمل فيه وترك[1] بصماته عليه، ولو أنه في الفترة الأخيرة من حياته اعتكف وتوفر على الجانب العلمي، ولعل سبب ذلك رأي رآه أو استخلصه من تجاربه في الصراع الوطني ضد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م. ومن اختلافه مع أحمد عرابي وبعض رفاقه حول أسلوب الجهاد ومقارعة المستعمر، ووجد أن الأولى له أن يتوفر على الجانب الإسلامي الفكري والتربوي[2].

وليس من بحثنا التعرض لمثل هذه الأمور، ولكنا سنكتفي بالجانب المتعلق بالدولة وصلتها بالدين، وهل صحيح أن الإمام رحمه الله هو السلف لعلي عبد الرازق فيما ادعاه.

لقد وقف الإمام رحمه الله في وجه الدراسات الاستشراقية، وقام بالرد عليها ونقضها، كأستاذه الإمام الأفغاني، وسنضرب مثلاً لذلك برده رحمه الله على المحاضرة التي ألقاها المستشرق الفرنسي ومستشار

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ١١٨ وتاريخ الأستاذ الإمام ٢/٤٦٩.

(٢) تاريخ الإمام ٢/١٤٢ ـ ١٥٠، والفكر الإسلامي الحديث ص ١١٢ ـ ١١٣.

وزارة الخارجية الفرنسية «رينان» في السوربون بعنوان «الإسلام والعلم» والتي ذهب فيها إلى أن الإسلام لا يشجع الجهود العلمية بل هو عائق لها بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات وإيمان تام بالقضاء والقدر، في حين أن النصرانية تخالف الإسلام في ذلك ولذلك كانت تساعد على العلم وتقدم العلوم.

وانبرى الشيخ الإمام رحمه الله للرد عليه فكان كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» وفي هذا الكتاب نجد أن أفكار الإمام التي عرضها عن صلة الدين بالدنيا تناقض تماماً ما ذهب إليه علي عبد الرازق الذي قطع كل صلة للدين بالدنيا كما رأينا، في حين نجد أن الإمام في معرض رده على النصرانية التي كان أحد أصولها ترك الدنيا فيقول: «على أن أحد أصول الإسلام الأساسية الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة» وأن «الإسلام جمع بين مصالح الدين والدنيا» وبين أن الإسلام بتعاليمه يحث المسلمين ويدفعهم إلى كل ما فيه عزتهم ورفعتهم ومجدهم... [1].

ويقول الإمام رحمه الله في وجوب الخلافة: «لكن الإسلام دين وشرع، فقد وضع حدوداً ورسم حقوقاً، وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله فقد يغلب عليه الهوى وتتحكم الشهوة، فيغمط الحق ويتعدى المعتدي الحد، فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود، وتنفيذ حكم القاضي بالحق، وصون نظام الجماعة، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير، فلا بد أن تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة»[2].

(١) انظر كتاب «الإسلام والنصرانية» من صفحة ٧٧ إلى ٨٣.
(٢) الإسلام والنصرانية ص ٦٥.

والإمام فيما ذهب إليه من أن الإسلام دين وشرع فلا بد من إقامة حكومة إسلامية تنفذ شرع الله عز وجل، ورئيس هذه الحكومة هو الخليفة، يناقض مناقضة كاملة ما جاء به وادعاه على عبد الرازق، فكيف يكون هذا خلفاً لذاك وذاك سلفاً لهذا؟

وها هو رحمه الله يبين أن الحكم في الإسلام يقوم على أساس من الشورى، وأن الشورى واجبة في حق الحكام والمحكومين ويستدل على الوجوب بفعل واحد من الخلفاء الذين وصفهم علي عبد الرازق بأنهم «لا دينيون»، وأن حكمهم لم يقم إلا على القوة والسيف فيقول[1]:

«وإن لنا لدليلاً على وجوب نظام الشورى فيما فعل سيدنا عمر وقومه رضي الله عنهم حيث قام خطيباً بينهم فقال: يا أيها الناس من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقوِّمه، فقام رجل أعرابي فقال: والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا، فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه... إذ ليس معنى تقويم الاعوجاج في هذا إلا التنبيه على الحق والإرشاد إلى الطريق المستقيم.

فما يدل على وجوب التشاور على الحاكم هو: طلب عمر رضي الله عنه تقويم اعوجاجه، وما يدل على وجوبه على المحكوم هو: إجابة الصحابي بقوله: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوَّمناه بسيوفنا. فإنه لا يجوز استعمال القوة إلا بعد الإعذار بالإرشاد والهدى...

أين هذا مما رمى به علي عبد الرازق الخلافة في أنها لم تقم إلا على

---

(١) تاريخ الإمام ٢/١٩٩ فما بعد.

القوة والسيف، وأن الخليفة يستمد سلطانه من الله عز وجل، وهو ظل الله في الأرض... وهل يبقى مجال للقول بالتطابق بين أفكار الإمام وما ادعاه علي عبد الرازق؟ ولنتابع أقوال الإمام رحمه الله في هذا المجال حتى لا تبقى هنالك شبهة لأحد، فها هو رحمه الله يقول: «فالأمة أو نائب الأمة - أهل الحل والعقد - هو الذي ينصبه - الخليفة - والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها»[1]، و«لا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الأفرنج «ثيوقراتيك» أي: سلطان إلهي، فإن ذلك عندهم - النصارى - هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله، وله حق الأثرة والتشريع، وله في رقاب الناس حق الطاعة، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة عند المسلمين بل بمقتضى حق الإيمان»[2].

وكأنه هنا رحمه الله يرد على دعوى الشيخ علي وأمثاله من الذين سيقعون صرعى الأفكار الصليبية، أو من الذين سيسلمون قيادهم الفكري للمبشرين والمستشرقين، ويقومون بمحاولة تطبيق المصطلحات الغربية، ووليدة تلك البيئة على دين الله وشرعه.

ويتابع رحمه الله ليفصل القول في أن الإسلام خلو من السلطة الكهنوتية فتراه يقول: «وليس يجب على المسلم أن يأخذ عقيدته، أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسوله ﴿ﷺ﴾، لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله، وعن رسوله من كلام رسوله، دون توسيط أحد من سلف ولا خلف، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم، فإن لم تسمح حاله

(١) الإسلام والنصرانية ص ٧٠ - ٧١.

(٢) الإسلام والنصرانية ص ٧١.

بالوصول إلى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما، وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجب به، سواء أكان السؤال في أمر الاعتقاد أو في حكم عمل من الأعمال. فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم ـ النصارى ـ بالسلطة الدينية ـ الكهنوتية ـ بوجه من الوجوه...»[1] ثم يقول: «علمت أن ليس في الإسلام سلطة كهنوتية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهي سلطة خوَّلها الله تعالى لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم»[2].

وانظر بعد ذلك إلى ما يقوله الإمام رحمه الله كيف ترك الإسلام الحرية الكاملة للمسلمين من أجل اختيار الحكومة ضمن الحدود الشرعية:

«... فوضح من كل هذا أن تصرف الواحد في الكل ممنوع شرعاً[3]، وأن الرعية يجب عليها أن تجعل الحاكم والمحكوم بحيث لا يخرجان عن حد الشريعة الحقة، وأن الولاة يجب عليهم استشارة ذوي الرأي في مصالح البلاد ومنافع العباد، وأن الشورى من الأمور الشرعية واجبة، فمن رامها فقد رام أمراً شرعياً قضت به الشريعة وحتمته على الحاكم والمحكوم جميعاً، بحيث لو منعناه لاكتسبنا إثماً مبيناً، ومعلوم أن الشرع لم يأت ببيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام، ولا طريقة معروفة للشورى عليهم، كما لم يمنع كيفية من كيفياتها الموجبة لبلوغ المراد منها،

---

(١) الإسلام والنصرانية ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) الإسلام والنصرانية ص ٧٢ ـ ٧٤.

(٣) يقصد الحكم الاستبدادي الثيوقراطي والفردي على حد سواء.

فالشورى واجب شرعي، وكيفية إجرائها غير محصورة في طريق معين، فاختيار الطريق المعين باق على الأصل من الإباحة والجواز كما هو القاعدة في كل ما لم يرد نص بنفيه أو إثباته».[1] ولا أدري بعد هذا كله كيف يمكن لعاقل أن يقول: «إن فكر علي عبد الرازق امتداد متطور لفكر الأستاذ الإمام»[2] ويريد منا أن نصدق قوله، والنصوص التي سبق أن نقلناها من كتاب علي عبد الرازق تشهد وتدل دلالة قاطعة على التضاد بينها وبين ما نقلناه عن الإمام هنا. فالإمام في النصوص المنقولة عنه متابع لإجماع المسلمين في وجوب الخلافة، وفي واجبات الخليفة، وحق الأمة في اختيار حاكمها، وعزله إن فسق أو جار الخ . . .

بل إنه ليحذر الدارسين اليوم من أن يحاولوا تطبيق المصطلحات الغربية على الدين الإسلامي وأنظمته، ويأخذ على أولئك الذين يعتبرون أن نظام الحكم في الإسلام (الخلافة) نظام ثيوقراطي قياساً على المصطلحات الغربية التي وصمت حكم الكهنوت ـ رجال الدين ـ بالثيوقراطية، ويبين لهم أن ذلك غير جائز، وفيه ظلم كبير لشريعة الله عز وجل، وأنه يجب أن لا ينظر إلى الدين نظرة الأوروبيين لدينهم وكنيستهم بكهنوتها واحتكارها حق تفسير كتابها، لأن ذلك يؤدي إلى غمط الحق والانحراف والجور في الحكم على غير الكنيسة . . . لذا تراه رحمه الله يؤكد على هذا المعنى قائلاً: «لا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج: ثيوقراتيك» أي: لا يجوز قياس الإسلام، الدين الذي ارتضاه الله عز وجل للبشرية كلها، على الكنيسة

(١) تاريخ الامام ٢/٢٠٨.

(٢) الإسلام وأصول الحكم دراسة ووثائق ص ٣٤.

النصرانية بتحريفاتها وظلمها وتسلطها على الناس بحجة إرادة الله عز وجل . . .

ومن هذه النقول كلها نستطيع القول ونحن مطمئنون إلى صوابه: إن الأفكار التي دعا الإمام إليها في مجال الخلافة والحكم الإسلامي، لا صلة بينها وبين الأفكار التي ادعاها صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» وكل محاولة لجعل هذه الدعاوى مستمدة من تلك الأفكار تجن على الإمام وتقويله ما لم يقل، وفي الوقت نفسه: محاولة خبيثة لإخفاء الأرضية الصليبية التي قامت عليها تلك الدعاوى بإلباسها القشرة الإسلامية لخداع الأمة عن حقيقتها علها تجد من يقبل بها، ويعمل على نشرها، وفي ذلك خدمة للإرساليات التبشيرية والدراسات الاستشراقية وبالتالي للاستعمار الغربي بشقيه الرأسمالي والماركسي، وتوهين لقوة المسلمين وإضعاف لقيمهم، يجب على المخلصين المؤمنين بهذا الدين أن يعملوا على فضحه وهتك أستاره، **﴿والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل﴾**[1].

والآن بعد أن تبينا الجانب الفكري من القضية، أرى من واجبي التعرف على الجانب السياسي التطبيقي في العالم الإسلامي لهذا الجانب الفكري، وهذا ما سيكون موضوعه الفصل الأول والثاني من الباب الثالث إن شاء الله.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣.

الباب الثالث

القضيّة على الصّعيد السّياسي والتطبيقي

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أتاتورك وإلغاء الخلافة.

الفصل الثاني: مقاومة المسلمين العملية لهدم الخلافة.

الفصل الثالث: المناخ العلماني في العالم الإسلامي.

الفصل الأول

أتاتورك وإلغاء الخلافة

تمهيد

لقد رأينا فيما كتبنا في أول هذا البحث أن الدولة العثمانية كانت كتيبة الصدام الأولى للمسلمين ضد الأطماع الصليبية والصهيونية، وتمكنت من صد الغزوات الصليبية وسحقها، ومنعت الأوروبيين من الوصول إلى الأماكن المقدسة والقضاء على الإسلام والمسلمين، ولم تمكنهم من إعادة هذه البلاد إلى السيطرة الأوروبية التي كان الفتح الإسلامي العظيم قد حرر البلاد منها... من أجل هذا كله ـ كانت ـ مؤامرات الغربيين على هذه الدولة من أجل القضاء عليها كثيرة وكبيرة جداً، يؤكد هذا ما ورد في التقرير الذي وضعه رئيس إرساليات التبشير الألمانية عام ١٩٠٠م «إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائية ولا في مستعمراتنا في آسيا وافريقيا، بل ستكون في المراكز التي يستمد الإسلام منها قوته وينتشر سواء كان في افريقيا أم في آسيا، وبما أن الشعوب الإسلامية تولي وجوهها نحو الآستانة عاصمة الخلافة، فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بفائدة إذا لم نتوصل إلى قضاء لبانتنا فيها... ويجب أن يكون جل ما تتوخاه جمعية إرساليات التبشير

الألمانية هو: بذل مجهوداتها نحو هذه العاصمة وهي قلب العالم الإسلامي»[1].

هذا الحقد الصليبي على عاصمة الخلافة التقى في بدايات هذا القرن أيضاً مع الحقد اليهودي على الإسلام، وبدأ التخطيط المشترك والتعاون التام بين اليهود والصليبيين لقضاء لبانتهم في الدولة الإسلامية بالقضاء على الخلافة وهي العقد الذي ينتظم الشعوب الإسلامية ويقف كالطود حائلاً دون تنفيذ مشاريع التبشير في العالم الإسلامي[2] وكان يحكم الدولة العثمانية آنذاك السلطان عبد الحميد الثاني الذي وصل إلى السلطة في أغسطس ١٨٧٦م. بعد أن تمكن «مدحت باشا اليهودي الماسوني من إدارة عملية عزل السلطان عبد العزيز وقتله وعزل السلطان مراد الخامس وتنصيب أخيه عبد الحميد بعد أن تعهد بالتصديق على الدستور»[3] وحين تسلم السلطة أدرك أن «مدحت ميال للاستبداد، وأن دعوته إلى الحرية خادعة مضللة، وأنه يطالب بالحرية لنفسه ولبني قومه من اليهود وعبيدهم من النصارى ويمنعها عن الآخرين»[4] لذا امتنع السلطان عن مجاراة مدحت باشا في الاستخذاء للغرب، كما لم يطق أن يرى نفوذه وطغيانه بعد أن رآه يعزل السلطان عبد العزيز ويدبر مؤامرة قتله، ثم يعزل السلطان مراد بعد ثلاثة شهور من تنصيبه»[5] وأقدم على عزله في فبراير ١٨٧٧م «ونفيه إلى أوروبا ثم سمح له بالعودة

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي: ص ١٥٧، وهذا ما فعلوه.

(٢) انظر كيف تمزق المسلمون بعد إسقاط الخلافة، وكيف أصبح بعضهم يعادي بعضهم الآخر، وكيف قامت دولة اسرائيل على بقعة مقدسة طاهرة من بقاع العالم الإسلامي.

(٣) تركيا بين جبارين لباسيل دقاق ص ١٦.

(٤) يوميات السلطان عبد الحميد ص ١١٣.

(٥) يوميات السلطان عبد الحميد ص ١٦.

وعينـه والياً عـلى سـورية، وأخيـراً أمـر بـإلقـاء القبض عليـه وتقـديمـه للمحاكمة على جريمة قتل السلطان عبـد العزيـز، وتم الحكم بإعـدامه، لكن السلطان خفف الحكم ونفاه إلى الطائف»[1] حيث مات مخنوقاً.

«وفي تاريخ تركيا الطويل لم يرد عن شخص بأنه ضحى باستقلال تـركيا، ونـادى بوصـاية وانتـداب استعماري غـربي على الشعب الـتركي سوى مدحت باشا الذي أسمته صحـافة الغـرب بأبي الحـرية، وشخص يهودي آخر من بعده هو: «يالمان» صاحب جريدة «وطن» الناطقـة باسم الاستعمار والجالية اليهودية في تركيا»[2].

وبعـد الزيـارة التي قام بهـا هرتـزل زعيم المؤتمـر الصهيـوني الأول المنعقـد في مدينـة بال بسـويسرا ١٨٩٧م للعاصمـة العثـمانيـة في عـامي ١٩٠١، ١٩٠٢م وكان يرافقه عمانوئيل قره صو رئيس الجالية اليهودية في سالونيـك، والحاخـام موشيـه هاليفي عنـد مقابلة السلطان عبـد الحميد حيث عرضوا عليه السماح لليهود باستيطان فلسطين مقابل كميـات كبيرة يدفعها اليهود لخزينة الدولة العثمانية وجيبه الخاص[3] وكان رد السلطان: «إن أرض وطننا لا تباع بالدراهم، إن بلادنا التي حصلنـا على كـل شبر منها ببذل دماء أجدادنا لا يمكن أن نفرط بشبر منها دون أن نبذل أكثر مما بـذلوا من دمـاء في سبيلهـا»[4] ونهض اليهـود وحلفـاؤهم من الصليبيين للإطاحة بالسلطان والقضاء على الخلافة واستخدموا الحـركة المـاسونيـة، ويهود الدونمـة وهم يهود تـظاهروا بـالإسلام بعـد وصولهم من إسبـانيا ـ

---

(١) مذكرات مدحت باشا صفحات: ٢٩، ٦٦، ٨٣.

(٢) عبد الحميد ومعارضوه لمحمد رائف أوغان ص ٢١.

(٣) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص ٢٣١ وما بعدها.

(٤) جواد رفعت أتل خان ص ١٢٤.

الأندلس ـ وتجمعهم فى سالـونيك، زعيمهم: شبتـاي زيفي الذي ادعى أنه المسيح المنتـظر، فاعتقـل وقدم للمحـاكمة، وخـوفاً من القتـل أعلن دخـوله في الإسـلام وتبعه في ذلـك كثير من أتبـاعـه الـذين حملوا أسـماء إسلامية مكنتهم من الوصول إلى أعـلى مناصب الـدولة مما سهل عليهم مهمة التخريب، ومهدوا للقضاء على الخلافة[1].

ولقد نجح يهود الدونمة هؤلاء بمساعدة محافل الماسـون في تكوين: جمعية تركيا الفتاة والتي كان مدحت باشا أول مؤسسيهـا، وتفرع عنهـا: حزب أو جمعية الاتحاد والترقي التي حملت شعار الحرية والإخاء والمساواة والعدالة الذي نقلته عن باريس والثورة الفـرنسية. . .[2] وتلقى رئيسهـا إبـراهيم تيمـو وهـو يهـودي ألبـاني دروس التنـظيم في محـافـل المـاسـون بـإيـطاليـا، ثم شرع في تـأسيس الجمعيـة لتكـون فيـما بعـد الأداة التي استخدمها اليهود في الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني ١٩٠٨م. ونقـل السلطة إلى أيـدي يهـود الـدونمـة وعبيـدهم البسـطاء من الأتـراك المسلمين. . .[3] وقامت تنظيماتها على غـرار تنظيـمات جمعية الفحـامين ـ الكاربوناري ـ الإيطالية الإجراميـة التي شكلها المـاسون في أوائـل القرن التاسع عشر الميـلادي. وتركـز نشاط الجمعيـة في سالـونيك حيث تكـثر محافل الماسون التي يديرها يهود ـ الدونمة وغيرهم من اليهود الـذين ظلوا عـلى يهوديتهم[4]. . . وكـانت اجتماعـات هذه الجمعيـة تعقـد في بيـوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونيـة الإيطاليـة، إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم ـ بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبيـة ـ

(١) العرب والترك جميل بيهم ص ١٩٧.

(٢) كتاب تركية الفتاة تأليف أرنست رامزور، ترجمة الدكتور صالح العلي ص ٤١ ـ ٤٩.

(٣) كتاب تركية الفتاة ص ٥٠.

(٤) كتاب تركية الفتاة ص ١٢٣.

من الخضوع لأوامر القبض التي يصدرها السلطان، ومن تفتيش البوليس لمنازلهم، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية. . . ومن ثم دأب أعضاء هذه الجمعية على الاحتماء بحصانة هؤلاء اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر[1].

و«من الجمعيات الأخرى التي أوجدها اليهود في الدولة العثمانية لتسهيل القضاء على الخلافة «البكتاشية» وهي في ظاهرها طريقة صوفية، أما في حقيقتها فهي فرقة باطنية تسير حسب خطط اليهودية العالمية لهدم الإسلام، وكانت مرتبطة بالماسونية في فرنسا، وكان لها أثر بعيد في زعزعة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، وفي خلق المتاعب له حين كانت تحاول السيطرة على الحكم في ألبانيا. .»[2].

كذلك أثاروا النعرات الإقليمية والدعوات القومية المغرضة لتسهيل الوصول إلى هذا الهدف أيضاً، ومن هذه الدعوات: الدعوة إلى القومية الطورانية وما تبعها بعد انقلاب الاتحاد والترقي من سياسة التتريك للتفريق بين العرب والترك، وكذلك الدعوة المغرضة للقومية العربية التي جاءت صدى للدعوات القومية في أوروبا والتي «استغل اليهود بعض مفكري العرب وأكثرهم من النصارى الذين لم يروا إلا فساد حكومة الخلافة وظلمها، فأبرزوا المساوىء على نطاق واسع، ودعوا إلى القومية العربية بأساليب بعثت الشك في أولئك الدعاة الذين نادوا بتحرير العرب وفصلهم عن الخلافة، مقلدين النزعات القومية التي اجتاحت دول أوروبا في القرن التاسع عشر»[3] ويعترف مؤرخو العرب

(١) مصطفى كمال الذئب الأغبر تأليف أرمسترونج ص ٢٩.

(٢) تركيا الفتاة ص ١٣٠.

(٣) «مصطفى كمال المثل الأعلى» تأليف واجوبرت فون ميكوش ترجمة كامل مسيحية ص ٣٣٠.

من النصارى بأن الرواد الأوائل للحركة القومية كانوا من النصارى، وأنهم تعاونوا مع الماسونية الأوروبية وفروعها ومحافلها في المشرق العربي. . .[1].

وبتضافر هذه العوامل كلها تمكنت القوى المتآمرة صاحبة المصلحة في التخلص من الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني تمهيداً للقضاء على الخلافة الإسلامية، وتحقيق الدولة اليهودية والوطن القومي اليهودي، من تحقيق حلمها الذهبي «انظروا إلى اخوانكم الماسونيين السالونيكيين الذين قاموا بالحركة الدستورية التي قلبت الحكم العثماني في آخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، دون أن ـ تسيل نقطة دم واحدة. . . أجل فبمثل هذا الشعب الماسوني تفخر الماسونية»[2].

بعد هذا كله تمكن مصطفى كمال عند وصوله إلى سالونيك متسللاً عن طريق مصر «حيث دبر له أعوانه إجازة أربعة أشهر قضاها في العمل الجاد لتنظيم الرفاق من الماسون ويهود الدونمة وبعض الضباط المسلمين السذج «من البقاء في سالونيك»، وبعد انتهاء إجازته حاول أن ينقل نهائياً إلى سالونيك، ونجح في ذلك سنة ١٩٠٧ ـ ليكون قريباً من الفتن والأحداث المرتقبة في مكدونية، تلك الأحداث التي مهدت لانقلاب يوليو ١٩٠٨»[3] وتحركت هذه القوات نحو قصر السلطان وتمكنت من تجريده من سلطته «صحيح أن مصطفى كمال[4] لم يكن في

---

(١) يقظة العرب جورج أنطونيوس ص ١٤٩.

(٢) دائرة المعارف الماسونية من كلمة للفيلسوف الماسوني شاريبا ص ١٦٦.

(٣) تركية الفتاة ص، ١٢٠.

(٤) يرجع كثير من المؤرخين أصل مصطفى كمال إلى يهود الدونمة. انظر مجلة الوعي الإسلامي الكويت عدد نوفمبر ١٩٦٥ ص ٦٦.

تلك الأحداث رئيساً لجمعية الاتحاد والترقي التي قادت الثورة، إلا أنه كان من أقوى منظمي النشاط الماسوني اليهودي السري الذي ضمن نجاح الثورة، إضافة إلى أنه كان الضابط الذي قاد هجوماً على القسطنطينية للقضاء على محاولة إخماد الثورة التي قام بها أنصار الخليفة سنة ١٩٠٩»[١].

ولقد كتبت مجلة المنار في عددها الأول عام ١٣٢٩ هـ. قائلة:

«كان السلطان عبد الحميد الثاني عدواً للجمعية الماسونية لاعتقاده أنها جمعية سرية تسعى لإزالة السلطة الدينية من حكومات الأرض، وهو يفتخر بالخلافة الإسلامية ويحرص عليها، وقد تنفس الزمان للماسون بعد الانقلاب الذي كان لهم فيه أصابع معروفة، فأسسوا شرقاً عثمانياً أستاذه الأعظم طلعت بك ناظر الداخلية وأركانه زعماء جمعية الاتحاد والترقي وأنصارها من اليهود وغيرهم.

ولأجل هذا نرى طلعت بك لا يبالي بسخط الأمة ولا برضاها في إدارته التي استغاثت منها المملكة بألسنة ولاياتها كلها إلا ولاية سالونيك وكذا أدرنة، وسالونيك هي الآن مركز السلطة الحقيقية...

إن هؤلاء الزعماء كلهم من شيعة الماسون يجتهدون في نشرها، وجعل رجال الحكومة من أعضائها كما ينشرونها في ضباط الجيش، وقد يكون هذا تمهيداً للفصل بين السياسة والدين[٢] وتجريد السلطان من صفة الخلافة الإسلامية، وأن من لوازم تشيعهم للماسونية قوة نفوذ

---

(١) تركيا الفتاة ص ١٢١، ١٢٣، والذئب الأغبر ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) ولقد تم هذا في مارس ١٩٢٤ عندما أعلن الذئب الأغبر سقوط الخلافة وقيام تركيا العلمانية.

اليهـود فيهم وفي الدولـة، وذلك يفضي إلى فـوز الجمعية الصهيـونيـة في استعمار فلسطين الذي يراد به إعادة ملك اسرائيل وإلى ابتلاع أصحـاب الملايين اليهود لخيرات البلاد».

ونستـدل عـلى النفـوذ اليهـودي والـدور الـذي لعبـوه في قيـام الانقـلاب، في أن الذي كـان يرأس الـوفـد الـذي قـدم للسلطان عبـد الحميد وثيقة العزل: اليهودي الماسوني «قـره صو» الـذي صده السلطان مع هرتزل في المحاولات الصهيونية الأولى معه ليعطيهم فلسطين[١].

«وبدلاً من أن يرى الناس تطبيقاً صادقاً لشعارات الحرية والعدالة والمساواة، أخذوا يواجهون ظلماً وعبودية واستبداداً أضعاف ما كان يؤخذ على العهد الحميدي ثم ضاعت ليبيا واحتلتها إيـطاليا تحت سمـع جمعية الاتحاد والترقي وبصرها، ثم ضاعت مراكش ولم تحرك الجمعيـة ساكنـاً، وكأنها جاءت لتمزيق الإمبراطورية، والقضاء على معاقل الإسـلام معقلاً معقلاً بعد أن كانت تملأ الدنيا صراخاً عن الحريات الضائعـة في الدولـة العثمانية، وعن الاستبداد الحميدي والظلـم والقسوة»[٢].

واستمر أصحاب المصلحة في التخطيط لتمزيق الدولة حتى يسهل اقتسام ممتلكاتها وبالتـالي تحقيق حلم اليهود بـإقامـة دولتهم في فلسطين. وانـدلعت الحـرب العـالميـة الأولى ١٩١٤ وقـرر اليهـود أنـه «لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية بـدخولهـا في حرب أو وقوعها في مشاكل دولية، واعتقدوا أنه لا بد من كسب عـطف الحكومـة الإنكليزية على المسألة الصهيونية»[٣].

(١) كتاب جهاد ناطق عمر مفتي زاده ص ٨.
(٢) مدحت أبو الدستور وخالع السلاطين قدري القلعجي ص ٨٢.
(٣) جريدة فلسطين الصادرة في القدس يوم ١٩٢١/٨/٢٤م.

وزج بالدولة العثمانية فيها، وذاقت مرارة الهزيمة، ودخلت القوات اليونانية أرضها، وبدأت القوى الماسونية السرية تتحرك فدبرت انتصار مصطفى كمال على الجيش اليوناني الذي تغلغل في الأناضول واحتل أزمير(١) لأنه الجواد الرابح الذي يراهنون عليه ليحقق لهم هدم الخلافة وفرط عقد الدولة. . .

وحالما استتب له الأمر شرع ينفذ الخطة الجهنمية التي رسمت له لمحاربة الإسلام وهدم الخلافة فأعلن في أول نوفمبر ١٩٢٢ إلغاء السلطنة، وأبقى الخلافة.

وفي ١٨ نوفمبر ١٩٢٢ خلع وحيد الدين وبويع عبد المجيد.

وفي أغسطس ٢٣ شكل حزب الشعب الجمهوري وأغلب أقطابه من يهود الدونمة والماسون.

وفي ٢٠ أكتوبر ١٩٢٣ أعلن الجمهورية التركية، وأقدمت الجمعية الوطنية التركية التي شكلها على انتخابه رئيساً للجمهورية.

وفي ٢ مارس ١٩٢٤ ألغى الخلافة التي طالما كانت خنجراً في صدر أعداء الإسلام(٢).

وحتى تتبين وجه الحق في هذه المسألة فاسمع ما يقوله جميل بيهم:

«ومن مستشاريه: رشدي آراس وزير الخارجية الذي صرح باعتزازه لأنه ينحدر من صلب أجداد يهود. ولأنه يعطف على الصهيونية وأهدافها» (٣) وما يكتبه عنه آرمسترونج الإنكليزي والمعجب به: «فقد كان بفطرته ثائراً لا يحترم ديناً أو إنساناً أو وضعاً من الأوضاع، ولا

(١) انظر كتاب جهاد ناطق ص ١٠.

(٢) ترك وأتاتورك ص ١٨ ـ ٢٠.

(٣) العرب والترك ص ١٩٧.

يقدس شيئاً على الإطلاق. . .»[1] ويقول: «وكان يجتمع كل ليلة بثلاثة أشخاص ينهون إليه ما عندهم من أنباء، ويتلقون الأوامر لإدارة دفة الحكم وهم: عصمت الذي اختص بشؤون الحكومة والجمعية الوطنية، وفوزي الذي اختص بشؤون الجيش، وظيا صفوت اليهودي الذي شغل منصب السكرتير العام لحزب الشعب الحاكم ـ العقل المفكر والمدبر للسياسة ـ ويصفه آرمسترونج قائلاً: وهو يهودي قدير حاضر البديهة، كان يسرد على مسامعه أنباء اليوم الهامة وشؤون الحزب»[2].

وانظر ما يقوله كاتب يهودي وهو إيلي ليفي أبو عسل:

«كان من طلائع أعمالِ حاييم ناحوم أفندي الجليلة[3] ريثما تبوأ السلطة الروحية ـ حاخام اليهود في تركيا ـ أنه جاهد مع المسيو ستراوس ومورجانتو سفيري الولايات المتحدة جهاد الأبطال في القضاء على الجواز الأحمر الذي وضع خصيصاً لتحديد المهاجرة في تركيا ـ أيام عبد الحميد ـ.

ثم أوفدته الحكومة التركية ـ مصطفى كمال ـ لما لها من الثقة الغالية به عقب الهدنة إلى لاهاي للقيام بتمثيل تركيا، ثم غادر هذه المدينة وقدم باريس حيث وكلت إليه سفارة تركيا تمثيل الحكومة التركية في مؤتمر لوزان».

وكان هو الذي وضع شروط معاهدة لوزان واشترط فيها إلغاء الخلافة الإسلامية ولقد قال عن ثورة أتاتورك في الأناضول وهي التي

---

(١) وهذه كلها من صفات الماسون.

(٢) الذئب الأغبر ص ٢٥، ٢١٢.

(٣) رفض أن يصبح سفيراً لتركيا في الولايات المتحدة، وفضل القدوم إلى مصر حيث أصبح حاخاماً ليهودها، وقد توفي في القاهرة عام ١٩٥٥م.

مهدوا له فيها ليصل إلى السلطة: «إن الثورة التركية بالأناضول كانت كلها تحت لواء أتاتورك، وتسألوني عما إذا كانت هذه الحركة ستصبح خطراً على الحلفاء، فأقول لكم: إنها ليست خطراً على الحلفاء[1] واستمع إلى دائرة المعارف الماسونية وهي تقول:

«إن الانقلاب التركي عام ١٩١٨ الذي قام به الأخ العظيم مصطفى كمال أتاتورك أفاد الأمة، فقد أبطل السلطنة، وألغى الخلافة، وأبطل المحاكم الشرعية، وألغى دين الدولة الإسلام، وألغى وزارة الأوقاف، أليس هذا الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونية في كل أمة ناهضة؟ فمن يماثل أتاتورك من رجالات الماسون سابقاً ولاحقاً؟»[2]

أعرفت إذن أن عزل الدين عن واقع الحياة هو ما تخطط له الماسونية بإقرارها في دائرة معارفها...

لذا فإننا لم نعد نستغرب ما كتبه الأستاذ محمد عزة دروزة:[3] .

لقد رسم اليهود الخطة ونفذها مصطفى كمال على الشكل التالي:

- ألغى الخلافة وفصل تركيا عن باقي أجزاء الدولة العثمانية فحطم بذلك الأمبراطورية الإسلامية العظيمة.
- أعلن العلمانية، وفصل الدين عن الدولة، مقلداً بعض الدول الغربية التي تظاهرت بالعلمانية وأبطنت حرصها الشديد على الدين[4] .

---

(١)ص ٢٥٨ - ٢٥٩

(٢)دائرة المعارف الماسونية ص ١٦٢، وليس بمستغرب بعد هذا أن يبارك المستشرقون فعلته، وأن يقوم آرنولد بتأليف كتاب «الخلافة» ليسوغ ما فعله أتاتورك ويدافع عن فعلته هذه.

(٣)تركيا الحديثة ص ٦٧ وما بعدها.

(٤)للاستزادة انظر ما كتبه الأمير شكيب أرسلان رحمه الله حول هذه النقطة في رسالته الصغيرة «فصل الدين عن الدولة» طبع دمشق.

- اضطهد علماء المسلمين أبشع اضطهاد، وقتل منهم العشرات، وعلق جثثهم على أعواد الشجر.

- أغلق كثيراً من المساجد وحرم الأذان والصلاة باللغة العربية.

- فرض القوانين المدنية الفرنسية بدل الشرع الإسلامي، وجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدل الجمعة.

- ألغى المحاكم الشرعية وقوانين الأحوال الشخصية، وحرم التعدد والطلاق وساوى المرأة والرجل بالميراث.

- شجع السفور والإباحية وارتكاب الموبقات، وضرب المثل بنفسه.

- قضى على التعليم الديني واستبدل الحروف العربية باللاتينية...

«ولقد قام بفتح باب تركيا على مصراعيه ليدخل منه علماء اليهود الذين نبذتهم ألمانيا واستقبلهم بكل ما أوتي من حسن الكياسة ونبل الغرائز... واستعان بهم لتنظيم الجامعة التركية على الأساليب العلمية العصرية، واستدعى ما يزيد على أربعين أستاذاً منهم لتوسيع أقسام تلك الجامعة»[1].

وهكذا تمكن الاستعمار وحلفاؤه من هدم الخلافة الإسلامية، وإقامة دولة علمانية إقليمية على أنقاضها في تركيا، ودويلات إقليمية وقومية ممزقة، تتعادى فيما بينها على بقية بقاع دولة الخلافة، وكذلك حقق لليهود حلمهم وقامت دولة إسرائيل وما زالت تتوسع من أجل تحقيق الحلم الكبير «حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل».

---

(١) إيلي ليفي أبو عسل ٢/٣، كمال أتاتورك المثل الأعلى ص ١٤٥.

هــذا مــا فعله المستعمــر وصرعى الفكــر الغــربي مـن ذراري المسلمين، عرفناه ولمسناه، والآن ما هو موقف المسلمين تجاه هذا الأمـر؟ هل قاوموه كما فعلوا في مقـاومة الغـزو الفكري؟ أم استكـانوا ولم تبـدر منهم أي بادرة تدل على مقاومتهم أو عـدم رضاهم عـلى الأقل؟ هـذا ما سيكون موضوع بحثنا في الفصل الثاني من هذا الباب.

* * *

الفصل الثاني

مقاومة المسلمين العملية لهدم الخلافة

تمهيد

رأينا في الفرع السابق ما فعله أعداء الإسلام من دونمة ومبشرين ومستشرقين على يد أتاتورك، وهدمت الخلافة، وعاش المسلمون أحرج فترة في تاريخهم، حيث لم يعد هناك ما يجمعهم ويشدهم حتى من الناحية النظرية في هذا المجال وهذا أمر لم يمر المسلمون بمثله طيلة تاريخهم من لدن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى سقوط الخلافة في آذار (مارس) ١٩٢٤م.

لكنهم سرعان ما أفاقوا من هول الضربة التي نزلت برؤوسهم، وبدأوا يتلفتون بحركات غريزية محاولين أن يفعلوا شيئاً ما للوقوف في وجه هذه الحركة الغريبة التي أخرجت تركيا من تاريخ العرب والمسلمين، بل لقد أخذت هي نفسها بعد ذلك تبتعد عن العرب والمسلمين، وعن ماضيها، حتى عزلت نفسها ونسي الناس أمرها.

فكانت آهات واحتجاجات في البداية لم تلبث أن تحولت إلى

حركة مطالبة بوجوب استمرار الخلافة، وضرورة إقامتها في مصر.

وفوجئ المسلمون بالحسين بن علي ـ وهو الذي ثار على تركيا في الحرب العالمية الأولى متحالفاً مع الإنكليز ـ بإعلان نفسه خليفة للمسلمين، دون تشاور معهم أو رضى منهم، فرفضوا الاعتراف بخلافته، وتشكلت في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي جماعات وحركات «في الهند وأندونيسيا إضافة إلى البلاد العربية» هدفها إعادة الخلافة، وعقدت اجتماعات متعددة تحت رئاسة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، تداول العلماء فيها هذا الأمر، وأصدروا بياناً جاء فيه:

«كثر تحدث الناس في أمر الخلافة بعد خروج الأمير عبد المجيد من الآستانة واهتم المسلمون بالبحث الكثير فيما يجب عليهم عمله ـ قياماً بما يفرضه عليهم دينهم الحنيف ـ لذلك رأينا أن نعلن رأينا في خلافة الأمير عبد المجيد، وفيما يجب على المسلمين اتباعه الآن وفيما بعد». ويعلن بيان العلماء هذا أن الأمير عبد المجيد لم تكن خلافته صحيحة، وإن كانت فقد فَقَدَ صفة الخلافة بعد نفيه، ثم بينوا الضرورة القصوى التي تستلزم وجود خليفة وإمام للمسلمين كافة، وانتهوا إلى القرار التالي: «لهذه الأسباب نرى أنه لا بدّ من عقد مؤتمر ديني إسلامي يدعى إليه ممثلو جميع الأمم الإسلامية، للبحث فيمن يجب أن تسند إليه الخلافة الإسلامية، ويكون بمدينة القاهرة تحت رئاسة شيخ الإسلام بالديار المصرية، وأن يكون عقد المؤتمر في شهر شعبان سنة ١٣٤٣هـ[١]»

(١) المنار عدد ٢٣ أبريل ١٩٢٥.

(مارس ١٩٢٥) وأقيم في مصر آنذاك المؤتمر الدائم الذي عرف باسم «المؤتمر الإسلامي العام للخلافة» وأصدر مجلة «الخلافة الإسلامية» وتلقى المؤتمر التأييد والتوكيلات والتفويضات من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي.[١].

ولما لم ينجح هذا المؤتمر العام بإعادة الخلافة والحكومة الإسلامية، بدأت تتشكل حركات وجماعات في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي معلنة أن في مقدمة أهدافها إعادة الخلافة والحكم بما أنزل الله عز وجل، بل إن بعضها بدأ يخطو الخطوات الأولى على طريق إعادة الحكم الإسلامي، ونظراً لندرة المصادر التي تسمح بدراسة هذه الحركات وتطورها جميعاً فقد اقتصرت في بحثي هذا على دراسة حركة من هذه الحركات توفرت تحت يدي المصادر التي تجعلني أستطيع أن أقدم الدليل على كل كلمة أقولها حول هذه الحركة، وتجعلني أستطيع أن أقوم بدراسة علمية غير متحيزة، معها أو ضدها، من خلال ما تركت من كتابات وأعمال. هذه الحركة هي: جماعة الإخوان المسلمين التي نشأت وترعرعت على أرض الكنانة، ومنها انتقلت إلى شتى بقاع العالم الإسلامي، وكانت الرد العملي على حركة أتاتورك التي هدمت الخلافة، ولذلك استحقت أن توصف بكبرى الحركات الإسلامية في العصر الحديث.[٢] مؤسسها الأستاذ حسن البنا رحمه الله الذي يقول عنه إسحاق موسى الحسيني:[٣] «يجمع الذين كتبوا أو تحدثوا عن البنا

(١)انظر الأهرام عدد ١٢ مايو ١٩٢٥م. وفيه تفويض للمؤتمر من مسلمي جاوه وسومطرة بأندونيسيا.

(٢)عنوان دراسة للدكتور إسحاق موسى الحسيني أعدها وأصدرها عن الجماعة عام ١٩٥٢م.

(٣)«الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية» ص ٥١ وما بعدها، وانظر أيضاً مقدمة مذكرات حسن البنا، الحلقة الأولى، صدرت في القاهرة دون تاريخ وهي غير مذكرات الدعوة والداعية.

مادحين أو قادحين، أنه كان ذا شخصية قوية، وتاريخ الدعوة وتطورها يؤيدان ذلك، فقد امتزجت شخصيته بشخصية الجماعة في مختلف أحوالها وأطوارها، وإذا كانت الحركة متميزة عن جميع الحركات السابقة في تاريخ الإسلام فلأن البنا نفسه متميز قطعاً عن جميع زعماء هذه الحركات، لقد سبق البنا في العصر الحديث زعماء مصلحون، كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، تركوا دوياً ما يزال مسموعاً إلى اليوم، ولكن البنا كان من طراز آخر يختلف عنهم من جملة وجوه، ولعلّ أبرز هذه الوجوه أن أولئك ذهبوا ولم يخلفوا وراءهم دعوة واضحة المعالم بينة المنهج يعتنقها أتباع مخلصون، وربما كان أصدق نعت يصح عليه أنه كان داعية، وكان من سبقه رجال دين أو مصلحين، أو مجتهدين ذوي آراء ومصنفات فحسب»[1].

ولقد فهم أن تعاليم الإسلام وأحكامه «شاملة تنتظم شؤون الناس في الدنيا والآخرة، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية الروحية أو العبادية دون غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظن، فالإسلام: عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة، ومصحف وسيف»[2] ولقد بنى فهمه هذا على أسانيد من القرآن الكريم والسنّة النبوية والتاريخ.

ولد البنا عام ١٩٠٦ ونشأ في جو إسلامي خالص وكان والده، الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا المعروف بالساعاتي، معروفاً بالوقار واليسار

---

(١)المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢ روح وريحان ص ٣٧٦، مجلة الدعوة ٢٠ فبراير ٥١ حيث نشرت مقالات عنه بقلم (الباقوري، البهي الخولي، محمد الغزالي).
(٢)من خطب البنا ص ٩ الحلقة الأولى.

ومن بيئة علم واستمساك بـالدين والقـرآن[1] وجهه أبـوه من صغره إلى العلوم الـدينيـة وأحفـظه القـرآن بنفسـه، وفي سن الـرابعـة عشرة عـام ١٩٢٠م التحق بمـدرسـة المعلمـين الأوليـة في دمنهـور، وبعـد اجتيـاز الكفاءة، عين معلماً ولكنه آثر إتمـام دراسته فـالتحق بدار العلوم وتخـرج فيها سنة ١٩٢٧م. فهو إذن تثقف ثقافة إسلامية عربية أثرت في حـركته ووجهته وجهة إسلامية خـالصة، ومـلأته حمـاسة للعقيـدة التي آمن بها، وقـوت فيه روح الصـبر على الشـدائد، ولقنتـه التذرع بـالوسـائل النبيلة لتحقيق أهدافه.

سافر إلى الإسماعيلية في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٧م. إثر تخرجـه من دار العلوم ليتسلم عمله وهو التدريس في مدرسة الإسـماعيلية الابتـدائية الأمـيرية، وفي هـذه المدينـة وفي شهر مـارس ١٩٢٨م. ولـدت «جمعيـة الإخـوان المسلمـين» قـوامهـا ستـة أشخـاص من مـريـديـه وتـلامـذتـه المخلصين، وهؤلاء خلاف حملة الفكرة الأولى الذين تفرقوا في القطر[2].

ويـظهر أن الإسـماعيلية ووجـود الإنكليز فيهـا أثر تـأثيراً بليغـاً في نفسه، «فقد آلمه وحز في نفسـه المعسكر الإنكليـزي، وإدارة شركة قنـاة السويس واستئثارها بالقيام على المرافق العامة، وحي الإفرنـج ومفارقتـه لأحيـاء العـمال، وشيـوع الأسـماء الأجنبيـة مكتـوبـة بلغـة الاحتـلال الاقتصادي على الشوارع». حتى قال «لقد أوحت الإسماعيلية بالكثير من المعاني التي كان لها أثر كبير في تكييف الدعوة والدعاية»[3].

---

(١)روح وريحان ص ١٠١. ووالده صاحب «الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمـام أحمد بن حنبـل الشيبـاني» وشرحه «بلوغ الأمـاني من أسرار الفتح الـرباني» و«بـدائع المسنـد في جمع وتـرتيب مسند الشافعي والسنن».

(٢)من خطب البنا الحلقة الأولى ص ٦. مجلة الدعوة عدد: ١ فبراير ٥٣.

(٣)مذكرات البنا ص ٨٨.

وبعد خمس سنوات من تأسيس الدعوة بالإسماعيلية نقل البنا مدرساً إلى القاهرة ودخلت الدعوة طوراً جديداً. وأنشأ مجلة باسم «مجلة الإخوان المسلمين» وبدأ بإرسال الدعاة يخطبون في المساجد مبلغين الدعوة وموثقين الروابط وموقظين الهمم، ثم عقب بإنشاء الفروع في السودان وسورية ولبنان وفلسطين والمغرب[1] وفي هذه الفترة بدأ البنا بإلقاء أحاديث دينية اجتماعية في الإذاعة، وبإرسال الرسائل إلى رؤساء الوزارات المصرية المتعاقبة من عهد محمد محمود باشا، فالنحاس فإسماعيل صدقي، فعبد الفتاح يحيى، فالنحاس، فنسيم، فعلي ماهر، فالنحاس إلى قيام الحرب العالمية الثانية. وكان محور الرسائل الدعوة إلى الإصلاح الداخلي الشامل بروح الدين الإسلامي وهديه[2] وبدأوا الدعوة إلى «القضاء على الحزبية وتوجيه قوى الأمة السياسية في وجهة واحدة وصف واحد»[3] وكان موقفهم من الحكومات المصرية عدم التأييد اعتقاداً منهم «أن كل حكومة تقوم على غير الأصول والقواعد الإسلامية لا يرجى منها صلاح، ولا تستحق تأييداً ولا مناصرة» ولهذا كانوا يطلبون دائماً بالتعديل الذي يحقق نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره[4] وفي سنة ١٩٣٨م وضع البنا نفسه الأصول التي تعتمد عليها الدعوة فقال: «إنها دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية. . . وأردف قائلاً: إن شمول معنى الإسلام قد أكسب

---

(١)كتاب ثورة الدم لعبد الرحمن الساعاتي ص ١١ - ١٠٨ - ١١٣

(٢)جريدة الإخوان عدد (٥٢) يوليو ١٩٤٦م.

(٣)رسالة نحو النور ص ٣٠.

(٤)جريدة الإخوان عدد (٥١) ٢ يوليو ١٩٤٦م.

فكـرتهم شمولاً لكـل مناحي الإصـلاح»[1] وأوضح البنـا كـذلـك أنهم يتجهون في جميع خـطواتهم وآمالهم وأعـمالهم نحو الحكـومة الإسـلامية، وأنهم يضعون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس منهاجهم[2] وكـانوا يعلنون بأن لا تعاون مع الإنكليـز اقتصادياً وثقافيـاً واجتماعيـاً حتى يتم الجـلاء النـاجـز السريـع من غـير قيـد ولا شرط، ولقـد اشتـدت حملة جـريدتهم عـلى المفـاوضـات وحكـومـة صـدقي وعـلى الإنكليـز بـوجـه خاص[3].

وفي ٦ مـايو ١٩٤٨م اجتمعت هيئتهم التـأسيسيـة بـرئـاسـة البنـا واتخذت قرارات منها: مطالبة الحكومة المصرية وسائر الحكومات العـربية بإعلان الجهاد المقدس ضد ـ اليهود، واتخاذ جميع الوسائل الكفيلة بإنقـاذ فلسطين[4] وأردفوا القول بالعمل فدخلت قـواتهم تحت إشراف الجامعـة لإنقاذ فلسطين والقتال إلى جانب أهلها والجيوش العربية[5] تطبيقاً لمبـدأ الجهاد الإسلامي الذي كانت الدراسات الاستشراقية تعمل عـلى القضاء عليه لتجريد الإسلام من القوة.

وكانت دعوتهم تقوم على أساس شمول الإسـلام فعندمـا صدرت «مجلة الإخوان المسلمين» الأسبوعية في ٢٠ مايو ١٩٥٤م. قـال الهضيبي رحمه الله في تقديمها: «سيجد الناس أن الإسلام ليس دين عبـادة وصوم وصـلاة. . . ولا دين قـطع الأيـدي ورجم الـزنـاة فقط. . . . ولا دين

---

(١)من خطب البنا الحلقة الأولى ١٤ - ١٥.

(٢)من خطب البنا ص ٤١ - ٤٢.

(٣)جريدة الإخوان عدد (١٣٥) ١٠ أكتوبر ١٩٤٦م.

(٤)جريدة المنار الدمشقية العدد ٤١٨ تاريخ ١٤ مايو ١٩٤٨م.

(٥)جريدة المنار الدمشقية العدد ٥٢٨، ٢٢ فبراير ١٩٤٩م.

الفضائل. . . سيجدون أنه دين عبادة تطهر النفس وتزكي القلب وتصل العبد بربه حتى يكون قادراً على تحمل تبعات الحياة ومشاقها، وسيجدون أنـه دين أقام الحيـاة الاجتماعيـة بين المسلمـين عـلى أكمـل نـظام وأوفـاه بحاجات الناس. . . . وسيجدون أنـه عالـج الأخلاق والفضـائل وأدب السلوك فـأمـر بـالحسن ونهى عن القبيـح، وسيجـدون أنـه أوجب عـلى المسلمـين الجهـاد إذا ديست أرضهم واحتلهـا العـدو، وسيجـدون كيف عالج مشكـلات العمال وكيف نـظر إلى ملكية الأرض بعـدالة لا تعـادلها عدالة، وكيف عالج شؤون الأسرة كـما عالـج شؤون الحكـم في قواعـده العامة الثابتة التي لا تتغير وترك التفصيل لاختلاف الظروف»[1] لذلك لم يكن لديهم فصل بين الدين والدنيا، أو الدين والدولـة بل لقـد كان من أهدافهم التي سعوا لتحقيقها إقامة الحكومة الإسلامية لأن الإسلام يجعل الحكومة ركناً من أركانـه، وهو حكم وتنفيـذ، وتشريع وتعليم، وقـانون وقضـاء، ولا ينفـك واحـد منهـما عن الآخـر. . . . ولكنهم لا يـطلبـون الحكم لأنفسهم، فـإن وجدوا من الأمـة من يستعـد لحمـل هـذا العبء والحكم بمنهاج إسلامي قرآني فهم جنوده وأنصاره، وإن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله، ولن يتقدموا لمهمة الحكم قبل أن تنتشر مبـادئهم وتسود، وقـد رأوا أن الحكومات التي يعاصرونها لم تنهض بهذا العبء، ولم تظهر استعـداداً صحيحاً لمناصرة الفكرة الإسلامية، ولم يكونوا قط مطية لحكومة من تلك الحكومات.[2] وكانوا يؤمنون ويعملون لتحقيق الوحدة العربية والجامعـة الإسلامية ويرون أنه لا تعارض بين هذه الوحدات، فكل منهـا تشد أزر

---

(١) مجلة «الإخوان المسلمين» العدد الأول ٢٠ مايو ١٩٥٤م.

(٢) من خطب البنا الحلقة الأولى ص ٤١ - ٤٣.

الأخرى، وتحقق الغاية منها وإذا أراد أقوام أن يتخذوا من المناداة بالقومية الخاصة سلاحاً يميت الشعور بما عداها فهم ليسوا معهم [1].

وهم يرون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية فلا بد من إعادتها لأنها مظهر الارتباط بين المسلمين، ويرون أن هذا يحتاج إلى خطوات تمهيدية، فلا بد من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب المسلمة، يلي ذلك تكوين المعاهدات وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد، ثم يلي ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين كان عنه الاجتماع على الإمام ـ الخليفة ـ الذي هو واسطة العقد ومجتمع الشمل [2].

أما موقفهم من الدول الأوروبية فيتلخص باعتبارهم كل دولة اعتدت وتعتدي على أوطان الإسلام دولة ظالمة، لا بدّ أن تكف عن عدوانها، ولا بدّ من أن يعد المسلمون أنفسهم، ويعملوا متساندين متحدين على التخلص من نيرها، والإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال فضلاً عن السيادة، وإعلان الجهاد ولو كلفهم ذلك الدم والمال، فالموت خير من حياة العبودية والرق والاستذلال [3].

أعمالهم :

هذه مجمل مبادئهم من الناحية النظرية فما هي أعمالهم وإلى أي مدى وصلت هذه الأعمال؟

(١) من خطب البنا الحلقة الأولى ص ٥٠ - ٥٥.
(٢) جريدة الإخوان ج٣ يوليو ٩٤٦، من خطب البنا الحلقة الأولى ص ٥٦ - ٥٧.
(٣) من خطب البنا الحلقة الأولى ص ٦٦ - ٧٠.

إن أول مظهر من مظاهر نشاطهم من حيث الأهمية وسبق العمل كان في الوعظ والإرشاد وتطهير النفوس من رجسها بنشر الثقافة الإسلامية وخاصة في الأرياف ومجتمعات العمال والفقراء حتى ينقلب المسلمون من مسلمين جغرافيين إلى مسلمين مؤمنين، علماً وعملاً، حقاً وصدقاً[1].

وقد ارتكز هذا الوعظ على قواعد منها: تعليم الأميين أصول العبادة وبعض سور من القرآن الكريم لأداء الفريضة.

- شرح حقيقة الدعوة وشمولها.
- تعويد الشعب احترام الآداب العامة والتزام الأوامر والنواهي (كالإقلاع عن البغاء والقمار والخمر وما إلى ذلك)[2].
- الوقوف في وجه الطغيان المادي الذي صرف المسلمين وأبعدهم عن أصول دينهم، وعن زعامة نبيهم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ووجوب أن تقوم نهضة المسلمين الحديثة على قواعد الإسلام في كل شأن من شؤون الحياة.[3]

وقد كانوا يؤدون هذه الرسالة (الوعظ والإرشاد) بدروس يلقيها بعضهم في المساجد إثر صلاة الجمعة، أو يخطبون الجمعة، ثم بدروس عامة بعد الصلاة، ثم أصبحت هذه الدروس منظمة لا تنقطع في كل أسبوع يتعاون على إلقائها عدد منهم بتوجيه مرشدهم، وكان هذا على وجه الخصوص بعد فتحهم فروعاً لجمعيتهم[4].

---

(١)جريدة الإخوان ٥ مايو ١٩٤٦.

(٢)هل نحن قوم عمليون للبنا ص ٢٩، نحو النور ص ٣١ - ٣٤.

(٣)إلى أي شيء ندعو الناس ص ٢٣.

(٤)روح وريحان ص ٢٩٥.

ومن أبرز أعمالهم أيضاً: إرسال الرسائل الخاصة إلى رؤساء الوزارات ثم إلى الملك في مصر، ثم أتبعوا ذلك برسائل إلى ملوك العرب وحكامهم وأمرائهم، شارحين دعوتهم بصراحة تامة[1]، داعين إلى المعروف، وناهين عن المنكر، طالبين إصلاح القضاء والقوانين بصبغها بالصبغة الإسلامية حتى يشعر المسلم أنه محكوم بقانون الله السماوي لا بقانون البشر الوضعي[2]. وفي بعض رسائلهم إلى الملك كانوا يطالبون فيها بحل الأحزاب لأنها في رأيهم مصطنعة أكثر منها حقيقية، ولأن الوقت قد حان لتجتمع حول دعوة الله عز وجل وعلى منهاج إسلامي تتوافر على وضعه وإنفاذه كل القوى والجهود[3]. وكانوا يطلبون في رسائلهم أن يكون أولو الأمر نماذج صالحة للتمسك بدين الله عز وجل. . . .

وفي رسالة لهم إلى النحاس باشا طلبوا أن يعلن الوفد منهاجه الإصلاحي مستمداً من الشريعة وأن يكون مشتملاً على إصلاح التعليم، وتجنيد القادرين، ومحاربة الموبقات، ومقاومة روح التقليد للغرب، وإصلاح الإدارة والسياسة الخارجية، وكذلك فعلوا بدعوة خصوم الوفد إلى انتهاج المسلك نفسه[4].

وإتماماً لهذا النوع من النشاط: ألفوا لجنة خاصة تتولى نشر رسائلهم وكتبهم قامت بنشر العديد من الرسائل التي تشرح الدعوة

---

(١)جريدة الأهرام ٢٦ مارس ١٩٥٢.
(٢)جريدة الإخوان ١١ يوليو ١٩٤٦م.
(٣)جريدة الإخوان ٢٤ يوليو ١٩٤٦م.
(٤)جريدة الإخوان ٣٠ يوليو ١٩٤٦م.

وأهـدافها، وتبـين قواعـد الإسلام. . . . وأصـدروا عدداً من المجـلات والجرائد التي كانت إما مؤازرة لهم وإما مملوكة، وكانت جريدتهم اليومية (الإخوان المسلمون) أوسع صحفهم انتشاراً وقـد حددوا أغـراضهـم منها كما يلي: تجليـة تعاليم الإسـلام وعرضهـا عرضـاً يلائم أسلوب العصر، ويثبت أنها أفضل الأنظمـة للجمعية الإنسـانية، ورد مـا يوجـه إليها من اتهامات باطلة، وتقريب وجهات نظر أهل القبلة جميعاً من غير دخول في مناقشات مذهبية عقيمة، والعمل عـلى جمع الكلمـة حول الحق المشـترك بأنزه الأقلام وأنبلها، وتقرير أن الإسلام لا يخاصم ديناً ولا يهضم عقيدة حقها، ورسم الطريق الموصلة إلى إعادة نظام الإسلام وتـطبيق أحكامـه في حياة الفرد، والأسرة، والدولة وفي كـل شؤون المجتمع والتحـذير من الخروج عن هذه التعاليم.

ومن أعمالهم: العناية بالتعليم وفتح المدارس المتنـوعة للوقـوف في وجه المدارس التبشـيرية، ودعـوا الحكومـة المصرية إلى العنـاية بتـدريس الـدين في المنهاج العـام وتكـوين الخلق السليم، ووضعـوا أمـام النـاس منهاجاً للتعليم يتوخى أربعة أهداف: العقيدة الصالحة، ونشر الأخـلاق الفاضلة، وبث روح الاعتزاز بأمجاد الأمة وتراثها، وتهيئة الاختصـاصيين في جميع ميادين الاختصاص العلمي لبناء النهضة من جميع نـواحيها عـلى أسس علمية[1].

ومن المـدارس التي افتتحوهـا: (عدد من المـدارس لمحـو الأميـة ـ مكاتب تحفيظ القرآن ـ مـدارس ليلية لتعليم العـمال والفلاحـين ـ أقسام للراسبـين في الامتحـانـات العـامـة ـ مـدارس أمهـات المؤمنـين لتعليم

(١)نحو النور ١٨ - ١٩، إلى أي شيء ندعو الناس ٢٦.

البنات. . . .) حتى إن وزارة المعارف أثناء تولي محمد العشماوي لها، وضعت منهاجاً لمكافحة الأمية، فطلب منهم الوزير المساهمة قائلاً «وقد رأينا جماعتكم المنبثة في كثير من القرى والحواضر من الشمال إلى الجنوب حقيقة بأن تقوم بقسطها في الكفاح. . . وتتيح لكم فرصة لتحقيق جزء كبير من برنامجكم الإصلاحي. . .»[1]

وفي الجانب الاجتماعي بذلوا نشاطاً متعدد الجوانب وأنشأوا لهذا الغرض: قسم البر والخدمة الاجتماعية، وسجلوه في وزارة الشؤون الاجتماعية، وأسسوا جمعية للعناية بنهضة القرى المصرية والإصلاح الريفي. . . . وأقاموا العديد من الحفلات التمثيلية التي تتلاءم وروح الإسلام[2].

وكان لهم نشاط ملحوظ في الحركة الكشفية. . . ولم يهملوا المرأة في أعمالهم فكونوا فرق الأخوات المسلمات، ومعهد أمهات المؤمنين، وقرروا أن حركتهم هذه أول حركة نسوية في مصر قامت على أساس متين يهدف إلى تحرير المرأة تحريراً حقيقياً، ويعطيها كل حقوقها، ويهذب مواهبها، ويربيها على أسمى ما عرفت الإنسانية من مبادئ الشرف والفضيلة والعفاف[3].

ومن أعمالهم: العناية بالشؤون الصحية، بتأسيس المستوصفات والمستشفيات في مختلف المدن لمعالجة المرضى.

---

(١)جريدة الإخوان ١١ أكتوبر ١٩٤٦م.

(٢)تمثيلية: بلال، الكفاح، عمر بن عبد العزيز، المعز لدين الله، اليتيم. (١٨ يونيو ١٩٤٦) جريدة الإخوان.

(٣)روح وريحان ٣١٣.

وإلى جانب ذلك لم يهملوا الجانب الاقتصادي فاتجهوا نحو الشركات فأسسوا: شركة المعاملات الإسلامية، وشركة الإخوان للغزل والنسيج، وشركة التجارة والأشغال الهندسية، وشركة المطبعة الإسلامية والجريدة اليومية، وكانت شركاتهم وعددها سبع شركات ناجحة نجاحاً كبيراً، إذ كانوا يشركون العمال في رأس المال لأول مرة في تاريخ الشركات في مصر على ما يرجح، وكانوا يقصدون من هذه الشركات: تحرير الاقتصاد الوطني من السيطرة الأجنبية ورفع مستوى العامل المسلم وتقديم البيان العملي لشمول الإسلام وعدالته.

وسوغوا إقبالهم على المشاريع الاقتصادية بأن الإسلام يعنى بتدبير المال وكسبه[1]، وفي هذا المجال فقد اعتبروا أن الثروات العامة كالمعادن وغيرها يجب أن تخضع لتشريع يصون مصلحة الأمة، ولا يجوز للدولة أن تمنح استثمارها لأية شركة أجنبية، بل عليها أن تتولى ذلك بنفسها، فإن عجزت، وجب أن تسلم ذلك إلى شركات تنشأ بأموال مسلمة، ويجب أن تمنع الدولة تملك الأجانب للعقارات، وأن تمنع كل ما يؤدي إلى الاحتكار وتضخم الثروات عن غير الجهد الشخصي والعمل المفيد المشروع، وأن لكل فلاح حداً أدنى للملكية، وحق الحصول على سكن صالح، وتأمين الصحة والغذاء الكافي والثقافة المفيدة والجو الروحي[2].

ومن أبرز أعمالهم وأوجه نشاطهم: توجيه الأعضاء نحو «الجهاد» بمفهومه الإسلامي العام: بالمال، والنفس، واليد، واللسان، والقلم.... لذا اهتموا بالجانب الرياضي والكشفي، فأنشؤوا فرق

(١)من خطب البنا، الحلقة الأولى ص ١٥.

(٢)أهدافنا ومبادئنا ص ٨ - ١٠.

الجوالة، وأنشؤوا الكتائب على غرار الفتوة، وأكبر الظن أنهم قاموا بهذا لتحقيق مبدأ نص عليه نظامهم الأساسي وهو: العمل على تحرير وادي النيل والبلاد العربية جمعاء، والوطن الإسلامي بكل أجزائه من كل سلطان أجنبي، ومساعدة الأقليات الإسلامية في كل مكان للوصول إلى حقها وتأييد الوحدة العربية والسير إلى الجامعة الإسلامية. . .[1] لأنه ليس من المعقول أن يضعوا هذا الهدف دون أن يتخذوا من الوسائل ما يساعد على تحقيقه.

وهكذا نجد أن هذه الحركة الإسلامية قامت من الناحية النظرية والتطبيق العملي كرد فعل على فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن واقع الحياة، وجاءت نظرتها إلى الإسلام نظرة عامة شاملة «اتصل الإخوان بكتاب الله فاستلهموه واسترشدوه، فأيقنوا أن الإسلام هو هذا المعنى الكلي الشامل، وأنه يجب أن يهيمن على كل شؤون الحياة وأن تصطبغ جميعها به، وأن تنزل على حكمه، وأن تساير قواعده وتعاليمه، وتستمد منها ما دامت الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاماً صحيحاً، أما إذا أسلمت في عبادتها وقلدت غير المسلمين في بقية شؤونها فهي أمة ناقصة الإسلام»[2] «الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد. . . وقد جعل النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم الحكم عروة من عرى الإسلام، والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم

(١)حرف هـ من المادة الثانية في «النظام الأساسي» ص ٢ – ٣.
(٢)من خطب البنا الحلقة الأولى ص ١١.

كما هو قانون وقضاء لا ينفك واحد منهما عن الآخر، والمصلح الإسلامي إن رضي لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم، ويسرد الفروع والأصول، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره، فإن النتيجة الطبيعية أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة في واد، ونفخة في رماد»[1]، ولقد صور البنا الدولة الإسلامية بالمنضدة ذات الأرجل الثلاث إذا كسرت إحدى أرجلها سقطت، قائلاً: الرجل الأولى: المبادئ الإسلامية، والثانية: الأمة المتحدة، والثالثة: الحكومة الإسلامية التي تعمل على وحدة الأمة وصيانة المبادئ وتنفيذها»[2]

وفي ختام هذا الفصل لا بدّ من التذكير بأن هذه الحركة ظاهرة لها أصول في تاريخنا الإسلامي، فهي تشبه إلى حد كبير الحركة الوهابية، والحركة السنوسية وهي متأثرة إلى حد بعيد بالمدرسة السلفية الحديثة التي تزعمها محمد رشيد رضا في مصر، ومن قبل بمدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى ٧٢٨هـ. وأخيراً بمدرسة أهل الحديث التي حمل لواءها إسحاق بن راهويه في خراسان، وأحمد بن حنبل في العراق في القرن الثالث الهجري.

وهنا لا بدّ من كلمة أخيرة هي وإن نجح الاستعمار في تحقيق هدم الخلافة، وعزل تركية عن العرب والمسلمين، إلّا أنه لم يتمكن من عزل المسلمين عن إسلامهم كلية وما يزال للإسلام دعاته والذائدون عن حياضه، لكنه تمكن من فرض المناخ العلماني واقعياً في معظم بقاع

---

(١)من خطب البنا، الحلقة الأولى ص ٤١ - ٤٢.

(٢)جريدة الإخوان ١١ يوليو ١٩٤٦م.

الوطن الإسلامي، وخاصة تلك التي سبق لها أن ابتليت بوجـوده، على الرغم من تخلصها من سيطرته السياسية والعسكرية، وسنرى في الفصل القـادم كيف أن الاستعـمار لم ييـأس، ومـا زال رغم استقـلال معـظم المسلمين عنه يفرض عليهم مناخاً علمانياً في شتى جـوانب حياتهم تمهيـداً للوصول إلى غايته الأساسية ألا وهي القضاء على الإسلام.

* * *

الفصل الثالث

المناخ العلماني في العالم الإسلامي

تمهيد

لا بدّ قبل البدء بالحديث حول المناخ العلماني في العالم الإسلامي من التذكير بأن العلمانية وليدة التفكير الثنائي الغربي حيث يوجد في مجتمعهم: دولة وكنيسة؛ مدني وديني، روح ومادة، سلطة كنسية وسلطة مدنية أو دنيوية، مدرسة كنسية دينية ومدرسة مدنية دنيوية، موسيقى دينية كنسية موسيقى دنيوية.... وهكذا.

والعلماني كلمة تطلق على كل ما يتعلق بالحياة الدنيوية، وليست له قداسة مقابل الشؤون الكنسية...

أما في المجتمع المسلم، حيث تنعدم هذه الثنائية لأن الإسلام منتظم جميع نواحي حياة الفرد والمجتمع، ولا يعرف هذا التضاد الذي عاشته المجتمعات الغربية،.فلا مجال للعلمانية..

فالإنسان في المجتمع المسلم لا يرتفع إلى مستوى القداسة أو الألوهية، كما وأنه لا ينزل إلى مستوى الحيوان في سلوكه ومعاملاته.

والدنيا مزرعة للآخرة، وطريق موصل إما إلى السعادة الأبدية أو

الشقاء. والخلافة في الإسلام بشرية وليست إلهية ومهمتها تنفيذ شرع الله عز وجل وهي خاضعة للنقد وتلتزم بالشورى وتقبلها. . .

والخليفة فرد من المسلمين إلاّ أنه من أفضلهم إيماناً بالله والتزاماً بشرعه وأكثرهم بعداً عن المخالفة والظلم، وأقربهم إلى الخضوع للحق وإقرار العدل. . . وعلى هذا إذن إما إسلام أو علمانية، فحيث يوجد الإسلام لا علمانية، وإذا وجدت العلمانية فلا إسلام. . . .

أما وقد ابتلي المسلمون في تاريخهم الحديث بالاستعمار الغربي، وانتشرت بينهم أفكار المبشرين والمستشرقين، ومنها فكرة فصل الدين عن الدولة فقد أصبحنا نرى ونسمع من أبناء المسلمين من يحاول أن يزاوج بين الإسلام والعلمانية، وبعضهم يريد العلمانية ولا يريد الإسلام مطلقاً، يقلد الغرب تحت تأثير النزعة الاستعمارية التي طغت في القرن التاسع عشر في استيراد مشاكل إن لم توجد عنده، وفي استقدام حلولها إن وجدت لديه المشاكل.

إذن فرض علينا الأجنبي مشاكل ليست من طبيعة البيئة الإسلامية، ودفعنا إلى متاهات نسينا فيها ديننا وتاريخنا وكل مقوماتنا، ومما فرضه علينا «العلمانية» في كل شيء، في تعليمنا وتشريعنا، في سياستنا واقتصادنا، في تفكيرنا وسلوكنا لإبعاد الإسلام عن المجالات العامة وتركه داخل المسجد وقلوب الناس اعتقاداً فقط. . . .

وهو يحاول الآن أن يفرض علينا التخلص حتى من هذا الاعتقاد بديننا، وأن يصل بنا إلى الإلحاد العلمي كي نصل عن طريقه إلى المجتمع غير الطبقي.

هـذا في الـوقت الـذي مـا تـزال الكنيسـة في الغـرب تلعب دوراً أسـاسيـاً في حيـاة المجتمـع عـلى الـرغم من إعـلان فصـل الـدولـة عن الكنيسة، ولم تزل الدولة هناك ترعى النصرانية كدين، وذلـك بالإسهـام في مساعدة التعليم الديني، وفي عدم الـوقوف إطـلاقاً في وجـه أن ينتشر هذا التعليم في المدارس الخاصة، وتقوم الدولـة نفسها بجبـاية الضرائب الكنسية عن طريق أجهزتها الإدارية، وها هي المدارس التبشيرية الغربية في شتى أنحـاء العالم الإسـلامي سواء أكـانت فـرنسيـة أم إنكليـزيـة أم أمريكية تلقى الدعم والحماية والتشجيع من حكـومات تلك الـدول على الرغم من إعلان فصل الدين عن الدولة فيها، وبذلك نستطيـع القول: إن هدف العلمانية في الغرب هو فصل الدولة عن الكنيسة حتى لا يحدث صدام بينهما، وليس هو محاولة تخريب قيمها الدينية.

وعلى العكس من ذلك تماماً نرى العلمانية في المجتمـع الإسلامي، فهي فضلاً عن كونها غريبة عن البيئة الإسلامية، وطارئة بفعل المستعمر الغـربي، إلّا أنها جاءت لتسـوغ النعرات الإقليميـة والقـوميـة في العـالم الإسـلامي للقضـاء عـلى وحـدتـه، ومن هنـا نـرى أن جميـع الأحـزاب الإقليميـة والقوميـة التي تأسست في أعقـاب الحرب ـ العـالميـة الأولى في بـلادنا تبنت العلمانيـة صراحة في أنـظمتها الأسـاسيـة (الحـزب القـومي السـوري، حـزب البعث، الحـزب العـربي الاشـتراكي، حـزب البعث العـربي، حركـة القوميـين العرب. . . .) وكـذلك فـإنها لم تكتف بنقـل المفهوم الغربي كـما هو، بـل تطرقت وسبقت أولئـك الذين فـرضوا عـلى مجتمعنا المسلم هذا المبدأ.

فها هو مصطفى كمال أتاتورك بعـد أن أعلن عن كون حكـومته لا

دينية، لم يترك الدين وشأنه، بل تدخل في كل صغيرة وكبيرة، فقام بمنع الصلاة باللغة العربية وفرض أن تكون بالتركية. . .[1] والصلاة بالمفهوم الغربي أمر شخصي بين الفرد وربه، فلم يتدخل فيها الحاكم الذي أعلن علمانية دولته؟ وفي ذلك يقول الأمير شكيب أرسلان:

«حكومة تركيا الكمالية لا تصدق رعيتها القول أصلاً عندما تقول لهم إن دول أوروبا قد نبذت المسيحية، وأن رقيها المادي لم يتهيأ إلاّ بنبذ العقائد الدينية، فأوروبا وأمريكا وجميع الأمم المنسوبة إليها باقية على نصرانيتها لم يتغير شيء من صبغتها المسيحية، بل لم يتغير شيء من عقائدها الكنسية التي كانت عليها من قرون. . . وإن المكابرة في هذه الحقيقة هي مكابرة في المحسوس لا غير. . .»[2] لقد أصبح واضحاً أن الذي قصده الحلفاء المنتصرون في الحرب الأولى، وهم يصرون في تسوية الصلح على أن تعلن تركيا علمانيتها، عزلها عن التراث الإسلامي تمهيداً لتحويلها إلى أندلس ثانية، بعد أن تصبح أقرب إلى الغرب وميوله من أجل ذلك كانت تصرفات أتاتورك، والتي وصلت إلى حد فرض الكتابة بالحروف اللاتينية بدلاً من العربية، وإلى محاولة القضاء على عقيدة الأتراك الإسلامية حتى يحقق لهم قصدهم.

وصحيح كذلك أن بقية الأقطار التي سلخت عن الدولة العثمانية بعد تمزيقها واقتسامها خضعت للاستعمار الغربي (سورية ولبنان: فرنسا، الأردن وفلسطين والعراق ومصر: إنكلترة) الذي تمكن من الناحية العملية أن يجعل هذه الأقطار تمارس العلمانية ولم تعلنها صراحة (بل إن

---

(١)فصل الدين عن الدولة ص ٢١ شكيب أرسلان.

(٢)فصل الدين عن الدولة ص ٢٢ - ٢٣.

بعضها ينص في دستوره على أن الإسلام دين الدولة[1] لكن هذه المادة لو رفعت من هذه الدساتير لما أثر ذلك على بقية مواد الدستور ولا على وضع الحكومة في هذه البلدان) ولقد تم ذلك في إحكام وفي غيبة من الوعي الإسلامي، وفي تدرج. . . . ولو ذهبنا نستعرض البلدان الإسلامية في آسيا وأفريقيا بلداً بلداً، فسنجد أن الإسلام قد أبعد في غالبية هذه البلاد عن جميع مجالات الحياة تقريباً، ففي مجال الحكم: نجد أن أنظمة الحكم في معظم البلدان الإسلامية لا صلة لها بالإسلام إلّا من الناحية الاسمية، أما من الناحية الواقعية فهي إما ترتبط بالنظام العلماني الغربي (الرأسمالي) أو النظام العلماني الشرقي (الماركسي)، وتسير على هديه في كل تصرفاتها.

وأبعد عن مجال التوجيه والتعليم: حيث نجد تعليماً مدنياً وتعليماً دينياً في طريقه إلى الاضمحلال إذا قيس بسابقه وهذا من آثار الثنائية الغربية، إذ المفروض بالتعليم في الإسلام أن يخدم الدين سواء أكان تعليماً شرعياً أو دنيوياً، وكذلك لو استعرضنا مناهج التعليم في البلدان الإسلامية، فسنجد أن التربية الدينية يخصص لها ساعتان في الأسبوع من مجموع ٣٢ ساعة دراسية ولا تدخل في الامتحانات العامة، وإذا تجاوزها الطالب إلى المرحلة الجامعية، فلا وجود حتى لهذه السويعات القليلة. . . . فينشأ الطالب وهو على جهل يكاد يكون مطبقاً بدينه وعقيدته. بل على العكس من هذا تماماً أصبحت مناهج التعليم والتربية الغربية هي المطبقة في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، وأصبحنا نطبق ما قاله ديوي، أو روسو وغيرهم من الأوروبيين في مجال المناهج والتربية

---

(١)الأردن في المادة الثانية وكذلك مصر، والعراق في المادة الرابعة.

وطرق التعليم، ولا نعرف شيئاً عن الغزالي وأمثاله من المربين المسلمين.

وأبعد عن مجال التشريع والقضاء: فالقوانين التي يقضى على أساسها في محاكمنا هي قوانين استوردناها من فرنسا، سويسرا، إنكلترا، روسيا.... من الدول الغربية، وأهملت الشريعة تماماً على الرغم من النص في الدستور: الشريعة الإسلامية مصدر أساسي للتشريع. وكلنا يعلم أن معظم القوانين المطبقة تخالف الشريعة الإسلامية نصاً وروحاً. ولم يبق للإسلام في هذا المجال سوى المجال الذي يعرف باسم الأحوال الشخصية (الزواج والطلاق والنفقة والحضانة والعدة والميراث)، ولقد بدأت بعض البلدان الإسلامية بمحاولات التخلص من هذه التشريعات، بل إن بعضها دخل مرحلة التنفيذ (تونس وتحريم تعدد الزوجات مع إباحة الزنا، مساواة الرجل بالمرأة في الميراث....).

وأبعد الإسلام أيضاً عن مجال الحياة الاقتصادية: فالبنوك الربوية والمعاملات الربوية أصبحت هي السائدة، وربط الاقتصاد المسلم بالاقتصاد الغربي سواء أكان رأسمالياً أو بلشفياً على أساس التبعية الذليلة، دون مراعاة لشريعة تحلل أو تحرم، وأصبحنا نجد أنظمة اقتصادية رأسمالية تسيطر على جانب من البلدان الإسلامية، وأنظمة اقتصادية ماركسية تسيطر على جانب آخر، مع إهمال تام وكامل لما جاءت به الشريعة الإسلامية حتى من قواعد عامة لتنظيم هذا الجانب من حياة الإنسان.

حتى باكستان: الدولة المسلمة التي قامت كدولة على أساس الإسلام، وكان هو المسوغ لها كي تنفصل عن الهند بعد الحصول على الاستقلال، فهل نفذت ما أعلنت؟ إن الحكومات التي تعاقبت على

باكستان بعد الاستقلال أبقت الأمر فيها كما كان أيام الاستعمار الإنجليزي، وحتى هذه اللحظة لم تشرع الباكستان دستوراً إسلامياً يعتمد في مبادئه على القرآن الكريم والسنّة النبوية، كما لم تقم بأي نشاط غير عادي في التوعية بالإسلام في المجتمع. . . وبقيت مظاهر التخلف التي كان يعاني منها الشعب قبل الاستقلال سائدة بعد الاستقلال، وما ذلك إلّا لأن الإسلام رغم الإعلان عن تبنيه ـ لم يوضع موضع التطبيق دستوراً وقانوناً، ومنهجاً للتربية، واستمر الوضع السابق على عهد الاستعمار مما أثمر انفصال بنجلادش عن الباكستان وإعلانها العلمانية صراحة وسبب ذلك قيام الخبثاء بتفسير التخلف الذي تعاني منه الباكستان بأن سببه الإسلام، والتمسك به، ويثير هذا الأمر كثير من المستشرقين مثل: ويلفريد سميث في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» حيث يعقد موازنة بين تركيا العلمانية وباكستان المسلمة، ليصل في النهاية إلى أن تطور تركيا العلمي والصناعي والاقتصادي[1] يعود الفضل فيه إلى العلمانية، في حين أن التخلف والانحطاط الذي تعاني منه الباكستان سببه الإسلام، أو عدم تبني العلمانية، وهذه الموازنة الخبيثة والمخالفة للواقع لا تهدف إلّا إلى القضاء حتى على هذا الشعار الإسلامي المرفوع ظاهراً، لأن واقع باكستان كغيرها من بقية أجزاء العالم الإسلامي التي تعيش المناخ العلماني واقعاً ولو لم تعلن عن ذلك صراحة في دساتيرها مثلاً[2] وأخيراً نستطيع القول بأن المناخ العلماني هو السائد والمسيطر

(١) إن نظرة إلى واقع تركية يخالف تماماً ما ذهب إليه المستشرق المذكور حيث تعيش تركية أزمة اقتصادية خانقة، وتبعية ذليلة للولايات المتحدة في هذا المجال، وفي كل يوم تحمل لنا الأنباء الكثير من أخبار الأزمات التي تعاني منها تركية. . .

(٢) حملت الأنباء مؤخراً خبر قيام حكومة باكستان بتبني الشريعة الإسلامية والبدء بتطبيقها والتزام =

حالياً في معظم بقاع العالم الإسلامي، وأن أعداء الإسلام نجحوا في إبعاده عن مراكز التوجيه والقيادة بل عن جميع نواحي حياة المجتمع المسلم، وتمكنوا من حصره في زاوية ضيقة تسمى «الأحوال الشخصية» وفي المسجد، ولم يتركوه، بل إنهم يعدون العدة للإجهاز على البقية الباقية منه حتى تتكرر مأساة المسلمين في الأندلس وفي البلقان وجزر البحر الأبيض المتوسط....

كل هذا يجعل المسؤولية كبيرة، والأمانة ثقيلة، ولا بدّ للمسلمين أن ينهضوا لحملها وأدائها، إبراء للذمة، ووفاء بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم يوم شهدوا أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله.



= أحكامها اعتباراً من شهر ربيع الأول ١٣٩٩هـ. ونسأله تعالى أن تكون هذه الأخبار حقيقية وصادقة ولا تهدف إلاّ إلى تحقيق رضى الله عز وجل.

خاتمة في أهم نتائج البحث ومستقبل العالم الإسلامي

والآن نستطيع القول من خلال الأدلة التي سقناها أثناء البحث:

إن الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر باق ما بقيت السموات والأرض ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾[1] و﴿**لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾[2] وما دام الإسلام هو الحق الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء، وهو الخير الكامل الذي أنعم به على الناس جميعاً، فستبقى مؤامرات الشر والباطل لاقتلاع جذوره قائمة على قدم وساق، والسيرة النبوية تشهد أنه منذ أن جهر محمد صلّى الله عليه وآله وسلم بدعوته، وقف الشر في وجهها وحاول وأدها، وشاءت إرادة الله أن تنتصر وتخرج ظافرة خارج الجزيرة العربية، ومنذ ذلك الحين وهي تواجه العداء الصليبي والمكر اليهودي الذي لم يترك وسيلة من الوسائل إلاّ واستخدمها من أجل القضاء على دعوة الحق.... وكانت دعوة التغريب وتشويه القيم الإسلامية من أخطر الوسائل التي استخدمها هؤلاء بعد أن أحسوا بفشل وسائلهم المادية العسكرية في

(١)الحج: ٤٠.

(٢)البقرة: ٢٥١.

زحزحة الإسـلام عن مواقعـه في قلوب أتباعـه وبلدانهم، وكانت تجـربة الحـروب الصليبية مـاثلة أمام أعينهم. . . من هنـا بـرزت الإرسـاليـات التبشيرية والدراسات الاستشراقية، وأصبحت الكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية من أخطر الأسلحة التي استخدمت لحرب الإسـلام بغية القضـاء عليه أو عزله عن واقع المسلمـين أولاً وتمهيداً للخـطوة التاليـة في القضاء عليه. وكانت حملات التشويـه والافتراء وطـرح الأفكار التي يـراد لها أن تسود، لأنها تسهل القضاء على الإسـلام، وتضعف قوة المسلمـين مثل: فصـل الـدين عن الـدولـة، العلمانيـة، القـوميـة، الإقليميـة، الحكم الثيوقراطي، المادية. . . وجميعها أفكار غـريبة عن حس المسلمـين وواقع دينهم، ووليدة بيئات تختلف اختلافاً كبيراً عن البيئة الإسلامية، وعقـائد لا صلة لها بعقيدتهم.

ورأينا كيف كان أساطين الغـزو الفكري يخـططون لإخراج نخبـة من أبناء المسلمين على المنهج الـذي يعد لهم، وقـد مسخوا خلقـاً آخر، وإعادتهم إلى بني جلدتهم لأن هذا أدعى إلى تيسير تنفيذ ما يريـده هؤلاء بالأمة من شر، وبدينها من قضـاء عليه. وهم أقـدر على تنفيـذ ما عجـز أعداء الله عن تنفيذه تحت أسمائهم الإسلامية. وهم بعد أن نجحوا نوعاً ما في تحقيق عزلة الإسلام عن واقع المسلمين ما يزالون يحسبون لـه ألف حساب وحساباً، لم يطمئنوا إلى النتائج التي توصلوا إليها، ولا يزالـون - يتوجسون خيفة أن يستيقظ المارد من جديد، وكل همهم أن يستمر العـالم الإسلامي كما هو في تأخر مستمر، وانحلال خلقي، ومفاسد اجتماعيـة، وتبديد لطاقاته المادية والبشرية، لذا فهم يريدون لهذه العزلة أن تستمر، ولذلك اختلف مفهوم العلمانية عند التطبيق في البلدان الإسلامية عنه في

أوروبـا، فهي هناك لا تعني أكـثر من فصـل الكنيسـة عن الـدولـة دون محاربة من الدولة لهذه الكنيسة، بـل على العكس، تقـوم الدولـة بتقديم كل عون ممكن للكنيسة داخل أوروبا وخارجها أما في بلادنا فكان مفهوم العلمانية تخريب القيم الإسـلامية، بـدليل أن العلمانيـة كما رأينـا مطبقـة واقعياً، فلم تستمر الحرب على الإسلام؟ إنهم يريـدون له أن يـزول ولا يبقى....

إن للغـرب مصالـح كثيرة اقتصـادية وغـيرها، واستثـمارات ماليـة عـديـدة في البلدان الإسـلاميـة، وهـذه البلدان حبـاهـا الله عـز وجـل بإمكانات مادية هائلة (ثروات معدنية وأرضية) وبـالتكامـل بين أقـطارها إضافة إلى طاقة المسلمين في الإخصاب الجنسي والتكاثر العـددي، وبسرِّ الارتبـاط بينهم مهما اختلفت أجنـاسهم وألـوانهم عـلى الإيمـان بـالله عـز وجل....

فلو حدث وتجمع المسلمون هؤلاء فإنهم عند ذلك يشكلون تحـدياً كبيراً للحضارة الغربية بأكملها مما ينذر بفنائها والقضاء عليها.

من هنا تجد الغـرب على الـرغم من كل شيء مـا يزال يصر، بـل ويـدفـع البلدان الإسـلاميـة دفعـاً إلى قبـول العلمانيـة وإعـلانها وتبنيهـا صراحـة، لأن ذلك يسهـل له القضـاء على ذاتيـة المسلمين، ويسهـل له طريق الحركة التي تمكنه من استغلال العالم الإسلامي كيفما شـاء وحسب هواه، ويسيره في الاتجاه الذي يحقق للغرب مصالحه....

فلا عجب إذن أن نرى الغرب يمنع قيام حكومة إسلامية، ويعمل على حرب الاتجاه الإسلامي الصحيح الصادق، لأنـه يدافـع عن وجوده

ومصالحه وكيانه، ولكن العجب كل العجب أن نرى أبناء المسلمين يأخذون على عاتقهم القيام بالمهمة التي تحقق سيطرة المستعمرين على بلادهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً لخير بلدانهم، متجاهلين أنهم بعد أن يفرغوا من أداء مهمتهم، سيكونون أول ضحايا هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم في خدمتهم بوعي أو بغير وعي.

إن الغربيين يعرفون جيداً مصدر قوة هذه الأمة[1] «ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا في العالم المتغرب ضد السيطرة الغربية، ونادت بزعامة معادية للغرب، فقد يكون لهذا النداء نتائج لا حصر لها في إيقاظ الروح الجهادية للاسلام، إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولي للإسلام».

وأنه يكمن في هذا الدين، وفي دعوة الجهاد فيه بشكل خاص.

لذا كان إصرارهم على فصل الدين عن الدولة لإخماد هذه الروح الجهادية التي يخشون من عودتها، أو من صحوتها من غفلتها، وكانت دراسات المستشرقين وأشياعهم تسير في هذا الاتجاه....

لذا كان من الواجب في نهاية هذا البحث التنبيه إلى ضرورة التخلص من الثنائية التي انتقلت إلينا من الغرب، وإلى التمسك بالنظرة الشاملة التي جاء بها الإسلام، خاصة وأنه لا يعرف إلاّ مسلمين يؤمنون به، ويلتزمونه، وأن الحاكم في الدولة المسلمة يعمل بكتاب الله، وهو القدوة في العمل الصالح، وأن الولاء لا يجوز أن يكون إلاّ للإسلام، والموالاة بين المسلمين فقط، ولا يجوز لمسلم أن يتولى غير مسلم، ويجب

---

(١)الإسلام والغرب والشرق الأوسط ص ٧٣.

أن لا يفهم من هـذا ضرورة اعـتزال الحضـارة المـادية لأنها جـاءت من الغرب، وعلى المسلم أن يأخذ منها ما ينفعـه في حياتـه الدنيـا وآخرتـه، وأن يدع ما يلحق به الضرر في دينه ودنياه، وعليه أن يفـرق بين المـدنية والثقافة، ومنهما تتكون الحضارة.

والمسلمون عندمـا يفعلون ذلك يضعـون أيديهم عـلى مكمن القوة التي تحقق لهم العـزة، وأرجلهم على أول الـطريق الموصـل إلى استعـادة السليب من الأرض والمقـدسـات، والسيـادة الحقيقـة، خـاصـة وأنهم سيكونون قادرين على استغلال ما أودع الله عز وجل من إمكانات القـوة والـوحـدة بـين المسلمـين، والتي تتلخص: بـالأخـوة في الله التي تيسر اتصالهم وتربط بـين قلوبهم، والثروات المـادية الهـائلة مع التكـامل بـين بلدانهم، والكثرة العددية التي أنعم الله عز وجل بها على هذه الأمة.

ويومها لن يكون تبديد للثروة والطاقة، وعندها لن ترتفـع دعوات تحديد النسل التي لا يستفيد منها إلاّ أعداء هذا الدين، وسيكون بإمكان الأمـة أن توجـه هذه الـطاقات كلهـا لتحقيق خيرهـا في الدين والـدنيا، وتكون الصحوة الإسـلامية التي تخيف أعـداء الله عز وجـل والتي تعيد للمسلمين الثقة بأنفسهم قد تحققت.

لذا لا بدّ من العمل الدائب والمستمر، وعلى كل المستويات، وفي كل الاتجاهات حتى يعود المسلمون إلى كتاب ربهم وسنـة نبيهم صلّى الله عليه وآله وسلّم، لأن في هذه العودة:(1) المحافظة عـلى ذاتية الأمـة أمام

(1) «لقي وزير دفاع العدو الإسرائيلي في إحدى جولاته شاباً مؤمناً في مجمـوعة من الشبـاب في حي من أحياء قرية عربية باسلة، فصافحهم بخبث يهودي غادر، غير أن الشاب أبى أن يصافحه وقال له:

أنتم أعـداء أمتنا تحتلون أرضنـا وتسلبون حـريتنا، ولكن يـوم الخلاص منكم لا بـد آت بـإذن الله =

مخـططات أعداء دينهـا ومكـرهـم، وعنـدهـا لن يكون فصـل بـين الـدين والدنيا، ولا فصل بين الدين والدولة، وسيعود ارتباط الـدولة بـالدين، حيث تبنى الدولة عـلى أساس من الـدين، ويكون الـدين سياجـاً يحمي الـدولة ويمكنهـا من أداء واجبها، ورعـاية أفـرادهـا. . . . وفي هـذا كله حفاظ على القوة التي أراد الله عز وجل للمسلمين أن يكونوا عليهـا حتى يتحقق مضمـون قول الله عـز وجلّ **﴿ولله العـزة ولرسـولـه وللمؤمنـين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾**[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



= لتتحقق نبوءة الرسول ﷺ: لتقاتلن اليهود أنتم شرقي النهر وهم غربيه. . . .

فابتسم دايان الماكر وقال: حقاً سيأتي يوم نخرج فيه من هـذه الأرض. . . وهذه نبوءة نجد لها في كتبنا أصلاً ولكن متى؟

واستطرد اليهودي الخبيث يقول: إذا قام فيكم شعب يعتز بتراثه ويحترم دينه ويقدر قيمه الحضارية، وإذا قـام فينا شعب يـرفض تراثـه ويتنكر لتـاريخه. . . . عنـدهـا تقـوم لكم قـائمـة وينتهي حكم إسرائيل» المنهزمون: ١٠٩ ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾.

(١) المنافقون: ٨.

ملاحق البحث وفهارسه

رأينا من خلال بحثنا السابق أن الإسلام أقام شؤون الدنيا كلها على أساس من الدين، وجعل الدولة وسيلة لتنفيذ شرع الله عز وجل، فكان الدين سنداً للدولة ووسيلة لضبط شؤون الحكم وتوجيه الحكام والمحكومين، لذلك كانت الدولة جزءاً لا ينفك عنه، وقد رأيت أن ألحق بهذا البحث بعض آيات من كتاب الله عز وجل، وقبسات من سنة المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تصلح للاستدلال لما ذهبنا إليه:

آيات من كتاب الله عز وجل:

﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهنَّ، قال: إني جاعلُك للناس إماماً، قال: ومن ذريتي، قال: لا ينالُ عهدي الظالمينَ﴾[1] البقرة: ١٢٤

(١)قال أبو بكر الجصاص في كتابه «أحكام القرآن» ١/٧٩ - ٨٠ عند تفسيره هذه الآية: إن كلمة إمام تعني في اللغة كل من هو إمام متبوع سواء أكان في الحق أم الباطل، إلَّا أن المراد منها في هذه الآية هو الإمام الحقيق بالاتباع، والذي يلزم على الناس اتباعه، وعلى هذا فالأنبياء في أعلى مراتب الإمامة بهذا الاعتبار، يليهم الخلفاء الراشدون، ثم العلماء والقضاة الصالحون.... إلى أن يقول: فلا يجوز أن يكون الظالم نبياً ولا خليفة لنبي، ولا قاضياً، ولا من يلزم الناس قبول قوله في أمور الدين... فثبت بدلالة هذه الآية: بطلان إمامة الفاسق وأنه لا يكون خليفة، وأن من نصب نفسه في هذا المنصب وهو فاسق، لم يلزم الناس اتباعه ولا طاعته...

﴿تلك حدود الله فلا تَعْتَدُوها، ومن يَتَعَدَّ حدودَ الله فأولئك هم الظالمون﴾ البقرة: ٢٢٩

﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيءٍ، قل إن الأمر كُلَّه لله﴾
آل عمران: ١٥٤

﴿إن الله يأمُرُكم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلِها، وإذا حكَمْتُم بين الناسِ أن تحكموا بالعدلِ، إن الله نعمَّا يعظكم به، إن الله كان سميعاً بصيراً﴾(١). النساء: ٥٨

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم فإن تنازعتُم في شيء فردُّوه إلى الله والرسولِ إن كنتم تؤمنون بالله واليومِ الآخر﴾(٢) النساء: ٥٩

﴿ألم تَر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ إليك وما أُنزلَ من قبلِكَ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريدُ الشيطانُ أن يضلَّهم ضلالاً بعيداً﴾. النساء: ٦٠

---

(١)من ذلك تولية المناصب مستحقيها. انظر روح المعاني للآلوسي ٥/٦٤ وما بعدها.

(٢)ما يستفاد من الآية الكريمة:

أ - طاعة الله والرسول مقدمة على أي طاعة أخرى.

ب - طاعة أولي الأمر تأتي تحت طاعة الله ورسوله.

ج - ولاة الأمور يجب أن يكونوا من المؤمنين.

د - للرعية حق منازعة الحكام والحكومة.

هـ - الفيصل في النزاع هو كتاب الله وسنةُ رسوله (صلى الله عليه وسلم).

وهذا يعني أنه لا بد من وجود هيئة مستقلة عن تأثير الحكام والمحكومين على حد سواء، لتقضي في النزاعات طبق قانون الله ورسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم.

﴿فـلا وربّك لا يؤمنـون حتى يحكّمُوك فيـما شجـرَ بينهم ثم لا يجـدوا في أنفسِهم حرجاً مما قضيتَ ويسلّمُوا تسليماً﴾. النساء: ٦٥

﴿ومن لم يحكم بما أنزلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون﴾. المائدة: ٤٤

﴿ومن لم يحكم بما أنزلَ الله فأولئك هُمُ الظالمون﴾. المائدة: ٤٥

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾. المائدة: ٤٧

﴿وأنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ مصدّقـاً لما بـين يديـه من الكتاب ومهيمنـاً عليه فاحكم بينهم بما أنزلَ الله ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءَك من الحقِّ﴾.
المائدة: ٤٨

﴿وأنِ احكُم بينهم بمـا أنـزلَ الله، ولا تتّبـعْ أهـواءهم، واحـذرهم أن يفتِنوك عن بعض ما أنزلَ الله إليك﴾[1]. المائدة: ٤٩

---

(١)يقول ابن كثير رحمه الله عند تفسيره هذه الآية (٦٧/٢): ينكر تعـالى على من خـرج عن حكم الله المحكم المشتمـل على كـل خير، النـاهي عن كل شر، وعـدل إلى ما سـواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهلات مما يضعونها بـآرائهم وأهوائهم، وكـما يحكم به التتـار من السياسـات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كتاب مجمـوع من أحكام قـد اقتبسها عن شرائـع شتى من اليهوديـة والنصرانية والملة الإسـلاميـة وغـيرهـا، وفيهـا كثـير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعـاً متبعاً يقـدمونها عـلى الحكم بكتاب الله وسنّة رسوله ﴿ﷺ﴾؛ فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتـاله حتى يـرجع إلى حكم الله ورسـوله فـلا يحكم سواه في قليل ولا كثير.
ويعلق الأستاذ يوسف العـظم على كـلام العالم الجليـل بقولـه: ألا يصور هـذا واقع ديـار الإسلام اليوم، فكـم من «ياسق» فيها وكم «جنكيز خان» حيث وضع كل قائد شرعة واتخذ كل بلد «ميثاقاً» يحتكم إليه بدل القرآن.... أليس هذا هـو الضلال بعينـه الذي أشـار إليه ابن كثـير يرحمـه الله.
انظر «المنهزمون» ١٠١ وما بعدها.

﴿أفحكمَ الجاهليةِ يبغون، ومن أحسنُ من الله حكماً لقوم يوقنون﴾.
المائدة: ٥٠

﴿قل: إني على بيّنةٍ من ربي وكذَّبتم بـه، ما عنـدي ما تستعجلون بـه إنِ الحكمُ إلاّ لله، يقُصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين﴾. الأنعام: ٥٧

﴿ألا له الخلقُ والأمر، تباركَ الله ربُّ العالمين﴾ الأعراف: ٥٤

﴿إن الحكمُ إلاّ لله، أمر ألا تعبدوا إلاّ إيَّاه، ذلك الدينُ القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. يوسف: ٤٠

﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم، ما لك من الله من وليّ ولا واق﴾. الرعد: ٣٧

﴿الـذين إن مكَنَّاهُم في الأرض أقاموا الصلاةَ وآتَوا الـزكـاةَ وأمـروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ولله عاقبةُ الأمور﴾. الحج: ٤١

﴿ويقـولون آمنـا بالله وبـالرسـول وأطعنا ثم يتـولى فريق منهم من بعـد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دُعوا إلى الله ورسـوله ليحكم بينهم، إذا فريق منهم معرضون﴾. النور: ٤٧ - ٤٨

﴿إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسولِهِ لِيحكم بينهم أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، وأولئك هُمُ المفلحون﴾ النور: ٥١

﴿وعـدَ الله الـذين آمنـوا منكم وعملوا الصـالحـات لَيستخلفنَّهم[١] في

(١)كل فرد في جماعة المؤمنين شريك في الخلافة، وليس لـواحد من البشر، أو طبقـة من الطبقـات أي حق في سلب المؤمنين هذا الحق الـذي منحهم الله عز وجـل إياه، ولا يستـطيع فـرد أو جماعـة =

الأرض كما استخلف الـذين من قبلهم، وَلَيُمكننَّ لهم دينهم الـذي ارتضى لهم، وَلَيُبـدِّلَنَّهم من بعد خـوفِهِم أمناً، يعبـدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾. النور: ٥٥

﴿ولا تطيعوا أمرَ المسرفين. الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون﴾.
الشعراء: ١٥١ - ١٥٢

﴿له الحمدُ في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون﴾.
القصص: ٧٠

﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسولُهُ أمراً أن يكون لَهُمُ الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾.
الأحزاب: ٣٦

﴿هو الذي جعلَكم خلائفَ في الأرض فمن كفر فعليه كفرُهُ، ولا يـزيدُ الكـافرين كفـرُهُم عند ربِّهم إلاّ مَقْتـاً، ولا يزيـدُ الكافـرين كفرُهُم إلاّ خَسَاراً﴾. فاطر: ٣٩

﴿يا داوُدُ إنا جعلناكَ خليفةً في الأرض فاحكُم بين الناس بالحقِّ ولا تتْبعِ الهوى فَيُضِلَّك عن سبيلِ الله﴾. ص: ٢٦

﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمُـهُ إلى الله، ذلكُمُ الله ربّي عليه تـوكلتُ وإليه أنيبُ﴾. الشورى: ١٠

= الادعاء أن الخلافة تخصه، أو تخصهم، دون سائر المؤمنين، وهذا ما يميّز الخلافة الإسلامية عن الملكية أو حكومة الطبقة، أو حكومة رجال الدين الكهنوتية...

﴿ثم جعلناك على شريعةٍ من الأمر فاتَّبعها ولا تتّبع أهواءَ الذين لا يعلمون﴾. الجاثية: ١٨

﴿لقد أرسلْنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهمُ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس وليعلَمَ الله من يَنصُرُهُ ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[1] الحديد: ٢٥



(١)المقصود بالميزان في هذه الآية الكريمة: العدل، مثلما قال مجاهد وقتادة وغيرهما. انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٣/٨.
أما المراد بالحديد فهو القوة السياسية، إذ لو عصى الناس وترددوا وامتنعوا عن إنفاذ شرع الله عز وجل، لزم استخدام السيف في وجههم: أي: منعهم بالقوة من ذلك، ولا يملك هذا إلاّ الدولة. انظر التفسير الكبير للرازي ١٠٣/٨.

قبسات من نور
المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم

«عليكم بكتاب الله، أحلّوا حلاله وحرموا حرامه». كنز العمال الجزء الأول الحديث رقم ٩٦٦ عن الطبراني ومسند أحمد.

«إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم حرمات فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها». كنز العمال جـ١ الحديث ٩٨١ عن الدارقطني باب الاعتصام بالكتاب والسنة.

«ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته....». البخاري: كتاب الأحكام باب رقم ١، مسلم: كتاب الإمارة باب رقم ٥.

«ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلّا حرم الله عليه الجنة...». البخاري: كتاب الأحكام باب رقم ٨، مسلم: كتاب الإيمان باب رقم ٦١.

«من أخون الخيانة تجارة الوالي في رعيته» كنز العمال: جـ٦ الحديث ٧٨.

«إن أخونكم عندنا من طلبه». سنن أبي داود: كتاب الإمارة باب رقم ٢.

«ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم، ولا ينصح إلّا لم يدخل معهم الجنة». صحيح مسلم: كتاب الإمارة باب رقم ٥.

«السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية، فلا سمع وطاعة». البخاري: كتاب الأحكام باب رقم ٤، مسلم: كتاب الإمارة باب رقم ٨.

«لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف». مسلم: الإمارة: ٨.

«أفضل الجهاد كلمة عدل، أو حق عند سلطان جائر». سنن أبي داود: الملاحم: ١٧، سنن الترمذي: الفتن: ١٢.

«إنه سيكون بعدي أمراء من صدقهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه». سنن النسائي: البيعة: ٣٤.

«من أرضى سلطاناً بما يسخط ربه، خرج من دين الله». كنز العمال جـ ٦ حديث ٣٠١.

«سيكون عليكم أئمة يملكون أرزاقكم، يحدثونكم فيكذبونكم، ويعملون فيسيئون العمل، لا يرضون منكم حتى تحسنوا قبيحهم، وتصدقوا كذبهم، فأعطوهم الحق ما رضوا، فإذا تجاوزوا، فمن قتل على ذلك فهو شهيد». كنز العمال: جـ ٦ حديث ٢٩٧.

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه». سنن أبي داود: الملاحم: باب ١٧، سنن الترمذي الفتن باب ١٢.

الفرق بين الخلافة والملك:

سأل عمر يوماً سلمان الفارسي رضي الله عنهما: «أملك أنا أم خليفة؟» فأجابه على الفور: «إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك».

وقال عمر رضي الله عنه أيضاً ذات مرة في مجلسه: «والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك؟ فإن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم» فقال أحد الصحابة رضوان الله عليهم: «يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً» قال: «وما هو؟» قال: «الخليفة لا يأخذ إلّا حقاً ولا يضعه إلّا في حق، فأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا».

الطبقات الكبرى ١/٣٠٦ - ٣٠٧

أمانة بيت المال:

حمل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في اليوم التالي لتوليه الخلافة أقمشته، وكان يتعيش من تجارة القماش، وخرج لبيعها، فلقيه في الطريق إلى السوق عمر رضي الله عنه فسأله: أين تريد؟ قال: السوق. قال: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: ومن أين أطعم عيالي؟ قال عمر: انطلق يفرض لك أبو عبيدة. وكان أبو عبيدة خازناً لبيت المال، وهو أمين هذه الأمة كما سماه رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فانطلقا إلى أبي عبيدة فقال: أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم، وكسوة الشتاء والصيف إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره.

فلما حضر أبا بكر الموت قال: قد كنت قلت لعمر إني أخاف ألا يسعني أن آكل من هذا المال شيئاً، فغلبني، فإذا أنا مت، فخذوا من مالي ثمانية آلاف درهم وردوها إلى بيت المال.

وكان أبو عبيدة خازن بيت المال قد قدر له أربعة آلاف درهم سنوياً للنفقة التي ذكرها.

فلما جاؤوا بها إلى عمر رضي الله عنه قال: «رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده تعباً شديداً».

كنز العمال جـ ٥ الحديث: ٢٢٨٠.

أما عمر فقال في خطبة له:

«إن هذا المال لا يصح فيه سوى خلال ثلاث: أن يؤخذ بالحق، ويعطى بالحق، ويمنع من الباطل. وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف».

البداية والنهاية ٧/١٣٤.

* * *

قائمة المراجع

القرآن الكريم

أ - القرآن الكريم وعلومه

ب - الحديث الشريف وعلومه

جـ - المراجع القديمة

د - المراجع الحديثة

هـ - الجرايد والمجلات

أ - القرآن الكريم وعلومه:

١ - أحكام القرآن: لأبي بكر الجصاص: أحمد بن علي المتوفى سنة ٣٧٠هـ. القاهرة ١٩٥٨م.

٢ - التفسير الكبير: لفخر الدين الرازي: محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري المتوفى سنة ٦٠٦هـ. القاهرة ١٣٢٤ هـ.

٣ - الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي الأنصاري الخزرجي المتوفى سنة ٦٧١ هـ. القاهرة ـ دار الكتب.

٤ - تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن ضو بن كثير القرشي البصروي ثم الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ. القاهرة - كتاب الشعب.

٥ - تفسير روح المعاني: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ. مصر ١٣٤٥ هـ.

* * *

ب - الحديث الشريف وعلومه :

٦ - صحيح البخاري : للإمام محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ. تصوير بيروت ـ كتاب الشعب.

٧ - صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ هـ. (فؤاد عبد الباقي ـ القاهرة) تصوير بيروت.

٨ - سنن أبي داود: للإمام سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ. طبع الهند وتصوير بيروت.

٩ ـ صحيح مسلم بشرح النووي : للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ. القاهرة ـ كتاب الشعب.

١٠ - الفتح الباري في شرح صحيح البخاري : للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٦٧٦هـ. القاهرة ـ السلفية.

١١ - نيل الأوطار شرح المنتقى من أحاديث المصطفى ﴿ﷺ﴾ :
لمحمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ.
القاهرة ـ الحلبي.

١٢ - كنز العمال: لعلاء الدين الهندي.
دائرة المعارف ـ حيدر أباد الهند ١٩٥٥م.

* * *

جـ - المراجع الأصلية:

١٣ - الخراج: لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري البجلي المتوفى سنة ١٨٣هـ. السلفية ١٣٥٢هـ.

١٤ - السيرة النبوية: لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري المتوفى سنة ٢١٣هـ. القاهرة ١٩٣٦م.

١٥ - الطبقات الكبرى: لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري (كاتب الواقدي) المتوفى سنة ٢٣٠ هـ. دار صادر - بيروت ١٩٥٧م.

١٦ - سيرة عمر بن عبد العزيز: لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم المصري المتوفى سنة ٢٥٧ هـ. دمشق - المكتبة العربية ١٩٦٠م.

١٧ - تاريخ الأمم والملوك: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ. القاهرة ١٩٣٩م.

١٨ - المغني: لقاضي القضاة شيخ المعتزلة، عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥هـ. الدار القومية - القاهرة.

١٩ - أصول الدين: لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ. - استانبول ١٣٤٦ هـ.

٢٠ - الأحكام السلطانية لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ. القاهرة ١٩٦٢م.

٢١ - الفصل في الملل والأهواء والنحل:لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ القاهرة ١٣١٧هـ.

٢٢ - المحلى: لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ القاهرة، زكريا يوسف.

٢٣ - الأحكام السلطانية: لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي المتوفى سنة ٤٥٨هـ. القاهرة.

٢٤ - متن العقائد النسفية: للإمام عمر بن محمد النسفي المتوفى سنة ٥٣٧هـ. استانبول - ١٣٢٧هـ.

٢٥ - الملل والنحل: لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ. القاهرة ١٣١٧هـ.

٢٦ - الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام: لأبي القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ هـ. القاهرة ١٩٦٥ م.

٢٧ - تاريخ عمر بن الخطاب: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي القرشي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ. طبع دمشق ١٩٧١ م.

٢٨ - الرياض النضرة في مناقب العشرة: لأبي العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري الشهير بالمحب الطبري المتوفى سنة ٦٩٤هـ. مصر ١٣٢٧هـ.

٢٩ - منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية: لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ. مصر ١٣٢٢ هـ.

٣٠ - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية: لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية دمشق ١٩٦٦م.

٣١ - الحسبة: لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ.دمشق ١٩٦٦م.

٣٢ - المواقف، وبهامشه شرح الجرجاني: لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ.طبع تركيا ١٢٨٦ هـ.

٣٣ - البداية والنهاية: لأبي الفداء بن كثير إسماعيل بن عمر بن ضو القرشي البصروي ثم الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ.
طبع مصر وتصوير بيروت.

٣٤ - تخريج الدلالات السمعية وشرحه للكتاني: للإمام علي بن محمد الخزاعي المتوفى سنة ٧٨٩ هـ. طبع الرباط وتصوير بيروت.

٣٥ - شرح متن العقائد النسفية: لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١ هـ. طبع تركيا ١٣٢٦ هـ.

٣٦ - مقدمة ابن خلدون: لأبي زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي الأشبيلي المتوفى سنة ٨٠٨ هـ.
القاهرة وتصوير بيروت.

٣٧ - مقدمة ابن خلدون بتحقيق علي عبد الواحد وافي: طبع لجنة البيان العربي ـ القاهرة

٣٨ - أسنى المطالب في شرح روض الطالب: لأبي يحيى زكريا الأنصاري الشافعي المتوفى سنة ٩٢٦هـ.

٣٩ - بدائع الزهور في وقائع الدهور بتحقيق محمد مصطفى. لمحمد بن أحمد بن أياس الحنفي المتوفى سنة ٩٣٠هـ.



د - المراجع الحديثة:

٤٠ - الاتجاهات الوطنية في الأدب الحديث:

د. محمد محمد حسين، دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٦م.

٤١ - الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية:

د. إسحاق موسى الحسيني، دار بيروت ١٩٥٢ م.

٤٢ - الإسلام وأصول الحكم:

علي عبد الرازق، القاهرة ١٩٢٥ ط٣

٤٣ - الإسلام وأصول الحكم دراسة ووثائق:

محمد عمارة، مؤسسة الدراسات العربية بيروت ١٩٧٢ م.

٤٤ - الإسلام والخلافة في العصر الحديث:

د. محمد ضياء الدين الريس، الدار السعودية ـ جدة ١٩٧١م.

٤٥ - الإسلام والغرب والمستقبل:

آرنولد توينبي. الدار العربية ـ بيروت ١٩٦٥م.

٤٦ - الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية:

للإمام محمد عبده، دار الهلال ـ القاهرة

٤٧ - أخبار عمر: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، المكتب الإسلامي بيروت - الطبعة الثامنة ١٩٨٣.

٤٨ ـ أسرار الماسونية: جواد رفعت أتلخان، الهيئة العربية العليا لفلسطين ـ بيروت ١٩٦٢م.

٤٩ - الله: عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر.

٥٠ - البلاد العربية والدولة العثمانية:
ساطع الحصري، دار العلم للملايين. بيروت

٥١ - التبشير والاستعمار: د. عمر فروخ، د. مصطفى الخالدي
- صيدا ١٩٥٨م

٥٢ - تاريخ الإمام محمد عبده: محمد رشيد رضا. القاهرة.

٥٣ - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى:
د. سعيد عبد الفتاح عاشور، النهضة. مصر ١٩٦٠ م.

٥٤ - تاريخ أوروبا في مطلع العصور الحديثة:
د. عبد العزيز الشناوي، دار المعارف بمصر - القاهرة

٥٥ - تاريخ العرب الحديث: د. أحمد رجب ورفاقه
وزارة التربية - قطر الدوحة ١٩٧٧ م.

٥٦ - تاريخ العرب الحديث والمعاصر: د. توفيق برو ورفاقه
وزارة التربية - سورية - دمشق ١٩٧٥م.

٥٧ - تركيا بين جبارين: باسيل دقاق. بيروت ١٩٣٣ م.

٥٨ - تركيا الحديثة: محمد عزة دروزة. - صيدا.

٥٩ - تركيا الفتاة: آرنست رامزور. بيروت ١٩٦٢م.

٦٠ - ثورة الدم: عبد الرحمن الساعاتي. القاهرة

٦١ - جهاد ناطق: عمر مفتي زادة. بيروت ١٩٣٢م.

٦٢ - الحروب الصليبية: آرنست باركر، القاهرة.

٦٣ - حضارة العرب: غوستاف لوبون. القاهرة ط ٢.

٦٤ - حقيقة الإسلام وأصول الحكم:
محمد بخيت المطيعي، السلفية ١٣٤٦ هـ.

٦٥ - حياة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم:
د. محمد حسين هيكل، القاهرة ط ٢.

٦٦ - خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية:
عبدالله التل، المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٧٩.

٦٧ - الخلافة أو الإمامة العظمى: محمد رشيد رضا، المنار - القاهرة

٦٨ - دائرة المعارف الماسونية: مجموعة مؤلفين. بيروت.

٦٩ - الدين والدولة في الإسلام:
د. مصطفى السباعي، دمشق ١٩٥٢ م.

٧٠ - روح وريحان: أحمد أنس الحجاجي، القاهرة

٧١ - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: د. مصطفى السباعي
المكتب الإسلامي - ١٩٧٢م. ط٢.

٧٢ - الصديق أبو بكر: د. محمد حسين هيكل، القاهرة

٧٣ - عبد الحميد ومعارضوه محمد رائف أورغان، بيروت ١٩٣٣م.

٧٤ - عبقرية الإسلام في أصول الحكم: د. منير العجلاني، مطبعة
جامعة دمشق ١٩٤٧م.

٧٥ - العدالة الاجتماعية في الإسلام:

سيد قطب، الحلبي ـ القاهرة ١٩٦١ م.

٧٦ - العرب والترك: محمد جميل بيهم، بيروت ـ ١٩٥٢ م.

٧٧ - العلاقة بين العرب والترك في العهد الدستوري:
د. محمد توفيق برو، معهد الدراسات العربية ـ القاهرة

٧٨ - الغارة على العالم الإسلامي: محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، السلفية ١٣٧٥ هـ.

٧٩ - الغرب والشرق الأوسط: برنارد لويس
الدار العربية ـ بيروت ١٩٦٦م.

٨٠ - الفكر الإسلامي الحديث: د. محمد البهي.
القاهرة ـ ١٩٦١ م.

٨١ - فلسفة التاريخ العثماني: محمد جميل بيهم. بيروت.

٨٢ - القاديانية ثورة على النبوة: أبو الحسن الندوي
الدار السعودية ـ جدة ١٩٧٠ م.

٨٣ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوي، الشؤون الدينية ـ قطر ١٩٧٤م.

٨٤ - المؤامرة ومعركة المصير: سعد جمعة،
دار الكاتب العربي ـ بيروت ١٩٦٨م.

٨٥ - مجموعة رسائل الإمام حسن البنا: حسن البنا
دار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٥م.

٨٦ - مجموعة الوثائق السياسية على عهد النبوة: محمد حميد الله الحيدر آبادي، دار الإرشاد - بيروت ١٩٦٦م.

٨٧ - محاضرات في النصرانية: محمد أبو زهرة.
القاهرة - معهد الدراسات الإسلامية.

٨٨ - مدحت أبو الدستور وخالع السلاطين: قدري القلعجي، دار الكاتب العربي - بيروت.

٨٩ - مذكرات حسن البنا: حسن البنا. القاهرة

٩٠ - مذكرات الدعوة والداعية: حسن البنا.
المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٧٠م.

٩١ - مذكرات مدحت باشا: مدحت باشا. بيروت - ١٩٣٥ م.

٩٢ - المستشرقون: نجيب العقيقي. دار المعارف - مصر

٩٣ - المستقبل لهذا الدين: سيد قطب، مكتبة وهبة - القاهرة ١٩٦٤م.

٩٤ - مصطفى كمال المثل الأعلى: داجوبرت فون ميكوش.
بيروت - ١٩٣٣م.

٩٥ - مصطفى كمال الذئب الأغبر: أرمسترونج، دار الهلال - القاهرة.

٩٦ - معالم تاريخ الإنسانية: جـ - هـ - ويلز. القاهرة - ١٩٧٤م.

٩٧ - معذبو الأرض: فرانز فانون دمشق - وزارة التربية - ١٩٦٥م.

٩٨ - من توجيهات الإسلام: محمود شلتوت. دار القلم - القاهرة.

٩٩ - من خطب البنا - الحلقة الأولى: حسن البنا. القاهرة.

١٠٠ - من روائع حضارتنا: د. مصطفى السباعي.
المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٧٦ ط ٢.

١٠١ - منهاج الإسلام في الحكم: محمد أسد.
دار العلم للملايين ١٩٦٤.

١٠٢ - موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين:
مصطفى صبري. القاهرة وتصوير بيروت ١٩٧٥م.

١٠٣ - النظريات السياسية الإسلامية: د. محمد ضياء الدين الريس.
دار المعارف بمصر - القاهرة - ط ٢.

١٠٤ - النقد الذاتي بعد الهزيمة: صادق جلال العظم.
دار الطليعة - بيروت.

١٠٥ - نقد الفكر الديني: صادق جلال العظم. دار الطليعة - بيروت.

١٠٦ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم:
محمد الخضر حسين. السلفية - القاهرة ١٣٤٦ هـ.

١٠٧ - يقظة العرب: جورج أنطونيوس. دار اليقظة العربية - بيروت ١٩٦٣م.

١٠٨ - يوميات السلطان عبد الحميد: عبد الحميد الثاني
مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٦م.

هـ - الجرايد والمجلات:

١ -مجلة الإخوان المسلمين الأسبوعية ـ العدد الأول ١٩٥٤م - القاهرة.

٢ -مجلة آخر ساعة الأسبوعية ـ أعداد شهر نوفمبر ١٩٧٠م. القاهرة.

٣ -مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخاص عن حياة السباعي ـ ديسمبر ١٩٦٤ والعددان السابع والثامن من السنة الثالثة عشرة، والعدد العاشر من السنة السابعة عشرة، العدد الرابع من السنة الثامنة عشرة ـ دمشق.

٤ -مجلة الدعوة ـ عدد شهر فبراير ١٩٥٣ - القاهرة.

٥ -مجلة الطليعة - عدد نوفمبر ١٩٧١ - القاهرة.

٦ -مجلة المصور الأسبوعية ـ أعداد شهر أكتوبر ١٩٦٨ - القاهرة.

٧ -مجلة المنار ـ العدد الأول من المجلد الأول والعدد الخامس من المجلد السادس ـ القاهرة.

٨ -مجلة الوعي الإسلامي ـ عدد نوفمبر ١٩٦٥ - الكويت.

٩ - جريدة الإخوان المسلمين اليومية ـ أعداد مختلفة ذكرت في الهوامش القاهرة.

١٠ -جريدة الأخبار ـ ٢٣ أغسطس ١٩٧٧ - القاهرة.

١١-جريدة الأهرام ـ ٢٦ مارس ١٩٥٢ - القاهرة.

١٢ -جريدة فلسطين ـ ٢٢ أغسطس ١٩٢١ - القدس.

١٣ -جريدة المنار ـ أعداد أبريل ١٩٤٨ - دمشق.

* * *

فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة